خلاصة قصة فلسطين والصهيونية
من جذور الصهيونية إلى طوفان الأقصى

خلاصة قصة فلسطين والصهيونية

Hulaset kıset filastin

ISBN: 978-625-6800-16-8

المؤلف: محمد إلهامي

twitter.com/melhamy

t.me/melhamy

youtube.com/melhamy

melhamy.blogspot.com

fb.com/profile.php?id = 100091925270490

goodreads.com/author/show/4479089

الطبعة الأولى

1446هـ-2025م

اسطنبول - تركيا

خلاصة قصة فلسطين والصهيونية
من جذور الصهيونية إلى طوفان الأقصى

محمد إلهامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المحتوى	الصفحة

مقدمة

أحسب أن هذه الدراسة هي الأكثر إرهاقا وإتعابا من البحوث والدراسات التي كتبتها، لقد كنت أعرف من قبل أنها مهمة عسيرة، ولكني كلما تقدمت فيها عرفت أنها كانت أكثر عسرا وصعوبة مما تصورت، ولقد هممت وقتا بالتوقف عنها وإرجائها لكن سرعان ما نفضت خاطر الشيطان هذا عن رأسي، فكم في الأوراق دراسات استنفدت وقتا وجهدا ثم جاء قرار إرجائها فجعلها تسكن الملفات والأدراج دون أن يأتي الوقت المناسب، فكلما مرَّ الوقت قلَّ الفراغ وزادت المسؤوليات وضعفت الهمة والصحة، وما من قرار يتخذه كاتبٌ أسوأ من أن يُرجئ عملا، فالعمل المُرجأ لا يكاد يُستكمل بعد!

لقد وعيت على الدنيا وقضية فلسطين حاضرة، وكنت مهتما بها في سائر مراحل حياتي، وهذا أول ما يعرف به المرء مدى تعقد هذه القضية وسخونتها، وكيف أن محاولة تقديم خلاصتها في كتاب هو نوع من المغامرة المخيفة. وقد كان حقُّ هذه الدراسة أن تُكْتَب متأخرا بعد أن نصل في مشروع «خلاصة تاريخ الإسلام» إلى الفترة الحديثة والمعاصرة، لكن اندلاع طوفان الأقصى قضى بأنها دراسة حقُّها التقديم لا التأخير، فقد صارت قضية الوقت.

وكما كررت سابقا، فإن سلسلة «خلاصة تاريخ الإسلام» ليست مكتوبة لمجاراة المؤرخين ولا لفئة الباحثين، وإنما هي مكتوبة للعاملين

لهذا الدين، وغرضها أن تقدم لهم خلاصة يفهمون بها معالم هذا التاريخ وأهم دروسه وعبره، وهذا الغرض هو الذي يحدد طريقة الكتابة ومنهجها ولهجتها كذلك. ويحملنا على الاختصار، وهذا الاختصار هو أعظم أسباب العسر في كتابة هذه الدراسة!

وذلك أنه كيف يمكن اختصار تاريخ حافل مكدس، يفيض بالتفاصيل ويزخر بالأحداث، ومصادره تستعصي على الحصر! فأكثر القيادات من أهل هذه القضية كتبوا مذكراتهم ويومياتهم، أو جُمِعت بعدهم، ويشمل هذا الفلسطينيين والعرب والمسلمين كما يشمل الصهاينة والإنجليز والأمريكان، ثم إنه يندر أن تكون ثمة شخصية فاعلة لم يكتب عنها دراسة واحدة على الأقل، وبعد ذلك يأتي عمل المؤرخين والباحثين الذين انصب جهدهم على فهم هذه القضية ومعالجتها، وهم كثرة لا يحصون عددا، فضلا عن أن تُحصى مؤلفاتهم وكتاباتهم، وذلك فضلا عن طوفان الوثائق والصحف الذي يمتد عبر أكثر من مائة عام. فما من قضية أو حدث أو شخصية إلا وتنوعت فيها الآراء واختلفت وتباينت، ثم إن هذه الآراء لم تكن في الأغلب خالصة لوجه الله والحقيقة بل لا بد من فهم الكاتب ودوافعه وموقعه من خريطة السياسة والمصالح. وحتى أولئك الذين توخوا الصدق فإنهم لم يستطيعوا قول كل ما لديهم مراعاة لحساسيات وموازنات داخلية وخارجية، فمنهم من سكت ومنهم من اكتفى بالتلميح، والتلميح لا يدركه إلا الذكيُّ المعاصر العارف بالحال، فكيف إن كان الأمر تاريخا قد ابتعد عنه القارئ فهو لا يعرفه فضلا عن أن يفهم ما فيه من تلميحات وكنايات.. وهكذا، فأي شيء أكثر عسرا من استخراج خلاصة تاريخ القضية من بين هذا البحر المحيط؟!

ولهذا فإني أعلم أني مهما اجتهدت في دراسة كهذه، فإن حجم ما سيفوت مني سيكون كبيرا، ولا ريب كذلك في أن الخطأ سيسرع إليّ في مواضع عديدة مهما بذلت من الحرص في دفعه وأن لا أقع فيه. ولقد اضطررت لإنهاء هذه الدراسة وقائمة الكتب التي أعددتها للنظر أكبر من التي طالعتها بالفعل، وقد بذلت غاية جهدي، وهو جهد المقل، في تتبع التاريخ وفهمه وتقديم خلاصته.

ومع أني أزعم لنفسي الاهتمام بالقضية منذ صغري، متابعة وقراءة وكتابة، فإن كل مُضِيٍّ في المصادر كان يدهشني ويفجعني ويفظعني، فحجم الخيانات أوسع مما تصورنا، وطبيعة المأساة أبشع مما تخيلنا، وهو ما يجعل المجهود المطلوب لتحرير أمتنا وفلسطين مجهودا أكبر مما توقعنا.

وقد حرصت على سردٍ متوازن لقصة التاريخ، مع ما يتداخل في هذه القضية من قضايا دينية وسياسية واجتماعية، ثم أنهيت السرد ببعض الدروس المستفادة والمستخلصة من هذا التاريخ، ولمن لا يصبر على قراءة القصة أن يذهب مباشرة إلى هذه الخلاصات، فإنها تكفيه إن شاء الله.

ليس ثمة داعٍ أن أدخل بالقارئ في دوامة من التفاصيل المنهجية والعلمية، فالدراسة مكتوبة أساسا لتكون خلاصة ولا يناسبها التطويل، ولهذا أختصر القول في منهج الدراسة فأقول: سيكفي القارئ أن لو قرأ المتن فحسب دون الحواشي، فما في الحواشي إنما يهم من يريد الاستزادة أو مراجعة المعلومة في مصدرها، وذلك كي لا يفلت سياق الكلام من القارئ بكثرة مطالعته للحواشي. وهذا مع أني لم أحاول تضخيم الحواشي ولا زيادتها، ولكنني أعلم أن من سيقرأ الكلام قد يندهش من بعض المعلومات والتفاصيل، فكان لزاما علي أن أحيل إلى المصدر. مع ملاحظة أن الغالبية العظمى من الحواشي هي مصادر أصلية، وفي طليعتها: مذكرات شهود العيان، ولم يكن يسعني أن أفصل لدى كل مصدر كيف كان هذا الشخص شاهد عيان ولا ما هو اتصاله بالقضية، ولكن من يعرف هذه الأسماء والشخصيات أو من سيكلف نفسه المراجعة ورائي سيتبين له الأمر(١). كما

(١) سأضطر هنا لضرب مثال: استشهدت مثلا بكتاب محمود الصباغ «حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين» على مواقف بعينها، سيستغرب القارئ لأول وهلة من هو محمود الصباغ، وما علاقته بكلام عن عبد القادر الحسيني وأمين الحسيني، ذلك أنه لا يعرف أن هذا الرجل كان مسؤول الاتصال بين الإخوان المسلمين وبين الهيئة العربية العليا، وكان صديقا ومساعدا لعبد القادر الحسيني، وكان مسؤولا عن التسليح، وكان قائد أول فرقة متطوعين للإخوان إلى فلسطين. إن توضيح هذا كله لا يتسع له المتن ولا الحاشية. ومثل ذلك مثلا استشهادي بكتاب=

لم يسعني توضيح لماذا تبنيت هذه الرواية ورجحتها على غيرها، فذلك أمرٌ يطول للغاية ولا يناسب مقام الاختصار، على أني ربما أشرت في الحاشية إشارة سريعة لشيء من هذا. فإذا لم يكن المصدر أصليا أو من مذكرات شاهد عيان، فهو في الأغلب دراسة من مؤرخي الصف الأول ممن قدموا دراسات نوعية ثقيلة، سواءٌ في تاريخ القضية عموما، أو في تاريخ المسألة المبحوثة خصوصا، حيث قام هؤلاء بالاعتماد على وثائق أرشيفية، إما هي غير متاحة أصلا، أو أن الوصول إليها لم يتيسر. وقد ابتعدتُ تماما عن أي مصادر يمكن أن توصف بأنها عاطفية أو لا تتمتع بالموثوقية العلمية. ومن تأمل الحواشي وترتيبها فهم أني أراعي أمورا فنية وأكاديمية وتاريخية، لا مجال للتفصيل فيها؛ كأن أستشهد على عصر الدولة العثمانية بكلام زعيم قومي عروبي دون الإسلاميين، أو أن أستشهد على أمر بما بمنطق ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ فأقدِّم من لا يمكن الطعن في شهادته بخصوص الواقعة على غيره. وإذا تكلمت عن حدث مشهور لم أهتم بذكر المصدر، فإذا كانت مأساة أو مذبحة فضَّلت أن أحيل القارئ إلى مصدر كالمذكرات على التقارير، ففي المذكرات روح إنسانية حارة بخلاف الأرقام الجافة التي تقدمها التقارير، حتى إذا أحب القارئ أن يستزيد كان خيرا له أن يذهب إلى المصدر الذي يشعر فيه بالحدث ومأساته لا إلى تقرير منظم بارد صفيق! وقد زدت وأكثرت في الحواشي والاستدلالات ـ التي أكرر لمرة أخرى أنها لن تهم عموم القراء الذين كتبت لهم هذه الدراسة ـ حيثما رأيت أن هذا نافع، وقللت منها حيث رأيت أن هذا أنفع. ولا يتسع المقام لبيان منهجية ذلك، غير أن من تأمل فيها أدركه واستوعبه.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان، فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

= السجينة لمليكة أوفقير، فقد يستغرب القارئ ذلك، فإنها فتاة مغربية تحكي قصة سجنها، ولكني إنما استشهدت بها في سياق إثبات العلاقة بين اليهود وبين النظام المغربي، فقد ذكرت معلومات منزوية في كتابها عن والدها الجنرال محمد أوفقير الذي كان الرجل الثاني في النظام المغربي وقتها. وهكذا.

جذور الصهيونية

يؤمن اليهود بأحقيتهم في بيت المقدس وفلسطين على أساس أنها الأرض المقدسة التي عاش فيها أنبياؤهم: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهاجر إليها موسى وهارون، والأنبياء من بعدهم، وفيها كانت ذروة عصورهم: عصر داود وسليمان، وهما النبيان الملكان اللذان حكما من بيت المقدس. وبعد موتهما دخلت المملكة في الضعف والانقسام، ثم تمزقت وزالت تحت الضربات المتتالية من الممالك البابلية والمصرية والرومانية، حيث عاش اليهود في هذه الأرض مضطهدين مقهورين، أو أنهم أُخرجوا منها وسيقوا أسرى وعبيدا.

المحاولات اليهودية في العودة إلى بيت المقدس

منذ ذلك الوقت الضارب في التاريخ منذ ثلاثة آلاف عام، يحلم اليهود بالعودة إلى الأرض المقدسة وإعادة إنشاء دولتهم فيها، وندَّت منهم عبر هذا الزمن بعض محاولات كلها قد أخفقت، بل الواقع أنه تجري شكوك حول جديتها وواقعيتها. ومن أبرز هذه المحاولات: محاولة داود (ديفيد) رآوبيني في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (١٥٢٣م)، وهي محاولة يحيط بها الغموض وأخبارها فيها مسحة أساطير[١]. ومحاولة

(١) ينظر: ديفيد رآوبيني، يوميات ديفيد رآوبيني، ترجمة ودراسة: د. مصطفى وجيه، ط١ (اسطنبول: دار الأصول العلمية، ٢٠٢١م)، وتنظر مقدمة محقق اليوميات والمقدم لها.

يوسف (جوزيف) ناسي بعد ذلك بأربعين عاما (١٥٦١م)، وهو يهودي فارٌّ من محاكم التفتيش التحق بعد هجرته ببلاط السلطان العثماني، ويقال بأنه حاول نقل مجموعات يهودية إلى طبرية التي مُنِح حق إدارتها وإعمارها[١]، وبالنظر إلى مجمل الظروف والتفاصيل فإنه يكاد يستحيل الظن بأن هذا كان نوعا من التخطيط للعودة، وقصاراه أن يكون محاولة إنقاذ اليهود الهاربين من محاكم التفتيش ليعيشوا في مكان آمن تحت نفوذ يهوديٍّ ذي ثراء واتصال بالسلطان العثماني.

وأغلب الظن أن هذا كله كان سيُنسَى لولا أن إنشاء إسرائيل حفَّز الصهاينة والمؤرخين للحفر والتقليب في أعماق التاريخ بحثا عن جذور لمحاولات قديمة.

وقد كشفت ثلاث وثائق عثمانية صادرة في (٩٨٩هـ = ١٥٨١م)، (٩٩١هـ = ١٥٨٣م)، (٩٩٣هـ = ١٥٨٥م) عن جهود السلطات العثمانية في منع اليهود من استيطان منطقة جبل الطور في سيناء[٢].

ولما تقلبت الأيام وضعفت الدولة العثمانية في ذات الأحقاب التي قويت فيها وصعدت الإمبراطوريات الغربية، دخل اليهود على خط هذه التقلبات محاولين الاستفادة منها، وقد تقلبت الظروف في أوروبا بما منح اليهود أوضاعا جديدة هي أفضل من التي كانوا فيها في القرون الوسطى، بل انبثقت في أوروبا طائفة مسيحية جديدة هي البروتستانتية، واستطاعت أن تسيطر على بعض البلاد، وحملت أفكارا جديدة صبَّت في صالح اليهود ـ وسنأتي لذلك بعد قليل ـ فتجدد أملهم في أن تكون عودتهم إلى فلسطين قد اقتربت من جديد، وعبَّرت هذه الآمال عن نفسها في مناشدات ونداءات

---

(١) Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic, (Hampshire: Macillan Press LTD, 1991), p. 89; عصام سخنيني، طبرية: تاريخ موسوعي، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٩م)، ص٢٥٢ وما بعدها.

(٢) انظر نصوص الوثائق والتعليق عليها لدى: إبراهيم عبد اللطيف، «من وثائق التاريخ العربي»، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، العدد ٢، ١٩٧١م، ص٩٤ وما بعدها.

وقصائد ومؤلفات، ثم في حركات عملية تسعى إلى إعادة جمع اليهود في فلسطين[١].

ثمة أمرٌ يزيد من حساسية واشتباك القضية؛ ذلك أن اليهود المعاصرين يؤمنون بأن الهيكل (المعبد الأكبر) الذي بناه سليمان، والذي دُمِّر تماما، قد كان قائما في موضع المسجد الأقصى الآن. وهو ما يعني عمليا أن إعادة بنائه يساوي هدم المسجد الأقصى. والذي هو القبلة الأولى والمسجد الثالث في عقيدتنا الإسلامية. ومن ها هنا فإن الصراع في جوهره صراع ديني ولن يمكن حله إلا بانتصار أحد الطرفين على الآخر انتصارا نهائيا، إذ المقدسات لا تقبل التهاون ولا التقسيم. ولا يملك أحد أن يتصرف فيها أو يتنازل عنها.

الصليبية الصهيونية

يؤمن النصارى أن المسيح عيسى بن مريم قد وُلِد في أرض فلسطين، في بيت لحم، وفيها بُعِث، وفيها صُلب فداء للبشرية، وفيها قبره، ولهذا فهم يحجون إليها، ويرونها أرضا مقدسة، ومن ثَمَّ فعليهم واجب إيماني يتمثل في «تحرير قبر المسيح» من أيدي الكفار (يقصدون: المسلمين).

وقد اعتنقت الدولة الرومانية المسيحية منذ عهد القيصر قسطنطين، وذلك بعد وفاة المسيح بثلاثة قرون، وانقسمت فيما بعد إلى كنيستيْن ودولتين: شرقية هي الإمبراطورية البيزنطية، وعاصمتها: القسطنطينية (اسطنبول الآن) وكنيستها: آيا صوفيا، ولغتها: اليونانية، ومذهبها الديني: أرثوذكسي. وغربية هي الإمبراطورية الرومانية الغربية، وعاصمتها: روما، وكنيستها الفاتيكان ولغتها اللاتينية.

وقد ظل الشام ومنطقة بيت المقدس عموما في أيدي الدولة الرومانية

---

(١) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٣٩ وما بعدها، ٥٩، ٦٠، ٦٤ وما بعدها؛ عبد الوهاب الكيالي (تحرير)، الموسوعة السياسية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون تاريخ)، ٦٥٩/٣.

الشرقية (البيزنطية)، إلا فترات بسيطة كانت في ظل النفوذ الفارسي، حتى كان الفتح الإسلامي للشام ومصر، فبقيت الشام وبيت المقدس في حوزة المسلمين طوال اثني عشر قرنا من الزمان.

ثمة قرن في منتصف هذه الفترة كانت السيطرة فيه على بيت المقدس للغربيين، الكاثوليك، اللاتين، التابعين للفاتيكان، وتلك هي حقبة الحروب الصليبية، وهذه الحقبة استمرت قرنين في منطقة الشام، لكن لم تكن بيت المقدس في حوزتهم إلا مائة عام، حتى حررها صلاح الدين الأيوبي، ثم استكمل المماليك تحرير الشام كله من الصليبيين.

وبقي الأمر على هذا النحو حتى مائة عام ماضية، حيث احتل الإنجليز بيت المقدس (ديسمبر ١٩١٧م)، وكتبت صحيفة بريطانية صبيحة ذلك اليوم: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

لكن هذا الدخول الأخير للإنجليز لم يكن على يد الأرثوذكس ولا الكاثوليك، وإنما كان على يد طائفة جديدة هم البروتستانت، وهي انشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية تزعمه القس الألماني مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)، واستطاعت هذه الطائفة بعد فصول طويلة أن تهيمن على أقوى الممالك والدول الغربية: بريطانيا ثم أمريكا.

خرجت هذه الطائفة ببدع جديدة في أمور كثيرة، ما يهمنا منها الآن، هو نظرتهم إلى اليهود؛ لقد اعتنق الكاثوليك عقيدة ترى أن اليهود من بعد المسيح قوم منحرفون، لم يؤمنوا بالمسيح، ومن ثَمَّ فإنهم ليسوا امتدادا طبيعيا لليهود المؤمنين المذكورين في التوراة (العهد القديم)، وإنما الامتداد الطبيعي لهؤلاء اليهود هي الكنيسة الكاثوليكية نفسها، فهي وعاء المؤمنين الذين آمنوا بالتوراة وبالإنجيل، وبالمسيح. ومن هنا فإن ما يُذكر في التوراة عن عودة اليهود للأرض المقدسة إما أنه أمرٌ كان ومضى وانقضى، أو أنه إنما يعني الكنيسة الكاثوليكية التي هي الامتداد الطبيعي للمؤمنين بالتوراة!

فلما ظهر البروتستانت اعتنقوا أفكارًا تجعل اليهود المعاصرين ليسوا انحرافا وإنما امتدادًا، ومن ثَمَّ فإنهم موعودون بالعودة إلى الأرض

المقدسة، وعودتهم هذه هي التجهيز للنزول الثاني للمسيح إلى الأرض. كذلك فإن البروتستانت حاربوا فكرة احتكار الكهنة والقسيسين لقراءة الكتاب المقدس وتفسيره، فكان من أصولهم أن الكتاب المقدس مفتوح لكل قارئ ولكل واحدٍ أن يتلقى كلمة الرب فيفهمها بنفسه ويعمل بها دون حاجة إلى وسيط من الآباء والكهنة، ومن آثار ذلك أن تُرجم الكتاب المقدس إلى اللغات الأوروبية المحلية، ثم إنه طُبِع لينتشر ويُوَزَّع، مما أدى إلى انتعاش للذكريات اليهودية وتاريخ اليهود وأنبياء بني إسرائيل في الأرض المقدسة، وكان هذا على حساب الكنيسة الكاثوليكية وتاريخها وسير قديسيها وآبائها، بل لقد «اكتشف» الوعي الجمعي الأوروبي أن عيسى ـ عليه السلام ـ ليس إلا نبيا من سلسلة أنبياء بني إسرائيل! ولئن كان عيسى هو الرب في المسيحية، فإن الحقيقة التاريخية هي أن هذا «الرب» قد وُلِد «يهوديا»!

أخذت الأفكار المتعددة في التفاعل حتى كان الخيال الأوروبي، لا سيما في المناطق التي سادت فيها البروتستانتية (وأهمها بريطانيا التي ستصير قوة عظمى عالمية)، يختزن ذاكرة تاريخية ترى أن فلسطين هي أرض اليهود، وأن اليهود هم فلسطينيون مشردون، وأن الكتاب المقدس يعدهم ويبشرهم بالعودة إلى هذه الأرض المقدسة. وبدأ ظهور الكتب التي تؤكد هذا المعنى منذ القرن السابع عشر(١).

ومن ها هنا نشأ ما صار يسمى: الصهيونية غير اليهودية، أو: الصليبية الصهيونية، حيث اتحدت العقيدتان (الصهيونية اليهودية، والصهيونية غير اليهودية) في ضرورة إعادة اليهود إلى فلسطين. ومن المؤسف والخطير أن هذا العمق الديني للصراع ليس حاضرًا بقوة في عالمنا الإسلامي بفعل الحكومات العلمانية القائمة وما تفرزه من منتجات إعلامية وتعليمية وثقافية يتعاظم فيها الجانب السياسي ويضمر فيها العمق

---

(١) في الكتب التي ألفها مسيحيون وتؤصل لإعادة اليهود إلى فلسطين، ينظر: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٣٠، ٣١، ٤٢ وما بعدها، ٥٥ وما بعدها.

الديني! ومن اطلع قليلا على هذا الموضوع يدرك بسهولة ويسر أن الصهيونية الصليبية عقيدة متجذرة وراسخة بقوة في طيف واسع من النخبة الغربية: السياسية والثقافية والاقتصادية، وأن الصهيونية هي نسخة جديدة من الحملات الصليبية في القرون الوسطى.

تفاعلت هذه العقائد ـ الصليبية الصهيونية ـ في عالم الفكر والسياسة، وتشابكت وتداخلت مع تطورات الأحداث، فكان الذين يؤمنون بها يحاولون تنفيذها وحمل الساسة عليها، وكان الساسة العلمانيون أو اللادينيون الذين لا يؤمنون بها يرون فيها وسيلة لتحقيق أغراضهم في السياسة والتوسع وتوظيف الأفكار والطاقات المختلفة في سبيل ذلك، وثمة فئة ثالثة تؤمن بالصهيونية لأنها السبيل الأمثل للتخلص من اليهود وإبعادهم عن أوروبا بإرجاعهم إلى حيث يريدون[١]!

وجد ذلك كله الفرصة المناسبة في واحدة من أخطر لحظات تاريخنا الإسلامي: حقبة احتلال محمد علي باشا للشام.

السنوات العشر الحاسمة في إحياء فكرة «إسرائيل»

يبدأ التأريخ لضعف وانهيار الحضارة الإسلامية أمام الغرب بلحظة الحملة الفرنسية على مصر والشام، حيث استطاع نابليون بالجيوش الفرنسية أن يحتل مصر ويتمدد إلى الشام حتى عكا، وقد عجز المماليك في مصر، التابعون للدولة العثمانية، وعجز أولياؤهم العثمانيون عن دفع الجيوش الأجنبية! وهذه أول مرة ينجح فيها الكفار في احتلال القاهرة منذ بنيت، وفي احتلال العاصمة الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي. فكانت

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع، ينظر: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة ٩٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة، ديسمبر ١٩٨٥م)؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ١٣٦/٦ وما بعدها (أفردت هذه الموسوعة فصلين للصهيونية غير اليهودية؛ فصل عن: صهيونية غير اليهود المسيحية وفصل عن: صهيونية غير اليهود العلمانية).

صدمة عنيفة للجميع، وبداية تأسيس حقبة جديدة.

نشر في الصحافة الفرنسية أن نابليون، وهو علماني لا دين له لكنه كان يتصنع الإيمان بحسب ما تقتضيه مصلحة السياسة، وجه نداء لليهود ليعودوا إلى الأرض المقدسة إبان توجهه إلى الشام[١]. وسواءٌ أصح هذا عنه أم لم يصح، إلا أنه كان أول إشارة إلى التقاء المصلحة اليهودية والغربية. وكان إخفاق نابليون أمام أسوار عكا مفضيا إلى دفن المشروع إلى حين.

طُردت جيوش فرنسا من مصر على يد تحالف عثماني إنجليزي، لكن الفرنسيين بحثوا عمن يمكن أن يقيموا معه علاقة قوية يكون مواليا لهم في مصر، فوجدوا ضابطا خطيرا في الجيش العثماني الذي طردهم اسمه محمد علي، وكان هذا الضابط شابا داهية عظيم النشاط، وكان شديد الإعجاب بنابليون وبالفرنسيين، فتحالف الطرفان حتى ملك محمد علي مصر بدعم من مشايخها وأعيانها وبالمجهود السياسي الفرنسي لدى الدولة العثمانية[٢].

يعد محمد علي أخطر رجل في تاريخ الشرق منذ مائتي عام، لقد نجح فيما أخفق فيه نابليون، كان سفاحا جبارا طاغية، شديد الدهاء والطموح، حكم مصر لنحو نصف قرن، فتركها وقد كسر فيها المجتمع الإسلامي وأنشأ فيها دولة حديثة مركزية على النمط الغربي.. كان أشد طغيانا من نابليون، وباسم رجل مسلم، يزعم أنه تابع للعثمانيين.

هُزِم محمد علي في كل حروبه أمام الكفار، وهي الحروب التي اضطر إليها، بينما انتصر في حروبه ضد المسلمين، وله مذابح تاريخية في الحجاز والسودان ومصر والشام. والذي يهمنا الآن هو الشام؛ فقد زحف محمد علي بجيشه الذي كَوَّنه من المصريين ـ بعد عملية استعباد واختطاف

(١) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٧٣ وما بعدها.

(٢) إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦ م)، ٣٢٨/١ وما بعدها. وهو ينقل هذا عن مذكرات فريدناند ديليسبس ابن القنصل الفرنسي الذي كان صديقا لمحمد علي، وصاحب امتياز قناة السويس.

نادرة في وحشيتها ـ فانتزع الشام من ممالك الدولة العثمانية، وهزم جيوشها، وكاد يهدم الدولة كلها ويصل إلى عاصمتها القسطنطينية، وكانت لهذا آثار دولية خطيرة لم يكن الغرب مستعدا للتصدي لها، فنهض الإنجليز والروس، ثم الفرنسيون لإعادة محمد علي عن اسطنبول، والاعتراف له بملكه على مصر والشام. وبعد عشر سنوات أخرى وبعد أحداث متعددة أزيل حكم محمد علي من الشام مقابل أن تكون مصر تابعة له ويكون حكمها في أولاده من بعده.

هذه السنوات العشر التي حكم فيها محمد علي الشام، وسيطر فيها على بيت المقدس، كانت سنوات حاسمة وفاصلة في إحياء فكرة إسرائيل.

كانت سياسة محمد علي في مصر والشام سياسة احتلال قح وفجّ، لا فارق بينه وبين المحتل الإنجليزي والفرنسي، بل إن اسمه المسلم وتبعيته الشكلية للدولة العثمانية جعلته أشد شراسة وخطرا، وجعلت مقاومته أكثر صعوبة وارتباكا. ومن بين سياساته العديدة فإن الذي يهمنا الآن هو سياسته في الشام، والتي يمكن إيجازها في جملة واحدة على النحو الآتي: لقد عمل محمد علي ليوفر التمكين التام للأجانب على حساب الرعايا، ولليهود والنصارى على حساب المسلمين.

شجع محمد علي هجرة اليهود إلى مصر، واستكثر منهم في إدارته[١]، وثمة وثيقة غامضة مؤرخة قبل احتلال محمد علي للشام بتسع سنوات، وهي رسالة يهودي شامي تنقل إلى محمد علي أحوال الشام والعراق وإيران وتستشرف أحوال الشام[٢]، ما قد يشير إلى تنظيم يهودي

---

(١) ميخائيل فنتر، «علاقات اليهود مع السلطات والمجتمع غير اليهودي»، ضمن: يعقوب لانداو (تحرير)، تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية، ترجمة: جمال الرفاعي وأحمد حماد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠م) ص٥٢٢؛ Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire, p. 158.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير، (بيروت: الجامعة الأمريكية، ١٩٤٠ م)، ٤٤/١، ٤٥.

يعمل لصالح محمد علي في هذه المناطق. وبمجرد دخول جيوشه إلى الشام أزال كل الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج النصارى واليهود إلى بيت المقدس(١)، وأصلح أديرة الرهبان الروم، وبنى محجرا صحيا للحجاج النصارى القادمين، ثم جعل الأموال التي سيدفعها هؤلاء الحجاج تحت تصرف الرهبان(٢)، في تصرف لا يمكن فهمه لرجل احتكاري يبني دولة حديثة تُمَرْكِز الأموال في يدها. وشرع منذ الأيام الأولى في ترميم وبناء كُنُس جديدة حتى من قبل أن يستقر احتلاله للشام(٣)، فأنشئت تسعة معابد لليهود في القدس(٤)، فضلا عن الكنائس والأديرة(٥)، ووقع الخلاف بين اليهود حول بناء معابد جديدة أم بناء مساكن لاستيعاب اليهود المهاجرين الجدد(٦)، فقد عانت بيت المقدس من فائض هجرة يهودية ونصرانية(٧). كذلك مُنِح النصارى حق ترميم كنائسهم وبناء الجديد منها دون استئذان من السلطات العثمانية كما كان معمولا به(٨)، ومُنِحَ الأجانب حق دخول الأماكن الإسلامية المقدسة تحت حماية السلطات(٩). وسُمِحَ للتجار الأجانب بأن يتاجروا داخل بلاد الشام من بعد ما كان العثمانيون يلزمونهم التجارة في المدن الساحلية فحسب، وكانت الضريبة على تجارة

(١) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٩م) ص١١٤، ١١٦؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م)، ص٣٥.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ١٣٤/٣.

(٣) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ١٣٦/١.

(٤) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٢٩٦/٤ وما بعدها.

(٥) لطيفة سالم، الحكم المصري في الشام، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م)، ص٢٤٨، ٢٥٠ وما بعدها.

(٦) كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٥٦٤.

(٧) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص١١٧؛ مجهول، مذكرات تاريخية، ص٦٩، ٧٠.

(٨) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص١٦٢.

(٩) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص١٦٥.

المسلمين سبعة أضعاف الضريبة على تجارة الأجانب[(١)]، وغُلَّت يد الرقابة الحكومية عن التجارة الأجنبية[(٢)]، وسمح لهم بالتوغل في الشام ودخول دمشق[(٣)]، بل لقد نُظِّم دخول أسطوري للقنصل الإنجليزي إلى دمشق[(٤)]! وكان العثمانيون يمنعونهم من هذا إذ يرون الشام دارا إسلامية مقدسة. وقد مُنِعت السفن العثمانية من التجارة في بلاد الشام[(٥)].

كذلك فقد سُمِح للأجانب واليهود بإنشاء المدارس في الشام، وقد أنشأ الأثرياء اليهود مدارس حديثة تبتغي صناعة نخبة من الشباب اليهودي الشرقي ليكونوا مؤهلين ومكتفين بقدراتهم عن الحاجة إلى اليهود الغربيين للدفاع عنهم[(٦)]. وأُدْخِل النصارى واليهود في وظائف الجيش والإدارة وحازوا الرتب والألقاب[(٧)]، ولأول مرة جرى تعيين يهود ونصارى وأرمن وأجانب في «مجلس شورى القدس» الذي يتولى تنظيم شؤون المدينة المقدسة[(٨)]، ومُنِحوا تراخيص إنشاء مشروعات اقتصادية وتجارية تجعلهم يتصرفون في أراضي وقف إسلامية وأراضٍ تابعة للسلطنة العثمانية[(٩)].

---

(١) داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٣٣، ١٤٣.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٣/١٣٥.

(٣) داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٣٢.

(٤) مجهول، مذكرات تاريخية، ص٢٥، ٦٨، ٦٩؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص ١٨٩.

(٥) محمد فريد، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تحقيق: د. أحمد زكريا الشلق، ط ٢ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥ م)، ص١٦٥.

(٦) داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٨٩؛ Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire, p. 158; Jonathan Frankel, The Damascus Affair: 'Ritual Murder', Politics, and the Jews in 1840, (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p.376.

(٧) داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٨٩.

(٨) أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، (بيروت: منشروات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية) ٥/٢٢٤، ٢٢٦؛ مصطفى عبد الغني، الأوقاف على القدس، ط١ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م)، ١٢٠، ١٢٣.

(٩) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٢/ ٣٢٦، ٣/٦٥، ٦٦.

ولأول مرة في تاريخ بيت المقدس أنشئت قنصلية أجنبية فيها، هي القنصلية الإنجليزية (١٨٣٩م)، والتي سيكون لها دور خطير في رعاية اليهود والبروتستانت في بيت المقدس وفي الشام، وستكون مركز نفوذ إنجليزي عظيم الشأن، بل ستكون معقلا لنشر التنصير[١]، وفي ذلك الوقت طلب القنصل الأمريكي (ومقره يافا) تعيين نائب له في بيت المقدس[٢]، وبدأت في ذلك الوقت النشاطات الأمريكية في المدينة المقدسة[٣].

وفي ذلك العهد الأسود وقعت أول محاولة يهودية للاستيلاء على جزء من ساحة حائط البراق (يسمونه: حائط المبكى) بمعونة القنصل الإنجليزي، واستجابت لذلك السلطة المصرية[٤].

وتمتع اليهود والنصارى بوضع فوق القانون، وجرت عقوبة من أساء إليهم من جنود السلطة وإن بغير قصد، بل عفي عن جرائم قتل خطيرة بدت من بعضهم مثل حادثة الباديري[٥]، وإذا وقع تمرد في بلد ما فإن السلطة المصرية كانت ترتكب كل جريمة وحشية لمعاقبة البلدة، لكنها تستثني منهم اليهود والنصارى، فإن كان الثائرون نصارى تعاملت كأرق ما يكون التعامل[٦]!! في مفارقة لا تفسير لها إلا شدة الكفر والعداوة والبغضاء التي يكنها محمد علي ورجاله للإسلام وأهله!!

---

(١) كارين أرمسترونج، القدس، ص٥٦٥، ٥٦٦؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٤٣؛ عبد العزيز عوض، «هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٤م، ٣/١٥٥.

(٢) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٢/٣٤٩.

(٣) مصطفى عبد الغني، الأوقاف على القدس، ص٦٩.

(٤) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٤/ ٢٩٤ وما بعدها؛ مصطفى عبد الغني، الأوقاف على القدس، ص١٢٥.

(٥) مجهول، مذكرات تاريخية، ص٨٠، ٨١، ١١٧، ١٢١، ١٢٢؛ إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، (القاهرة: مطبعة النظام، ١٩٣٤م)، ص١٥٤.

(٦) مجهول، مذكرات تاريخية، ص٧٨؛ أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ٤/٣٥٦.

وعلى العكس من ذلك انتزعت بعض المساجد وجُعِلَت اسطبلات للخيول، ونزل بالمسلمين اضطهاد فظيع ليس هذا موضع بيانه، جعل بعض الناس يرى أنها نهاية دولة الإسلام في الأرض(١)، وتعرضت الأوقاف الإسلامية لأسوأ عمليات التخريب والاستيلاء في مقابل الأوقاف النصرانية واليهودية التي عوملت بالرعاية والعناية(٢). ولقد لجأ كثير من كبار المسلمين وأعيانهم إلى الدخول تحت حماية القناصل الأجانب للنجاة من الإذلال والتجنيد الإجباري والضرائب الباهظة، بل تحت حماية النصارى واليهود الذين يعملون في القنصليات والمصالح الأجنبية لأنهم مشمولين بالحماية الأجنبية، فصار السيد الشريف النبيل بالأمس يعمل اليوم تحت يد خادمه السابق النصراني واليهودي للنجاة من بطش سلطة محمد علي(٣). هذا بخلاف من هربوا وتركوا البلاد للنجاة بأنفسهم.

أنتج هذا كله انقلابا سكانيا في بيت المقدس، إذ صار اليهود أغلبية، وبعدهم النصارى، ثم صار المسلمون أقلية بسيطة(٤)، وأنتج كذلك انقلابا في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فانحط شأن المسلمين إلى الدرك الأسفل، وعلا عليهم اليهود والنصارى من أهل البلاد، وفوق الجميع علا الأجانب!

فتح هذا الانقلاب الخطير في السياسة والاقتصاد والاجتماع شهية الثري اليهودي موسى مونتفيوري لتنظيم مشروع إعادة توطين اليهود في

---

(١) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص١٦٥؛ مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق وتقديم: أحمد غسان سبانو، (نسخة إلكترونية)، ص٥٩، ٦٠، ٦٦؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص ١٣٩.

(٢) للتوسع، ينظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ط١ (اسطنبول: دار الأصول العلمية، ٢٠٢٢م)، ١٧١/٣ وما بعدها، بحث بعنوان: سياسة محمد علي باشا تجاه أوقاف بيت المقدس.

(٣) قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص١٦٢.

(٤) كارين أرمسترونج، القدس، ص٥٦٧.

فلسطين، وهي أقوى محاولة قبل هرتزل، وذلك بمحاولة شراء أراضٍ واسعة تتمتع بصلاحيات خاصة في الزراعة والتجارة، ولقي الثري اليهودي من محمد علي ترحيبا عظيما، بل عرض عليه محمد علي أن تكون القرى المشتراة ذات حكم ذاتي[(١)]!!! وبالفعل ساهم مونتفيوري في تأسيس مستوطنات زراعية ومشاريع صناعية وأسس أول حي يهودي خارج أسوار القدس، وصنع لليهود في الشام وفلسطين وضعا ذا امتيازات خاصة ساهم ـ بمعاونة القنصل الإنجليزي وضغوطه ـ في «تحويلهم إلى عنصر أجنبي منبتّ الصلة بالمنطقة وذي قابلية خاصة للتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية»[(٢)].

وبالخلاصة، فقد كانت النتيجة النهائية لهذه السياسات في تلك السنوات، أن وُلِدت فكرة إخراج اليهود من أوروبا وإنشاء دولة لهم في فلسطين، فانتقلت الأحلام اليهودية من أشعار الدراويش ودعوات الحاخامات ومعابد المتدينين، إلى اجتماعات السياسة وأوراق الصحف ومقالات المفكرين والمثقفين، وبالتالي: أفكار الملوك والوزراء والساسة. ومن هذا:

١. نشر المفكر الاشتراكي شارل فورييه كتابه «الصناعة الزائفة» عام (١٨٣٥ ـ ١٨٣٦)، وهو مبغض لليهود ويراهم مصدر شرور العالم، واقترح في كتابه هذا التخلص من المشكلة اليهودية بطردهم من أوروبا وتوطينهم في الشام[(٣)].

---

(١) للتوسع، ينظر: إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص ١٤٤ وما بعدها، ١٥٠، ١٥١، ١٧١؛ ملف وثائق فلسطين، (القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، ١٩٦٩م)، ١/٤٥؛ Ben Halpern and Jehuda Reinharz, Zionism and the Creation of a New Society, (Oxford: Oxford University Press, 1998), p. 43; Jonathan Frankel, The Damascus Affair, p.376.

(٢) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ٦/١٧٧.

(٣) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٣/١٦٧.

٢. نشر شافتسبري (١٨٣٩م) في مجلة كوارترلي ريفيو الذائعة الصيت آنذاك عرضا لكتابِ رحالةٍ زار فلسطين وكتب عنها، ليخلص من ذلك إلى أنها أرض مناسبة يذهب إليها اليهود كأيدٍ عاملة تحت إشراف القنصل الإنجليزي في القدس، وبعد ذلك بعامين، قدَّم هذه الفكرة في وثيقة إلى بالمرستون (٢٥ سبتمبر ١٨٤٠م) يسهب فيها في فائدة هذا المشروع لبريطانيا[١].

٣. كتبت التايمز أن المسألة أصبحت قضية حقيقية مطروحة على المستوى السياسي، ونشرت جريدة جلوب اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام ١٨٣٩/ ١٨٤٠ تؤيد فيها توطين أعداد كبيرة من اليهود في الشام، وحازت المقالات موافقة اللورد بالمرستون. وفي ذلك العام، كتب بالمرستون خطابه إلى سفير إنجلترا في الأستانة يقترح إنشاء دولة يهودية حمايةً للدولة العثمانية ضد محمد علي[٢].

٤. قدَّم الكولونيل تشرشل عام ١٨٤١م مذكرة لموسى مونتفيوري يقترح تأسيس حركة سياسية لدعم استرجاع اليهود لفلسطين[٣].

والخلاصة أنه ما كان ممكنا أن يجري التفكير في إنشاء دولة يهودية في ذلك الوقت لولا ما أتاحته سياسة محمد علي في الشام، ولهذا فإنه يعد بلا ريب المُمَهِّد الأول، إن لم نقل المؤسس الأول لإسرائيل. ولولا أن ظروف السياسة الدولية كانت أقوى منه لحسابات خارجة عن إرادته

(١) ملف وثائق فلسطين، ١/٤٧؛ ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٦٢؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/١٦١.

(٢) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٨٣، ٨٤، ٩١؛ رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ط٣ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩١م)، ص٨٣؛ ديفيد فرومكين، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط، ترجمة: كمال إلياس، ط١ (لندن: رياض الريس للكتب، ديسمبر ١٩٩٢م)، ص٣٠١؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/١٥٣ وما بعدها.

(٣) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/١٥٤.

لكانت إسرائيل قد نشأت قبل موعدها بخمسين سنة على الأقل[١]!!

المقاومة العثمانية للدولة اليهودية

لئن كانت جهود محمد علي قد أخفقت في احتفاظه بالشام، فلقد تركت آثارا قوية بنى عليها اللاحقون، إذ لم تستطع الدولة العثمانية بعد استعادتها السيطرة على الشام أن ترجع بالأمور إلى ما كانت عليه، فثمة وضع جديد قد ألقى جذورا وبذورا، كالأعداد اليهودية والمشاريع الاقتصادية والسفارة الإنجليزية، كذلك فإن عودة الدولة العثمانية لحكم الشام لم يكن بمحض قوتها المنفردة بل بمساعدة الإنجليز، مما جعل الحضور الأجنبي ـ وخصوصا الإنجليزي ـ قائما.

ثم إن كانت جهود محمد علي قد ماتت، فإن المحاولات اليهودية لم تمت، فثمة عدد من المحاولات اليهودية في الفترة ما بين رحيل محمد علي عن الشام وحتى ظهور هرتزل والصهيونية، منها: محاولة الرحالة اليهودي لورنس أوليفانت (١٨٨٠م)، وهي مبسوطة في كتابه «أرض جلعاد»[٢]. ومحاولة صمويل مونتاجو، المصرفي اليهودي البريطاني وعضو البرلمان الإنجليزي ورئيس جمعية أحباء صهيون، لدى السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٩٣م) للسماح لليهود باستعمار شرق الأردن، ومثلها في نفس العام وضع الصهيوني الألماني بوهلندروف خطة لاستجلاب عصابات صهيونية للاستقرار في شرق الأردن والعمل على طرد البدو من هذه الأنحاء[٣]. وفي تلك الفترة تأسست عدد من الجمعيات والهيئات اليهودية

---

(١) لقد حرصت في هذا المبحث تحديدا على توثيق كل معلومة إلى مصادرها، والمصادر ترجع كلها تقريبا إلى وثائق أو شهود عيان، وذلك لخطورة ما فيها وأهميته، ولكونه مجهولا لدى أغلب الباحثين في تاريخ هذه الفترة.

(٢) لورنس أوليفانت، أرض جلعاد: رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين ١٨٨٠م، ترجمة: أحمد عويدي العبادي، ط١ (عمان: دار مجدلاوي، ٢٠٠٤م).

(٣) ثيودور هرتزل، يوميات هرتزل، ترجمة: هلدا شعبان الصايغ، سلسلة كتب فلسطينية رقم ١٠، ط١ (بيروت: مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٨م)، ص٥٤٢ =

في دول أوروبا وروسيا تعمل على تسهيل الهجرة إلى فلسطين ودعم الأقلية اليهودية هناك، إن بالأموال مباشرة أو بإنشاء المشاريع الزراعية والصناعية[١].

إضافة إلى ذلك فإن المحاولات اليهودية تسربلت وتغطت بالنفوذ الأجنبي، ونستطيع أن نرى مساريْن كبيريْن لهذا النفوذ الأجنبي: الساسة وصناع القرار النافذون في العواصم الأوروبية، والقناصل الأجانب الذين يمثلون هذه العواصم في الشام:

١. فأما الساسة النافذون وصناع القرار، فقد عملوا على الدمج بين مصلحة الإمبراطورية الاستعمارية وبين هدف إعادة اليهود إلى فلسطين؛ ومن أبرز هؤلاء أرنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الثالث والذي وضع كتابا بهذا المعنى[٢]، واللورد بالمرستون الذي كان وزيرا لخارجية بريطانيا ثم رئيسا لحكومتها، وكانت له جهود واسعة في انتزاع الموافقة من السلطان العثماني على السماح بإنشاء وطن لليهود في فلسطين[٣]، وغيرهم[٤]، ومنهم من كان تعليمه وتربيته بروتستانتية عميقة مثل لويد جورج[٥] الذي ذكر عن نفسه أنه يعرف البلاد المذكورة في العهد القديم

= (الملحق)؛ أمين عبد الله، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، سلسلة عالم المعرفة ٧٤ (الكويت: المجلس الأعلى للثقافة، فبراير ١٩٨٤م)، ص١٤٥؛ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٣١٣/٦.

(١) عبد العزيز عوض، «نشأة الاستيطان الصهيوني في فلسطين»، المجلة التاريخية المصرية، عدد ٢١، ص٢٥٦ وما بعدها.

(٢) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٧٧؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ١٥٣/٦.

(٣) أسلفنا الإشارة إلى ذلك في حاشية سابقة، وينظر أيضا: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٨٠ وما بعدها.

(٤) ينظر: إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص١٧٩، ١٨٠.

(٥) لويد جورج هو رئيس الحكومة البريطانية التي أصدر وزير الخارجية فيها (بلفور) وعده المشهور. ومع أنه أهم بكثير من بلفور لكن شهرة الوعد رفعت اسم بلفور وطمست ذكر رئيس حكومته.

(قرى فلسطين) أكثر من معرفته بالأماكن في أوروبا، وبأنه يحفظ ملوك وأنبياء بني إسرائيل أكثر مما يحفظ ملوك بريطانيا[(١)]! وبالجملة فقد «أصدرت معظم هذه الدول (الأوروبية) وعودا بلفورية أو ما يشبه الوعود البلفورية»[(٢)]، وقد دخلت أمريكا على هذا الخط أيضا وصارت تضغط على العثمانيين لا سيما بعد المذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا منذ ١٨٨١م[(٣)].

٢. وأما القناصل الأجانب، فقد عملوا ـ كلما أتيحت الفرصة ـ على شراء الأراضي في فلسطين وفقا لقوانين تملك الأجانب القائمة في الدولة العثمانية كما هي قائمة في أية دولة أخرى وحتى الآن، أي أن الأمر كان استغلالا لأوضاع بعضها طبيعي كالقوانين التي تسمح للأجانب بتملك أراضٍ أو عقارات، وبعضها شاذٌّ ناتجٌ عن ميراث حقبة محمد علي وعن ضعف الدولة العثمانية. وقد تمثل هذا الضعف في الأزمة المالية التي عانت منها الدولة العثمانية والتي تسببت في مراكمة ديون هائلة، فكانت الحاجة إلى المال تلجئ أحيانا إلى بيع بعض الأراضي في المزاد العلني. هذا بالإضافة إلى ما أسبغه القناصل الأجانب من الحماية على اليهود ضمن الامتيازات الأجنبية، واستغلال النفوذ القنصلي في تثبيت وجود هؤلاء اليهود وتمكينهم. وفوق ذلك كله فلقد عمل كثير من القناصل على التحايل والالتفاف على القوانين العثمانية وخرقها[(٤)].

---

(١) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٧٢؛ ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٠٩؛ ديفيد فرومكين، سلام ما بعده سلام، ص٣٠٠.

(٢) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/١٥٤.

(٣) عن القصة الصهيونية في أمريكا وتطورها، ينظر: مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ ١٧٧٦ حتى اليوم، ترجمة: آسر حطيبة، (لندن: مؤسسة هنداوي، ٢٠٠٩م)، ص٣٠٥ وما بعدها.

(٤) ينظر مثلا: أمين عبد الله، مشاريع الاستيطان اليهودي، ص٣٣ وما بعدها؛ عيسى القدومي، «الأرشيف العثماني وكنوز تاريخ القدس»، سلسلة بيت المقدس للدراسات، العدد الخامس، شتاء ٢٠٠٨م. وأوسع ما رأيته من الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع وتتبعته في الوثائق: نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية في=

ولا شك أن هذا النفوذ قد وجد له مدخلا من خلال رجال فاسدين في أروقة السلطنة العثمانية، سواءٌ أكان هؤلاء الفاسدون من المتغربين ذوي الهوى الأجنبي أو كانوا من عبيد المال والشهوات[(١)].

ولهذا فإن الحديث عن مقاومة الدولة العثمانية للدولة اليهودية لا يتعلق فحسب بموقف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني من هرتزل، كما سنأتي له فيما بعد إن شاء الله، ولكنه يمتد إلى ما قبل ظهور هرتزل والصهيونية، بل قد ذكرنا فيما سبق بعض الفرمانات التي أصدرها السلاطين في زمن قوة الدولة العثمانية والتي تكافح الاستيطان اليهودي في سيناء قبل ثلاثة قرون من تلك اللحظة.

ومن أبرز هذه التصديات العثمانية لدى سلاطينهم المتأخرين الآتي:

١. إخفاق مشروع مونتفيوري للاستيطان الواسع الذي كان قد وافق عليه محمد علي بعد عودة الدولة العثمانية لحكم الشام، «فقد أصابت هذه الضربة كبد المشروعات التي كان يكد مونتفيوري في إنجازها فصارعتها وقطعت أوصالها تقطيعا»[(٢)].

٢. ورد في وثيقة عثمانية بتاريخ (٦ ربيع الثاني ١٢٦٢هـ = ٣ إبريل ١٨٤٦م[(٣)]) أمرٌ من السلطان العثماني عبد المجيد لمتصرف القدس باستعادة أرض اشتراها يهودي بريطاني ببيعها لأي من مواطني الدولة العثمانية، وذلك لما كشفته الوثيقة من أن تملك اليهود الأجانب في أرض فلسطين

= الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين: ١٨٤٠ ـ ١٩١٤م، ط١ (عمان: دار الشروق، ٢٠٠٧م).

(١) ينظر مثلا: لورنس أوليفانت، أرض جلعاد، ص٤٣٠، ٤٦١ وما بعدها، ٤٨٤؛ يوميات هرتزل، ص٣٥٦ وما بعدها.

(٢) إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص١٧١.

(٣) الأصل في المصدر أن التاريخ الميلادي هو ٤ مارس، ولكن بالرجوع إلى التقاويم تبين أن هذا التاريخ الهجري يوافق التاريخ الميلادي الذي أثبتناه في المتن.

ممنوع بقانون سابق[١].

٣. إخفاق المحاولات اللحوحة التي بذلها بالمرستون، وزير الخارجية ثم رئيس الوزراء الإنجليزي، في الحصول على السماح العثماني بمنح قطعة من أرض فلسطين لليهود[٢]، «بسبب العناد الصلب للباب العالي»[٣].

٤. في (١٨ رجب ١٢٨٧هـ = ١٣ أكتوبر ١٨٧٠م) أصدر السلطان عبد العزيز إرادة سنية تقضي بأن أرض فلسطين هي «أراض أميرية»، بمعنى ملكيتها للسلطنة لمنع توطن اليهود، وبقيت ٢٠٪ منها أملاكا خاصة.

٥. وفي (١٨٧٤م) جرى تحويل القدس إلى متصرفية، وربطها إداريا بالعاصمة اسطنبول مباشرة، وتطوير جهازها الإداري لتتحول بذلك إلى صورة من مراكز الولايات الكبرى، وبذلك يجري تعظيم وضعها الإداري ومتابعته من العاصمة لا من الولاة والإداريين.

٦. أرجع لورنس أوليفانت إخفاق مشروعه (١٨٨٠م) إلى أن «الأولوية في عملهم السياسي (عبد الحميد الثاني ورجاله) هي مقاومة الأجنبي في كل شيء»[٤].

٧. إخفاق المحاولات الأمريكية التي بذلها السفراء الأمريكان المتعاقبون لدى السلطان عبد الحميد الثاني في فتح فلسطين لاستقبال اليهود الفارين من المذابح الروسية، ثم الإدانة الأمريكية الرسمية للإجراءات العثمانية، و«كل ذلك لم يجد نفعا»[٥].

---

(١) عيسى القدومي، «الأرشيف العثماني وكنوز تاريخ القدس»، سلسلة بيت المقدس للدراسات، العدد الخامس، شتاء ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر نص الوثيقتين في: ملف وثائق فلسطين، ٤٧/١ وما بعدها.

(٣) Harold Temperley, England and the Near East, (London: Longmans green co, 1936), p. 444.

(٤) لورنس أوليفانت، أرض جلعاد، ص٤٦٤.

(٥) مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال، ص٣١١.

٨. وفي (جمادى الأولى ١٢٩٩هـ = إبريل ١٨٨٢م)، حيث بدأت الهجرة اليهودية من روسيا تحت وقع الاضطهاد الذي نزل بهم، أصدر السلطان عبد الحميد الثاني منشورا يحيط فيه اليهود الذين يريدون الهجرة إلى الدولة العثمانية بأنه لن يسمح لهم بالاستقرار في فلسطين، ولهم أن يهاجروا إلى ولايات عثمانية أخرى وأن يستقروا فيها بشرط أن يصبحوا رعايا عثمانيين.

وبعدها بشهرين (رجب ١٢٩٩هـ = يونيو ١٨٨٢م) وصلت برقية من السلطان إلى متصرف القدس بمنع نزول اليهود الروس المهاجرين إلى موانئ فلسطين، وأن تصحبهم السفن التي أقلتهم إلى أي ميناء عثماني آخر، ثم صدرت الأوامر بترحيل كل من استقروا في القدس، ثم أوامر مشابهة لكل ولاية الشام لمنع توطن اليهود أو تسللهم إلى فلسطين.

وبعد عامين (١٨٨٤م) أصدرت الدولة العثمانية قرارا بتحديد مدة زيارة اليهود لفلسطين بشهر واحد؛ وتحت الضغط الأجنبي عادت فزادت المدة (١٨٨٧م) إلى ثلاثة أشهر. واستمرت الضغوط الأجنبية من جهة كما استمرت المراوغات والمقاومة العثمانية من جهة أخرى، وبالعموم فقد شهد عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر نشاطا ويقظة عثمانية في التصدي لمحاولات اليهود ـ لا سيما المهاجرين من روسيا وأنحائها ـ الاستقرار في فلسطين.

٩. كذلك شهد مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر عددًا من القرارات المتتابعة، وظهر في الوثائق العثمانية هذا الشعور بطبيعة المخطط الصهيوني لتوطين اليهود في فلسطين، ففي (٢٥ ربيع الثاني ١٣٠٨هـ = ٧ ديسمبر ١٨٩٠م) أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قرارا آخر يغلق ثغرات قانونية استطاع بعض اليهود النفاذ منها لشراء الأراضي الخاصة، وبذل جهدا لشراء ما استطاع من الأراضي في فلسطين من خزانته الخاصة لسد الأبواب أمام المشترين اليهود.

وفي (٢١ ذو القعدة ١٣٠٨هـ = ٢٨ يونيو ١٨٩١م) أمر السلطان وزارته برفض قبول المهاجرين اليهود المطرودين من أوروبا في الديار

العثمانية، إذ سيؤدي هذا في المستقبل إلى تشكيل «حكومة موسوية»، وفي الأمر «دسائس كثيرة».

وفي (٢٨ ذو القعدة ١٣٠٨هـ = ٥ يوليو ١٨٩١م) أكَّد عبد الحميد الثاني على هذا القرار ضمن كتابته إلى اللجنة العسكرية مفصحا عن أن «قبول هؤلاء الموسويين وإسكانهم أو إعطائهم حق المواطنة شيء ضار جدا، فقد يتولد عن هذا في المستقبل مسألة حكومة موسوية».

وفي (٢٩ ذو القعدة ١٣٠٨هـ = ٦ يوليو ١٨٩١م) أكَّد عبد الحميد لمرة ثانية على قراراته، ورفض موقف الدول التي أدانت رفضهم قبول المهاجرين اليهود، ويصرح فيه بأن «هؤلاء الموسويين لو أسكنوا في أي مكان من أجزاء الإمبراطورية (العثمانية) فإنهم سيتسللون إلى فلسطين شيئا فشيئا مهما اتُّخِذت من تدابير، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية».

وفي (١٨٩٦م) منع الشركات اليهودية من تملك الأراضي، وسمح بتملك العقارات الثابتة فقط لليهود المستوطنين قبل (١٨٩٣م)[١].

ويجب ملاحظة أن كل هذه الإجراءات كانت قبل ظهور هرتزل وقبل تأسيس الحركة الصهيونية.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع، ينظر: أحمد آق كوندز، الدولة العثمانية المجهولة، ط١ (اسطنبول: وقف البحوث العثمانية، ٢٠٠٨م)، ص٤٤٨ وما بعدها؛ عبد العزيز عوض، «هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٤٧م، ٣/١٦٠ وما بعدها؛ أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، ط٤ (القاهرة: دار النيل، ٢٠٠٨م)، ص٢١٤ وما بعدها؛ نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية، ص١٩٢ وما بعدها؛ مروان أبو شمالة، الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس، رسالة ماجستير (غزة: الجامعة الإسلامية ـ كلية الآداب، ٢٠١٢م)، ص١٠٨ وما بعدها؛ محمد شعبان صوان، السلطان والتاريخ: لماذا نقرأ التاريخ العثماني، ط١ (الجزائر ـ بيروت: ابن النديم ـ روافد، ٢٠١٦م)، ص٢٨٩ وما بعدها. (مع وجود خلافات بسيطة بين المصادر في ضبط التواريخ)، ومن الكتب التي أفردت بالتأليف لهذا الموضوع: د. حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.

وهذا كله لا يعني أن الثمرة المرجوة قد تحققت، بل قد وقعت اختراقات ناتجة عن ضعف الدولة العثمانية وعن قوة النفوذ الأجنبي وعن الفساد الإداري وغير ذلك(١)، ولكن القصد هنا أن النهج المستقر لدى الدولة العثمانية كان حماية فلسطين ومقاومة الدولة اليهودية. وهذا أمرٌ ما كان ينبغي التطويل فيه ولا إثباته، فإن من طبيعة الدول وغرائزها أن تحافظ على أرضها وأن تتحسس لإنشاء كيانات مستقلة داخلها، ولكن اضطررنا إلى الكلام في هذا لسببين:

الأول: كثرة ما ينتشر في واقعنا المعاصر من اتهام الدولة العثمانية بخيانة العرب والتفريط في فلسطين، حتى صار ذلك كالحقيقة لدى أجيال متتابعة، وهو ما يزداد تنشيطه وترويجه في واقعنا المعاصر لمزيد من تشويه تركيا وسياستها في عهد أردوغان.

الثاني: ما رسَّخته السياسات الخائنة للأنظمة العربية المعاصرة من مفهوم القومية والوطنية الذي هوَّن لدى كثير من الناس مسألة التفريط في فلسطين وفي بيت المقدس، فصار الأمر كأنه مقبول من جهة السياسة، فصار كثير من الناس يشعر بأن حكام الدول العربية والمسلمة ليسوا مسؤولين عن تحرير فلسطين ولا عن قتال الصهاينة ولا عن تقديس المسجد الأقصى والنفرة لأجله، بل يرون ذلك نوعا من التفضل أو حتى من المستحبات، وهذا ناتج عن مفهوم الوطنية البغيضة المنافية للإسلام والتي تجعل الحكام مسؤولين عن حدود بلادهم التي حددها لهم الاحتلال أساسا!! ومن ثمرات هذا الشعور أن خفتت في ضمائر كثير من الناس قداسة بيت المقدس والأقصى، وصاروا يتقبلون أن يكون العثمانيون قد فرطوا فيها تبعا لمصالح سياسية ومالية، وهو ما يتوجب التأكيد على خطئه! فلقد كانت السلطنة العثمانية تقدس هذه الديار الشامية، وتسمي الشام «شام شريف»، وفي قلبه بيت المقدس.

---

(١) للتوسع في هذا، ينظر: أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد، ص٢١٥، ٢١٦؛ نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية، ص١٩٥ وما بعدها.

تأسيس الحركة الصهيونية

أوضاع اليهود في أوروبا

يؤمن النصارى بأن اليهود هم الذين قتلوا المسيح عيسى بن مريم، أو بالأحرى: تسببوا في مقتله، حين وَشَوْا به إلى السلطة الرومانية، وهو ما أودى بالمسيح إلى الصليب، وهناك لقي من العذاب والآلام ما تفيض كتبهم في تفصيله. ومن ها هنا فقد كان اضطهاد النصارى لليهود نمطا متكررا في التاريخ، لا سيما في منطقة الشام، بعدما اعتنق قياصرةُ الرومان المسيحيةَ. وتسبب هذا في أن اليهود كثيرا ما كانوا أعوان الفرس إذا هاجموا الشام، فعملوا مع الجيوش المهاجمة على تحطيم الكنائس وقتل النصارى واستخراج الكنوز، وهو الأمر الذي كان يزيد من رصيد العداوة لهم، ويتفجر انتقاما كاسحا منهم إذا استعاد الروم الشام مرة أخرى. وكان الأباطرة الروم أو قادتهم العسكريون في الشام هم أصحاب أقوى الضربات الكاسحة التي نزلت باليهود فشتتتهم ومزقتهم كل ممزق(١).

وفي زمن العصور الوسطى الأوروبية كان اضطهاد النصارى لليهود من معالم هذه العصور، وقد تكرر طردهم من البلاد في مراحل تاريخية

(١) ينظر مثلا: شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، (القاهرة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م)، ص٦٥ وما بعدها.

مختلفة، واندمج في دوافع هذا الطرد: الأسباب الدينية المتعلقة بعداوة اليهود للمسيح، والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وذلك أن لليهود طبيعة انزوائية انعزالية[١]، فكانوا يجتمعون في مناطق بعينها تمثل أحياء يهودية ومجتمعات خاصة، وقد احتكروا في العديد من الأحيان أعمالا بعينها مثل التجارة لا سيما الذهب، مع ما عرف عنهم من التعامل بالربا، وهذا الأمر كان يزيد في انعزالهم من جهة، وفي زيادة أسباب العداء لهم من جهة أخرى، ويضاف إلى ذلك ما يكون في كل مجتمع من النفرة تجاه الغريب أو محاولة الحاكم الاعتماد على الأقليات ليضرب بهم أو يستعملهم في مكائده، وهو ما قد ينقلب عليه وعليهم في لحظات تمرد شعبي أو احتجاجات ساخطة[٢].

وإذا كان النصارى أنفسهم قد أهلكوا أنفسهم في حروب دينية صبغت حقبة العصور الوسطى بين المذاهب النصرانية: الكاثوليك والأرثوذكس، ثم البروتستانت، فكيف إذا كان الأمر متعلقا باليهود، وهم أقلية دينية من جهة، ونتوء اجتماعي انعزالي من جهة، وفئة طفيلية اقتصادية من جهة ثالثة؟!

على أن أحوال اليهود في أوروبا بدأت في التحسن عندما أخذت أوروبا تتنصل شيئا فشيئا من المسيحية وسيطرة الكنيسة، وتدخل في العلمانية وفكرة القومية ونظام الدولة الحديثة والقوانين والتشريعات الوضعية. لقد عمل هذا التغير على النظر إلى اليهود باعتبارهم مواطنين لا يهودا، مما فتح أمامهم المجال للعمل مسؤولين في دوائر الدولة، وبعضهم صعد ليكون عضوا في البرلمان أو وزيرا في الحكومة، فضلا عما أتيح لهم من الصعود المالي الذي صار محميا ومصانا بالقوانين العلمانية الصادرة عن برلمانات منتخبة وتمثل مصالح شبكات القوى والنفوذ داخل

(١) شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، ص١٨.

(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٣٣٥/٢ وما بعدها.

الدولة[١]. فصاروا أصحاب مصارف وبنوك ورؤوس أموال، كانت قادرة في العديد من الأحيان على تمويل حروب الملوك والأمراء، وسد العجز في ميزانيات الدول والحكومات[٢]. وترافق هذا مع الصعود والانتشار للبروتستانتية، وما حملته في جوفها من تيار صهيوني مسيحي، أسلفنا الحديث عنه، جعل اليهود موضع عطف ورعاية، بل موضع احترام وتبجيل، مما أنعش أوضاع اليهود، بل كانت أحوالهم تقفز قفزات واسعة.

غير أن هذا الكلام يصدق على أوروبا الغربية، ولكنه لا يشمل أوروبا الشرقية والمناطق الروسية، ففي هذه الأنحاء بقي اليهود طائفة منبوذة تعاني الاضطهاد والخوف، ويتعرضون للانتقام المستمر باعتبارهم أصل الشرور، وقد انفجرت أحوال هؤلاء ونشبت فيهم المذابح في روسيا وأوروبا الشرقية بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني (١٨٨١هـ) حيث اتُّهموا به، وعاشوا فترة يهيمن عليها الخوف والفزع، ومن ها هنا بدأت موجة من النزوح اليهودي من روسيا ومن أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية!

وهذه الموجة من النزوح هي التي شكلت أهم أضلاع نجاح المشروع الصهيوني، فلقد كان اليهود في أوروبا الغربية لا يتحمسون للهجرة من أوروبا بعدما انتعشت أحوالهم، بل كانوا يتعاملون مع هذه المخططات باعتبارها مؤامرة عليهم تهدف لإخراجهم من أوروبا تحت شعار إعادتهم إلى أرض الأجداد. وأما يهود روسيا وأوروبا الشرقية فقد كانوا يفرون من الجحيم، ويبحثون عن أي ملجأ لهم، وعندئذ وفَّرُوا هم المادة البشرية

---

(١) من الروايات الشهيرة التي تعبر عن حيرة المسيحيين في التعامل مع الوضع الجديد لليهود، رواية «تاجر البندقية» للروائي الشهير: شكسبير، حيث تصف الرواية كيف أن مدينة البندقية الإيطالية قد ساد فيها القانون، وكيف أن التاجر اليهودي المرابي قد استطاع استغلال القانون حتى أراد أن يسفك دم المسيحي الذي استدان منه. وقد وقع القضاء في حيرة بين تنفيذ القانون وهو في صالح اليهودي، وبين التقاليد الدينية العميقة التي تمنع إراقة دم المسيحي المقدس لا سيما إن كان بيد يهودي نجس، وتلك هي عقدة الرواية.

(٢) شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، ص٧٣، ١٩٣.

التي تلاقت مع المصالح الغربية الأوروبية في إنشاء وطن لليهود في فلسطين.

لقد جدد هؤلاء الهاربون من أوروبا الشرقية فكرة «المشكلة اليهودية» لدى الساسة الغربيين، وعملت الجهود المختلفة من الصهيونية اليهودية وغير اليهودية ـ مما سلفت الإشارة إليه ـ على جعل الحل الأقرب والأمثل هو: نقلهم إلى فلسطين؛ سواءٌ في ذلك من يرى هذا دينا وعقيدة، أو من يراه سياسة ومصلحة استعمارية[(١)].

وبهذا فإن إنشاء وطن لليهود في فلسطين إنما كان الثمن الذي دفعته أمة المسلمين من دمائها وأوراحها تعويضا أوروبيا لليهود عن الاضطهاد الذي أنزلوه بهم في معظم أحقاب التاريخ الأوروبي! ثم حلا لمشكلات أوروبا ومصالحها الاستعمارية التوسعية التي استثمرت في اليهود لتجعلهم وطنا مغروسا كالشوكة في جسد الشرق الإسلامي، ومعتمدا عليها كليا، وقاعدة عسكرية متقدمة لجيوشها! وهكذا يظل الضعيف هو الذي يدفع ثمن صراع الأقوياء.

هرتزل وتأسيس الحركة الصهيونية

تجمعت هذه الأوضاع كلها لتثير شابا صحافيا يهوديا من النمسا، اسمه تيودور هرتزل، كان داهية ذكيا واسع النشاط، واستطاع بكثير من البراعة أن يوظف الأحوال المحيطة كافة لصالح مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

(١) ينبغي لفت النظر هنا إلى أن بعض أهم الشخصيات التي أدت خدمات قوية للحركة الصهيونية كانت تحتقر اليهود، مثل تشامبرلين ولويد جورج وبلفور وسايكس. وقد التقى هؤلاء والحركة الصهيونية في غرض تهجير اليهود إلى فلسطين وإن اختلفت النوايا والدوافع. ينظر مثلا: جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٧٢؛ ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٠٦، ١٠٨، ١١٦، ١٢٠، ١٦٣، ١٦٧؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٦٢.

استند هرتزل في مشروعه هذا إلى ثلاثة أعمدة رئيسية:

الأول: تلك الإمكانية الواقعية التي أثارتها سياسة محمد علي، قبل ستين سنة من ذلك الوقت. فما زال اليهود أغلبية، ولهم أنشطة تجارية وحضور قوي، ولا زالت السلطة العثمانية ضعيفة[١]!

الثاني: شيوع الفكرة القومية التي جعلت لكل قوم دولة ذات حدود سياسية معروفة وذات سيادة مستقلة، فأطلق فكرته التي تقول بأن اليهود هم قوم بلا دولة، وهم شعب بلا أرض. ومن ثَمَّ فمن الواجب الأخلاقي ومن الطبيعة البديهية أن تكون لليهود دولة وشعب. وقد مثلت هذه الفكرة خلاصة كتابه «الدولة اليهودية» الذي صدر في ١٨٩٦م، ومثَّل هذا الكتاب بداية مشروعه في تأسيس الحركة الصهيونية لتعمل على تنفيذ هذه الفكرة، وقد عقدت هذه الحركة مؤتمرها الأول بمدينة بال (أو بازل) في سويسرا عام ١٨٩٧م، لتطلق مشروع العمل على تأسيس الدولة اليهودية.

والثالث: أنه وُجِد في عصر الاستعمار والتفوق الأوروبي، حيث كانت أوروبا في ذلك الوقت تهيمن فعليا على العالم كله، إما باحتلال مباشر أو بنفوذ كبير في المناطق غير المحتلة. ومن ثم فإن إنشاء دولة لليهود في مكان ما، كان أمرا ممكنا إذا استطاع هو أن يُقنع به الساسة الغربيين. وأن يجعل مشروع الدولة اليهودية جزءا من المصلحة الاستعمارية الغربية التي تعالج أكثر من مشكلة في وقت واحد، لا سيما: مشكلة التدفق اليهودي من شرق أوروبا والذي ستتضرر به الدول الغربية.

وبينما هرتزل يعمل، إذ اكتشف أن اليهود لن ينفعلوا ولن يتجاوبوا مع مشروع إنشاء دولة لهم، إلا إن كانت أرض هذه الدولة في فلسطين، وفي بيت المقدس! ومن بعد ما كان هرتزل يفكر في إنشاء دولة في أمريكا الجنوبية أو إفريقيا أو مكان آخر، رأى أنه ليس ممكنا أن ينجح المشروع إلا باستغلال طاقة اليهود وأحلامهم وأشواقهم الروحية، فعدَّل مشروعه

(١) يوميات هرتزل، ص٧٤.

ليكون: دولة لليهود في فلسطين[1].

بدأ هرتزل سعيه المحموم لإقناع الساسة الغربيين بمشروع إنشاء دولة لليهود في فلسطين، فكانت له جولات متعددة بين النمسا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية، واستعمل في كلٍّ منها أقصى ما استطاع من ذكائه ومهارته في الإقناع، وحاول الدخول على خطوط كل دولة ومصالحها ونزاعاتها ليجد لنفسه موطئَ قدمٍ يجعل مشروع الدولة اليهودية ممثلا لمصالح الدولة التي يعرضها عليها.

فبالنسبة إلى الألمان فإن دولة يهودية في فلسطين تنقذهم من تدفق اليهود الألمان النازحين من الاضطهاد الروسي على ألمانيا، وتجذب إليها فائض العمالة والفلاحين اليهود، وتكون دولة شرقية تعتمد على عمالة يهودية رخيصة ومواد خام متوفرة لجذب الفرص الاستثمارية ورؤوس الأموال الأوروبية بدلا من أن تجذبها الصين، وهذا كله يوفر على ألمانيا أن تستقبل العمال اليهود المضطهدين والذين قد يثيرون المتاعب بانضمامهم إلى الأحزاب الثورية، ثم إن الدولة اليهودية ستكون دولة حاجزا أمام المطامع الفرنسية والروسية (أعداء ألمانيا) إذا تمزقت تركيا، إذ اليهود المضطهدون سيكافحون وجود أي نفوذ روسي، وهذه الدولة ستكون موطئ قدمٍ للسياسات الغربية وسندا جديدا للرعاية الغربية لمسيحيي المشرق، وتكون كذلك مانعا من انفراد دولة واحدة (بريطانيا = عدوة ألمانيا) بالسيطرة على الطرق بين الشرق والغرب، إذ كانت بريطانيا تسيطر على هذا الطريق باحتلالها الهند والخليج العربي ومصر (البحرية وقناة السويس) وقبرص[2].

وأما الإنجليز فقد عرض عليهم مشروع الدولة اليهودية باعتبارهم ستوفر لهم طريقا آخر بين الشرق والغرب، وهو الطريق البري الأقصر، وبه تضمن بريطانيا انفرادها التام بالسيطرة على شبكة الطرق ومصالحها

---

(١) يوميات هرتزل، ص٧٠ وما بعدها.

(٢) يوميات هرتزل، ص٢٣، ٢٤، ٤٩، ٦٥.

الاستعمارية، وهذه الدولة اليهودية ستعمل على إنشاء طرق حديدية بين الخليج والبحر المتوسط، ومنها فرع يمتد حتى أفغانستان، ستستفيد منه بريطانيا أكثر من غيرها، ولن تدفع فيه شيئا إذ سيتكفل اليهود بالعمل وبالنفقات، ويتوفر لها بذلك طريق بديل إن حدثت أي مشكلات في قناة السويس. كما أن وجود دولة يهودية في هذه المنطقة سيمزق تركيا ويمنع روسيا من التمدد في المشرق، وإذا نجحت خطة اليهود في استمالة السلطان العثماني بالأموال فإنه سيستغني بذلك عن الاقتراض من فرنسا وروسيا (أعداء بريطانيا) وهذا ما سيحول دون تضخم نفوذهما في الدولة العثمانية. ولدى المتدينين من الإنجليز سبب ديني آخر لدعم الدولة اليهودية، إذ عودة المسيح ستكون بعد رجوع اليهود إلى هذه البلاد[١].

وأما الروس فقد عرض عليهم مشروع الدولة اليهودية باعتبارها فرصة رائعة يتخلصون بها من المشكلة اليهودية بطرد اليهود إليها، وهو الطرد الذي سيتم بسهولة وسلاسة لأن اليهود أنفسهم سيرحبون به، وحيث أن كثيرا من اليهود هم من الروس ويحملون ثقافتهم فإن الدولة اليهودية ستكون موضع نفوذ للروس، وهي تقطع الطريق على تمدد النفوذ الغربي في المشرق، كما أن اليهود سيدفعون الأموال للسلطان العثماني لشراء البلد منه، وهذه الأموال سيضطر السلطان لإنفاقها على إحداث «الإصلاحات» والمزايا التي تضغط بها الدول المسيحية عليه لتحسين أوضاع المسيحيين، فكأن اليهود هم من أنفقوا على تحسين أحوال المسيحيين الذين يتبع قسم كبير منهم النفوذ الروسي[٢]، وحرص على طمأنتهم فيما يخص القدس، «ستبقى القدس بعيدة عن الصفقات التجارية»[٣].

وحتى البابا الكاثوليكي، عرض هرتزل المشروع على ممثله، متخليا

---

(١) يوميات هرتزل، ص٥٠، ٧١.

(٢) يوميات هرتزل، ص٢٩، ٦٦.

(٣) يوميات هرتزل، ص١٨٣.

عن الأماكن المقدسة، التي لن تكون ضمن حدود الدولة اليهودية المنشودة، مثل القدس وبيت لحم والناصرة(١). بل لقد التقى هرتزل بالزعيم المصري الشاب مصطفى كامل، وقد كان كامل في الثالثة والعشرين من عمره وقتها، فأعجب بحماسته لطرد الإنجليز من مصر، ففكر في أنه ربما يكون طرد الإنجليز من مصر من مصلحة الحركة الصهيونية، لأنها عندئذ ستضطر للتخلي عن قناة السويس، مما يزيدها تشبثا بمشروع الدولة اليهودية الذي يوفر لها البديل البري(٢). وبعد ذلك كله فلا يمكن نسيان استغلاله العقيدة البروتستانتية التي تؤمن بعودة المسيح بعد عودة اليهود إلى فلسطين، فلقد عمل على مخاطبة هذه العقيدة لدى المتدينين من المسؤولين(٣).

في أوروبا، واجه هرتزل مشكلة أخرى، وهي تشكك اليهود في جدية هذا المشروع وفي إمكانية نجاحه، لقد كان تراث ثلاثة آلاف عام من الفشل والاضطهاد ثقيلا، بل فسَّر كثير من اليهود ـ لا سيما الحاخامات والطوائف الدينية ـ هذا المشروع باعتباره مؤامرة عليهم، وأنه جزء من عملية اضطهاد تهدف لإخراجهم من أوروبا، وهو الهدف الذي طالما عملت عليه حركات «معاداة السامية»، وزاد في شكوك هؤلاء أن الحركة الصهيونية علمانية لا متدينة، فكأنه مشروع لتشريدهم من مأمنهم إلى حيث لا أمان ولا ضمانة للنجاح في مكان أفضل(٤). ولكن هرتزل والحركة الصهيونية من بعده، تعاملت مع هؤلاء بما استطاعت من وسائل الإقناع والإغراء، فإن لم يكن فبوسائل الإجبار أو القتل. إذ لم يكن هرتزل معبرا عن أحلام اليهود وممثلا لها، بل كان هو والحركة الصهيونية يحشدان

(١) يوميات هرتزل، ص٢٧.

(٢) يوميات هرتزل، ص٦٢، ٦٣.

(٣) يوميات هرتزل، ص٧١.

(٤) ينظر مثلا: يوميات هرتزل، ص٢٣؛ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٦٥، ٣٧٢، ٣٧٣؛ ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩١، ١٢٩؛ جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٢٧ وما بعدها؛ مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال، ص٣٠٧ وما بعدها.

اليهود ضمن مشروع الدولة الصهيونية حشدا، اختيارا ـ إن أمكن ـ أو قسرا. ولقد صرح هرتزل بأن «اللاساميين[١] سيكونون أكثر الأصدقاء الموثوقين، وستكون الدول اللاسامية حليفة لنا»[٢]، وتعاونت الصهيونية مع النازية على هدف تهجير اليهود من ألمانيا[٣].

لقد كانت فلسفة هرتزل في إنشاء الدولة اليهودية تعتمد تماما على قوة الاستعمار وأدواته، ولعله استفاد في هذا من التجارب السابقة التي فشلت في أن تجعل الوجود اليهودي أمرًا واقعا رغم كثرة ما أنفق عليها من أموال ومن مجهودات. ولقد كانت هذه الفلسفة ناجعة وناجحة تماما، إذ ما كان ممكنا أن تقوم دولة لليهود في فلسطين إلا على يد الاستعمار وبوسائله الجبرية وجيوشه وأساطيله، مهما كانت مهارات هرتزل وإمكانيات اليهود، وهذا سر نجاحه فيما أخفق فيه أسلافه لثلاثة آلاف عام. وكانت لهذه الفلسفة وجهها الآخر الذي أفضى إلى القبول والتضحية بكثير من اليهود في مذابح وحشية لإغراء أو إجبار اليهود الآخرين على ترك بلادهم والهجرة إلى فلسطين!

رفض هرتزل من البداية رفضا قاطعا أن يتحرك في مشروع الدولة اليهودية من خلال تسلل اليهود إلى فلسطين، أو بمحاولة اصطناع مشكلة يهودية في فلسطين ليناديي على تدخل القوى الكبرى لحمايتهم، وأبى بكل وسيلة أن يظهر اليهود كالمتمردين على السلطان، فإن كل هذا يعرض المشروع كله لمغامرة الإخفاق والإبادة. وإنما سلك طريقه لكي تكون الدولة اليهودية قرارا من العواصم الكبرى، إما أن يستجيب لها السلطان: رغبا وإغراءًا، أو يُحمل عليها قسرا تحت ضغط القوى الكبرى. فهذا الذي يضمن تنفيذها، وهو الذي سيشجع اليهود على الهجرة إليها، ويشجع أثرياء اليهود على دعمها وتمويلها، ويجعل قيامها بأقل قدر من الخسائر[٤].

---

(١) اللاسامي: أي المعادي للسامية، أو بالأحرى: المعادي لليهود.

(٢) ريحينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٦٤، ١٦٦.

(٣) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٦٨.

(٤) يوميات هرتزل، ص٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٦٦، ٦١، ٦٧، ٨١.

هرتزل والسلطان عبد الحميد الثاني

لا ريب أن سياسة هرتزل كانت ستفضي إلى التعامل مع سلطان الدولة العثمانية، عبد الحميد الثاني في ذلك الوقت، فذلك هو الطريق الأقصر للحصول على أرض لليهود في فلسطين، التي هي من بلاد الدولة العثمانية، وقد اجتهد هرتزل في لقاء عبد الحميد وفي تجهيز عرض قوي يجعل الدولة اليهودية جزءا من مصالح الدولة العثمانية، وفرصة مهمة للسلطان.

وخلاصة عرض هرتزل أن الدولة اليهودية في فلسطين (والتي هي بعيدة عن القدس بطبيعة الحال، إذ لم يجرؤ على الحديث عن إقامتها في القدس[1]) تمثل دعما قويا وسندا للدولة العثمانية، إذ اليهود ما زالوا يحملون الجميل للمسلمين وللدولة العثمانية خصوصا، فهم لم يزالوا في اضطهاد مستمر في أوروبا، ولم يجدوا ملجئا ولا عيشا طبيعيا إلا في ظل المسلمين، ولطالما لجأ اليهود إلى الديار الإسلامية فرارا من محاكم التفتيش والاضطهاد الديني، ومن ثم فإنهم أخلص الأقليات للمسلمين، وهم يبحثون في هذا العالم عن حامٍ لهم، وياليته يكون هو السلطان عبد الحميد، وإذا كانت لهم دولة في منطقة الشام فإنها ستكون حجر عثرة أمام الاستعمار الأوروبي وتمدد نفوذه، وستكون دعما قويا للنفوذ الإسلامي العثماني، كذلك فإن وجود اليهود المجلوبين من أوروبا وروسيا يوفرون شروط تنمية وإعمار هذه الأرض برؤوس أموال وخبرات أوروبية مع عمالة رخيصة، وكل هذا يصب في ميزانية السلطنة نهاية الأمر[2].

وأسند هرتزل عرضه هذا بدعم مالي سخي، وكانت الدولة العثمانية حينها في ورطة مالية عنيفة جعلتها مضطرة لأن ترهن ماليتها تقريبا للجنة استعمارية أوروبية لسداد ديون ثقيلة الوطأة، فعرض هرتزل عشرين مليون ليرة ذهبية في وقتٍ كان الدخل السنوي للدولة العثمانية هو ثمانون ألف

---

(١) يوميات هرتزل، ص٢٩، ٣٣.

(٢) يوميات هرتزل، ص٥٧، ١٧٣ وما بعدها.

ليرة فقط! وذكر هرتزل بأن هذا العرض المالي لا يمكن إيجاد مثله، لأن اليهود فقط يحاولون شراء أرض لا يهتم لها أحد غيرهم، وهذا ما ينقذ العثمانيين من المخلب الأوروبي[١].

وفوق ذلك فإنه سيبذل جهده لتهدئة الأرمن، وزعماءهم في أوروبا، وكان ذلك في خضم تمرد قوي تدخل على خطه أعداء الدولة العثمانية لتنفيذ تقسيمها ومنح الأرمن استقلالهم[٢]، كما سيبذل جهده الإعلامي في الدفاع عن السياسة العثمانية وصورة السلطان في الصحافة الغربية التي لا تكف عن تشويهه والتحريض عليه.

لكن عبد الحميد رفض هذا العرض، وأبلغ هرتزل كلمته الشهيرة: «لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا... ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قُسِّمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تقسم إلا جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان»[٣].

ومع ذلك فقد أراد عبد الحميد استغلال هرتزل وطاقته وعلاقاته، فلم يقطع الخيط معه، وقد وَجَّه إليه عزت باشا (المستشار المقرب من عبد الحميد، وهو عربي دمشقي) ليطمعه بمحاولة ثانية مثل شراء اليهود لقبرص (وكان الإنجليز يحتلونها آنذاك) وإهدائها للسلطان مع مزيد من المال مقابل قطعة أرض في فلسطين، وقد لمعت الفكرة في رأس هرتزل فعلا[٤]، وطلب منه أيضا تهدئة زعماء الأرمن والصحف الأوروبية فيما يخص مسألة الأرمن، وقد بذل هرتزل جهدا قويا في هذا بالفعل طامعا أن يقترب بذلك

---

(١) يوميات هرتزل، ص٢٥، ٣٥، ٥٥، ١٧٤ وما بعدها.
(٢) يوميات هرتزل، ص٢٩ وما بعدها، ٣٨ وما بعدها.
(٣) يوميات هرتزل، ص٣٥، وانظر: ص٧٣.
(٤) يوميات هرتزل، ص٣٥، ٦٦.

من غرضه، وقضى هرتزل أمدا داعما للدولة العثمانية ولعبد الحميد، متخوفا من تفكير الدول الأوروبية في خلعه، إذ خلعُه سيكون نذيرا سيئا على الحركة الصهيونية، وذلك لأن السلطان القادم بدعم الدول الغربية لن يكون محتاجا لأموال اليهود، ومن ثم فلن يفكر في فكرة هذه الدولة(١)، وقد وقف هرتزل مع الدولة العثمانية في حربها ضد اليونان المدعومة من روسيا، ودشن حملة طبية ومالية لمساعدة العثمانيين وأنشأ صحيفة تدعم موقفهم السياسي(٢)، وقد منحه عبد الحميد وساما تقديرا لهذه الجهود وإغراءا له بالمزيد منها(٣)، وهرتزل من ناحيته لم يكف عن عرض فكرة الدولة متخففا ومتنازلا في كل مرة عن بعض الشروط، بل بلغ به التفكير أن يعرض على السلطان أن يتولى هو بنفسه شأن الحركة الصهيونية، ويعلن هو عن أنه يقدم فلسطين كولاية تحت سيادته التامة، وذلك في مقابل مليون جنيه سنويا(٤).

وبمجمل النظر إلى محاولة هرتزل، نرى أن السلطان استطاع استغلال هرتزل ومجهوده، ولم يستطع هرتزل أن يأخذ من عبد الحميد شيئا.

ولقد واصل عبد الحميد جهده في مكافحة استيطان اليهود في فلسطين؛ فشَكَّل لجنة خاصة في القدس للإشراف على تطبيق قيود دخول اليهود إلى البلاد (١٨٩٧م)، وأعقب ذلك بأن أصدر تعليمات (يونيو ١٨٩٨م) بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين إلا بدفع تأمين وتقديم تعهد بالمغادرة خلال شهر، وتشددت سلطات المطار في هذا فلم تُعْفِ منه حتى نائب القنصل الإنجليزي في أنطاكيا لكونه يهوديا. ثم رفعت لجنة القدس مذكرتها (سبتمبر ١٨٩٩م) بعد دراسة الأوضاع وكشف الثغرات التي ينفذ منها اليهود إلى البلاد واقترحت اللجنة عددا من التوصيات. ثم أصدر

---

(١) يوميات هرتزل، ص٤٦.

(٢) يوميات هرتزل، ص٥٣ وما بعدها.

(٣) يوميات هرتزل، ص٤٥، ٤٦.

(٤) يوميات هرتزل، ص٢٨، ٣٣، ٣٤، ٣٨، ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٦٦، ٧٣.

السلطان قانونا لتنظيم زيارة اليهود إلى القدس (١٩٠١م)، يلزمهم بحمل تذكرة مرور (جواز سفر) فيه تفاصيل الرحلة ومدتها، وأن يُسَلَّم جواز السفر هذا مقابل الحصول على إقامة مؤقتة ذات لون مميز لا تزيد عن ثلاثة أشهر في فلسطين، ويعامل المخالفون بحزم وصرامة. وفي (١٩٠٤م) أعيد العمل بقانون يمنع بيع الأراضي لليهود من سائر الجنسيات. وفي (١٩٠٦م) رفض مشروع الجامعة العبرية الذي اقترحه هرتزل. وفي نفس السنة عزل عبد الحميد رشيد باشا متصرف القدس الذي تكررت الشكاوى من سياساته المهادنة لليهود وعيَّن بدلا منه علي أكرم بك الذي بذل مجهودا كبيرا في مواجهة الهجرة اليهودية وفي تنمية القدس ووقف بصلابة أمام ضغوط المنتفعين من تلك الهجرة سواء أكانوا أجانب أم موظفين فاسدين. وفي (سبتمبر ١٩٠٧م) أصدر السلطان أمرا يمنع نقل ملكية الأراضي الميري إلى اليهود العثمانيين مما عرقل عمل البنوك الأجنبية في شراء الأراضي الفلسطينية، ثم في أواخر عهده (١٩٠٨م) عيَّن سكرتيريه متصرفين للقدس ليبقى الأمر تحت نظره من خلال المقربين منه[١].

غير أن محاولات عبد الحميد لم تؤتِ ثمرتها المرجوة، بل تضاعف عدد اليهود في فلسطين لعهده[٢]، وذلك لعدد من الأسباب أهمها: الفساد الإداري المنتشر في أواخر عهد الدولة العثماني، ومنها الضغوط الأجنبية ونفوذ القناصل، ومنها تعاون هذه الدول وقناصلها في منح وثائق لليهود أو إسباغ الحماية الأجنبية عليهم كما أسلفنا ذكره. لقد كانت الدولة العثمانية في زمن ضعفها، وكانت تسري فيها أمراض الشيخوخة، فكانت قدرتها

---

(١) عبد العزيز عوض، «هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٤م، ٣/١٦٤، ١٦٥؛ أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد، ص٢١٥، ٢١٦؛ نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية، ص٢٠٢ وما بعدها؛ محمد شعبان صوان، السلطان والتاريخ، ص٣٠٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: عبد العزيز عوض، «هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٤م، ٣/١٥٨، ١٥٩؛ نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية، ص٢٠٦، ٢٠٧.

على مقاومة الضغوط الأجنبية ضعيفة، كما كانت قدرتها على إصلاح جهازها الإداري وتجديده بالرجال الأكفاء محدودة!

إضافة إلى ذلك فثمة التنامي الطبيعي لأعداد السكان اليهود، والتنقل الطبيعي لليهود في الديار العثمانية، فإنه بالرغم من احتلال مصر وتونس والجزائر وغيرها في زمن عبد الحميد، فإن الدولة العثمانية لم تعترف بهذا الاحتلال ولم تقر به، ومن ثَمَّ فإن انتقال يهود هذه البلاد للحج والزيارة لم يكن ممنوعا ولا محظورا، وقد حصلت بعض حالات التنقل التي بدأت حجا وزيارة ثم انتهت إقامة واستقرارا.

من هنا فإن من نظر في الأرقام وحدها خلص إلى أن عبد الحميد والعثمانيين لم ينجحوا في صد الهجرة اليهودية، بل ربما اتهم السلطان والعثمانيين بأنهم سَهَّلوا هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي المقابل: فمن نظر إلى نسبة اليهود الذين تمكنوا من الاستقرار في فلسطين ضمن نسبة موجات الهجرة اليهودية القادمة من روسيا والمدعومة بمكائد الأجانب (لم تتجاوز ٢,٥٪ في أكبر التقديرات) خلص إلى نجاح عبد الحميد والعثمانيين في صدّ الهجرة اليهودية وحماية فلسطين.

وبالعموم، ومع موازنة كل هذه العوامل المتداخلة، وبمتابعة الأرقام والآراء المتنوعة[١]، فالخلاصة الواضحة أن السلطان عبد الحميد الثاني كان سدًّا كبيرًا يعرقل قيام أي دولة يهودية، ولقد عبَّر هرتزل في مذكراته مرارا عن سخطه على عبد الحميد وأنه قد خدعه واستغله ولم يعطه شيئا[٢]، بل لقد عرض هرتزل أن يعطي ثلاثة ملايين فرنك بدون مقابل ليؤكد حسن نواياه ونوايا الصهيونية تجاه السلطنة العثمانية، فغضب السلطان وأبلغه رفض أمواله وقطع الاتصال معه[٣]، ثم عرض أن ينشئ جامعة

---

(١) ينظر سرد جميل لهذه العوامل معا لدى: محمد شعبان صوان، السلطان والتاريخ، ص٣٢٠ وما بعدها.

(٢) ينظر مثلا: يوميات هرتزل، ص٢١١.

(٣) يوميات هرتزل، ص٢١١ وما بعدها.

يهودية في القدس بلا مقابل وغلَّف عرضه هذا بأن جامعةً متطورةً تحت السيطرة العثمانية يُستجلب لها أفضل الأساتذة اليهود من أرقى جامعات الغرب ستحول دون اضطرار الشباب العثماني السفر إلى الغرب مما يوقعهم في التأثر بالغرب أو بالانجذاب لمعارضة السلطان، وقد رفض السلطان طلب الجامعة أيضا[١].

وفي النهاية كان هرتزل في آخر حياته قد مال لتنفيذ عملية لتفجير قصر يلدز واغتيال ـ أو اعتقال ـ السلطان لينفتح الطريق أمام حكومة تركية توافق على منح فلسطين لليهود، لولا خوفه من عواقب الفشل[٢].

ثم جرى الانقلاب على عبد الحميد (١٩٠٩م)، وهو الانقلاب الذي رأى عبد الحميد أن سببه الأهم كان وقوفه ضد هجرة اليهود إلى فلسطين، وكان قد توقع أن الأمر سيتم له إذا فقد السلطانُ عرشه، وهو ما وقع بالفعل.

وبسقوط عبد الحميد انفتح الباب أمام الهجرة اليهودية عموما، وقد أحسن بعض الباحثين[٣] في تلخيص الفارق بين موقف عبد الحميد ومواقف من بعده؛ فعبد الحميد كانت مواقفه مبدئية واستراتيجية وإن ندَّت منه تحت الضغوط تراجعات اضطرارية وتكتيكية، بينما كانت مواقف من بعدَه نفعية لا مبدئية، فهم متساهلون مع الهجرة الصهيونية إلا أن يظهر لهم خطر في ذلك فيتشددون فيها تشددا اضطراريا وتكتيكيا[٤].

---

(١) يوميات هرتزل، ص٢١٣ وما بعدها.

(٢) يوميات هرتزل، ص٣٥٦ وما بعدها.

(٣) عوني فرسخ، التحدي والاستجابة في الصراع العربي الصهيوني: جذور الصراع وقوانينه الضابطة (١٧٩٩ ـ ١٩٤٩م)، ط١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يونيو ٢٠٠٨م)، ص٢٢٣.

(٤) ينظر أيضا: جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص٣٦٥؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٤٣/٦، ٤٤.

الحركة الصهيونية بعد وفاة هرتزل

توفي هرتزل (١٩٠٤م)، وهو في الرابعة والأربعين من عمره، ورغم هذا العمر القصير إلا أنه حفر اسمه لمئات الأعوام، فقد استطاع أن يكون بذرة تحقيق الحلم الذي أخفق طوال ثلاثة آلاف عام، وقد استشرف أن مؤتمر الحركة الصهيونية الأول هو بذرة الدولة التي ستقوم بعد خمس سنوات أو بعد خمسين عاما على الأكثر، وقد صح ظنه، فقد قامت بعد خمسين عاما بالفعل، وسجل في يومياته أن تأسيس الدولة «يكمن في إرادة الشعب بإنشاء دولة، بل يكمن أيضا في إرادة فردٍ قويٍّ قوة كافية»[١].

وقد تعرضت الحركة الصهيونية من بعده لارتباك واضطراب، إذ تولاها بعده رجالٌ لم يكونوا على قدره ذكاء ونشاطا، مثل ديفيد ولسون (١٩٠٥ ـ ١٩١١م)، ثم أوتو واربورج (١٩١١ ـ ١٩٢٠م)، لكن الحركة الصهيونية استعادت زمام الأمور مرة أخرى وبرزت إلى قوتها ونشاطها حين تولى أمرها الرجل القوي: حاييم وايزمان (١٩٢٠هـ)، وهو الذي أثبت أنه لا يقل كفاءة ولا جلدا عن هرتزل، وقد استطاع أن يقود هذا الحلم حتى تحقق في حياته، وكان هو أول رئيس لدولة إسرائيل بعد الإعلان عن قيامها.

وهذا الاضطراب والارتباك الذي عمَّ الحركة الصهيونية هو من أقوى الأدلة على أن هذه الحركة لم تكن تقوى بنفسها على أن تنجح في مشروع ضخم كتأسيس دولة لليهود في فلسطين، وأنها إنما نجحت بفعل القوى الأوروبية الإمبراطورية، وكيف لحركة توقفت مسيرتها عمليا لست عشرة سنة بعد وفاة المؤسس أن تستأنف مشروعا ضخما كتأسيس وطن؟!

غير أن تقرير هذه الحقيقة لا يقلل من المجهود الضخم الذي بذله حاييم وايزمان، فمثلما لا تستطيع الصهيونية أن تقيم وطنا بقوتها الذاتية، فإن الاستعمار الغربي نفسه لا يستطيع نفخ الروح في جسد ميت ولا بعث

(١) يوميات هرتزل، ص٨٩.

النشاط في كيانٍ خَمول كسول! ولئن بدا أن وايزمان لا يقل إصرارا ولا طموحا عن هرتزل، فلقد كان أسعد حظا منه بكثير، إذ كانت الظروف ورياحها تجري بما يوافق سفينته، وأهم تلك الظروف هو تضعضع الخلافة العثمانية، بالانقلاب على السلطان عبد الحميد وخلعه (١٩٠٩م)، ثم بهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م)، وحضور القوات البريطانية بنفسها لتحتل فلسطين والعراق وتهيمن على شرق الأردن، فيزول بذلك المانع القوي الذي كان واقفا ضد نشأة إسرائيل، ويحضر بذلك الداعم القوي الذي سيرعى هذه الولادة.

ولأجل هذا فقد تغيرت السياسة التي اعتمدتها الحركة الصهيونية، ففي زمن الدولة العثمانية ذات السلطان الذكي رفض هرتزل قطعيا أن يتسلل اليهود ويظهروا كمهاجرين غير شرعيين لئلا يسهل اقتلاعهم ولكي يسهل اجتذاب المهاجرين إليهم، فأما بعد خلعه فقد قرر المؤتمر الصهيوني الثامن (لاهاي، ١٩٠٧م) دعم خطة استمرار التسلل البطيء وتنظيمه ورعايته، ليكون للصهيونية وجود تضغط به وله على الدولة العثمانية وتطلب له وبه الحماية الدولية، وهو الأمر الذي أكّد عليه المؤتمر الصهيوني التاسع (هامبورغ، ١٩٠٩م)، والعاشر (بال، ١٩١١م)[1].

(١) عبد العزيز عوض، «نشأة الاستيطان الصهيوني في فلسطين»، المجلة التاريخية المصرية، عدد ٢١، ص٢٦٢؛ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/٣٢٣.

أحوال فلسطين في أواخر العهد العثماني

يحرص المؤرخون عادة على ذكر أحوال فلسطين في أواخر العهد العثماني لدحض فكرة هرتزل والدعاية الصهيونية القائلة بأن فلسطين كانت أرضا خالية، أرضا بلا شعب، وأما نحن، فلا يهمنا الآن دحض هذه الأقوال، بل يهمنا أكثر متابعة الأوضاع التي جعلت هذه المنطقة قابلة للاحتلال!

ولهذا فلن نسعى الآن لأن نذكر مظاهر الوجود والحضارة والعمران والثقافة التي كانت في فلسطين إبان تلك الحقبة، وإنما سنسعى لفهم مواضع الضعف في هذا البلد والشعب الذي أودى بها إلى هذا المصير.

وضع الدولة العثمانية: «عدم المانع»!

فسَّر المؤرخ ابن الأثير سرعة انتشار المغول في الديار الإسلامية وانهيار البلاد أمامهم بقوله: «وإنما استقام لهم الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه: أن خوارزم شاه محمدا كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها»[1].

وتلك عبارة نفيسة تستحق أن تكون نظرية في علوم السياسة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م)، ١٠/٣٣٥.

والتاريخ، فإن الدولة أو الحاكم أو السلطان كلما استبد بالأمر وجمع الأزمة في يده وأهلك القوى التي حوله، فإنما يجعل الشأن قائما عليه ومعتمدا عليه وحده، فإذا هُزِم أو مات أو حلَّ به شيء انفرط العقد. وذلك الوضع هو أفضل ما يمكن به تفسير حال الدولة العثمانية في آخر أيامها. فلقد دخلت الدولة العثمانية في أزمنة ضعفها في عملية «التحديث»، وهي المنظومة الغربية العلمانية في الحكم والإدارة والتي تجعل القوة مُحْتَكَرة في السلطة ومنزوعة من المجتمع، وتخلّت الدولة العثمانية تدريجيا ـ وبدون وعي في أغلب الأحيان ـ عن النظام الإسلامي القائم على «توازن القوى»، وكان هذا من تأثر المغلوب بالغالب واقتدائه به على نحو مقولة ابن خلدون. ومع ذلك فإن دخول الدولة في التحديث لم يجعل منها دولة قوية كما كان متوقعا، بل استمرت هزائمها طوال القرن التاسع عشر مع أنها اقتفت أثر أوروبا في عملية التحديث، إذ لم يكن سر نهضة أوروبا في مجرد التحديث، ولا سر ضعف العثمانيين في «تخلفهم» عن التحديث.

ما يهمَّنا الآن من هذا كله، أن الدولة العثمانية صارت تزداد مركزة واحتكارا للقوة، ومدَّت شبكة جهازها البيروقراطي على قدر وسعها لتشمل الأراضي الباقية تحت حكمها، ومنها فلسطين، وهذا الجهاز البيروقراطي المتمدد والمتوغل في تفاصيل المجتمع كان يأكل شيئا فشيئا من تماسك المجتمع وأدوات القوة فيه، وقدرته الذاتية على النهوض والإمساك بزمام الأمور إذا وقعت الفوضى أو الفساد في جهاز الحكم العثماني.

وأضيف على ذلك ما شهدته نهاية الحقبة العثمانية من الضعف الذي سمح بكثير من تمدد النفوذ الأجنبي الغربي والروسي، والذي تركز على دعم الأقليات المسيحية واليهودية وتوسيع نفوذها ومكتسباتها، وقد أسفر ذلك عن بزوغ فكرة القومية العربية التي حمل لواءها النصارى العرب في الشام، وهو ما وازاه بزوغ فكرة القومية التركية، إذ كانت جميع هذه المناطق الإسلامية متأثرة بالفكرة القومية التي سادت في الغرب، فابتدأت نزعات فكرية محمومة تنادي باستقلال العرب في المناطق العربية، وتنادي بتتريك العرب في جهاز الحكم التركي!

اختلفت الصورة إذن عما قبلها، فقبل ذلك كان من وُلِد في فلسطين في أواخر العصر العثماني، فإنه كأكثر العرب في ذلك الوقت، لا يداخله الريب ولا الشك في أنه عثماني، فتلك هي هويته ورابطته وانتماؤه، ولئن كانت أصوله عربية فإنه يجد إزاءه في الشارع والحارة والمدرسة فتى آخر أصوله تركية، وكثيرا ما يكون اسمه عربيا، وهذا التركي لا يرى نفسه تركيا، بل يرى نفسه: عثمانيا أيضا، وكلا التلميذين يتوحدان حين يقرآن الجغرافيا أو التاريخ أو ينشدان الأناشيد التي تمجد الدولة العثمانية وتتغنى بانتصاراتها[١]!

لقد وقع الشقاق الآن، وزاد في أزمته أن كان ذلك في أتون زمن الفوضى الذي أعقب خلع عبد الحميد ثم دخول العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، حيث تبلغ الشكوك أقصاها، وحيث تحولت القومية التركية إلى واقع حاكم، وتمثلت أسوأ تمثيل في حقبة الاتحاد والترقي، حيث الحكم العسكري العلماني التركي، الذي سعى في تتريك الشام، واعتنق مبدأ التشديد في حكم الولايات العربية، والمسارعة إلى العقوبة، وتلك هي الفترة المريرة التي حكم فيها جمال باشا منطقة الشام.

وعلى الجهة المقابلة فإن فكرة القومية العربية قد تطورت تطورا خطيرا، إذ لم يعد ينادي بها بعض نصارى الشام، لقد دخل الإنجليز على خط هذه القومية العربية، وأطمعوا الشريف حسين ـ شريف مكة وحاكم الحجاز ـ بخلافة عربية يكون هو على رأسها[٢]، ومن الطريف في هذه الخلافة العربية أنها قاصرة على المناطق العربية الخاضعة لحكم العثمانيين وحدهم، ولذا كان شعارها: «من رفح إلى طوروس»[٣] وليس من المحيط

(١) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ط١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م)، ٧١٩/٣ وما بعدها.

(٢) انظر الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين ومكماهون (المندوب السامي الإنجليزي في مصر) في: ملف وثائق فلسطين، ١٦٩/١ وما بعدها.

(٣) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٢٧/٣ وما بعدها.

إلى الخليج! لقد كانت «خلافة» على منهاج «الاحتلال الغربي»!! ثم إنها لم تعد فكرة بل قد تمثلت واقعا خطيرا في لحظة عصيبة، إذ تمرد الشريف حسين وقواته العربية مُشْعِلاً بذلك جبهة في ظهور العثمانيين ما كان أغناهم عنها وهم منخرطون في جبهات الحرب العالمية.

وابتدأت هنا دائرة المشكلات التي يغذي بعضها بعضا، ويزيد بعضها في بعض: فسرعان ما تترجم الأخطاء والهفوات والجرائم، بل والسياسات والتصرفات العادية، باعتبارها ثمرة نزعة قومية، عربية أو تركية، وهو ما يستدعي ردًّا قوميا مقابلا.

ولما هُزِمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، انقشعت عن مجتمع تتمثل فيه مقولة ابن الأثير: «انعدام المانع»، فقد افتقد المجتمع في زمن العثمانيين أكثر قوته الذاتية، وهلك كثير من أبنائه في الحرب العالمية الأولى، إما جُنِّدوا في الجيش العثماني الذي هُزِم وتمزق، أو انحازوا إلى جند الشريف حسين ـ وكانت شعاراته العلنية يومها: التمرد على الاتحاد والترقي وإعادة الخليفة العثماني المسلم المظلوم إلى عرشه! ـ أو تفرقوا هاربين من مآسي الحرب، وما وقع فيها من المجاعة ومآسي النزوح!

لم يبق في فلسطين إذن إلا الصورة الأدنى من التماسك الاجتماعي: تماسك العائلة والقبيلة والعشيرة، ولم يبرز من هؤلاء إلا من كانوا أغنياء بفعل وجودهم في المدن، ونوع ارتباطهم السابق بجهاز الإدارة العثماني، وهم غالبا الذين حرصوا على ـ أو بالأحرى: هم وحدهم من كانوا يملكون ـ إرسال أبنائهم للتعليم في العواصم الكبرى: اسطنبول والقاهرة ولندن وباريس، محاولين بذلك الحفاظ على مواقعهم الاجتماعية[١].

وهكذا، دخل الإنجليز إلى فلسطين، فرأوا مجتمعا على هذه الشاكلة، وآخر من بقي فيه من الأعيان والكبار هم رجال يمكن التفاهم معهم بوجوه عدة: إما بإغراء الحفاظ على مواقعهم ومكاسبهم ومراكزهم

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٣٥.

الاجتماعية، أو بالفكرة القومية العربية التي كان الإنجليز في ذلك الوقت يؤيدونها، أو بفكرة النهوض والتحديث على المثال الغربي البراق الذي تعلق به بعض هؤلاء وأبنائهم حين كانوا يدرسون بالخارج. وهذه الإغراءات كلها كان يقابلها كذلك العجز عن دفع الإنجليز، وماذا يفعل شعب صغير بلا إمكانيات أمام إمبراطورية عظمى خرجت لتوها منتصرة على القوى العظمى الكبيرة؟!

فلم يكن إذا بُدٌّ من محاولات التفاهم، تفاهم يبذله مجتمع بهذه الشاكلة لإمبراطورية عظمى منتصرة! من ذا يستطيع أن يلوم الفلسطينيين؟!

سجَّل زعيم قوميٌّ عروبيٌّ، من عكا، كيف أنه كان يسمع الشيوخ والعجائز يتحسرون على العهد العثماني، ويصفونه بـ «أيام العز والرخاء»[١]، وحتى الذي رأى فيما بعد ـ في زمن الإنجليز ـ أن زمن العثمانيين كان احتلالا، فإنه تحسَّر على فوات الوحدة العربية، فلقد كانت وحدة العرب حقيقة قائمة في العصر العثماني ـ ولو تحت «الاحتلال» العثماني! ـ ثم جاء زمان الإنجليز والفرنسيين فإذا هو احتلال وتجزئة معًا، وغاض حلم الوحدة العربية[٢].

وضع الأقلية اليهودية

ضربت حضارتنا الإسلامية المثل العظيم في معاملة الأقليات بالعدل والإحسان، ولم يُعرف عن أمة ولا حضارة في العالمين أنها استوعبت الأقليات وحفظت لهم مصالحهم مثلما كان في الحضارة الإسلامية[٣]. حتى

(١) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٢٢/٣.

(٢) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٣٩/٣؛ ينظر أيضا: بهجت أبو غربية، في خضم النضال العربي الفلسطيني، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٣م)، ص١٩.

(٣) لما استعرض المؤرخ اليهودي شاهين مكاريوس تاريخ اليهود، اعترف بأن اليهود وجدوا في ظل المسلمين ما لم يجدوه في ظل أمة أخرى، ولم يذكر سوى اضطهادين فحسب طوال العصور الإسلامية! وفي الاضطهادين أيضا كلامٌ وأخذ وردٌّ. ينظر: شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، ص٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢.

لقد يظن بعض الذين يقرؤون التاريخ ـ بعين مادية نفعية، أو بعين غير إسلامية ـ أن المسلمين هم الذين وضعوا بذور انهيارهم وضعفهم حين سمحوا بكل هذه السماحة وكانوا بكل هذا اللطف مع الأقليات غير المسلمة، تلك الأقليات التي انقلبت عليهم وكانت طعنة نافذة في جسد هذه الأمة والحضارة.

غير أننا لا نذهب إلى ذلك المذهب، بل نقول: ولو عاد بنا الزمن لكنا أحسن الناس في استيعاب هذه الأقليات وفقا لما يأمرنا به ديننا، وإنما كان الخلل الذي نشأت عنه هذه المشكلات هو مخالفة تعاليم ديننا في تولية هذه الأقليات مناصب حساسة، وفي الاطمئنان إليهم وقد علمنا أنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ثم هو في الضعف العسكري والسياسي الذي جعل أمتنا مطمعا لعدو الداخل والخارج، والضعيف مطمعٌ مهما كان نبيلا، فالقوة هي خير حارس للأخلاق، وكما يقال: الحزم سياج العدل! والرحمة في غير موطنها: ضعف.

ولئن كانت قصة الصهيونية الأليمة هي قصة انقلاب اليهودية والصليبيبة البروتستانتية على الأمة الإسلامية وتحالفهما معا عليها، فسيعجب كثير من القراء أن الأمة الإسلامية مثَّلت إنقاذا ومحضنا لهاتين الطائفتين خصوصا في وقتٍ كانوا يتعرضون فيه لخطر الإبادة! فوجدوا في أرض المسلمين أمانا وملجأً، وفي أزمانٍ كان يمكن للمسلمين فيها أن يبيدوهم بغير أن يستطيع أحدٌ إنقاذهم أو الدفاع عنهم.

ولقد شهد كثير من المؤرخين اليهود والبروتستانت بما كان من ذلك، وهو كلام كثير يضيق عنه المقام، ولكن لا بأس ببعض الأمثلة السريعة خصوصا فيما يتعلق باليهود والبروتستانت مع الدولة العثمانية؛ فمن ذلك ما قاله المؤرخ اليهودي الإسرائيلي مايكل ونتر[1]: «على الرغم من أن

(١) يكتب أحيانا بالعربية: ميخائيل فنتر.

الإمبراطورية العثمانية كانت دولة إسلامية سنية متشددة إلا أنها كانت دولة مستنيرة. ولقد أدى الدمج بين النظرة الأساسية المتزنة للسلطان ورعاياه وبين المنظور العلمي العقائدي، إلى تحسن وضع اليهود في كافة أنحاء الإمبراطورية، لقد دفعت الفترة العثمانية، على الأقل باليهود الذين عملوا في وزارة الخزانة إلى قمم لم يعرفوا لها مثيلا من قبل، أو على الأقل منذ الحكم الفاطمي في العصور الوسطى»[(١)]، ولهذا فقد كانت الدولة العثمانية «ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلى اليهود المطرودين»[(٢)]، وقد كان اليهود يُطردون من إسبانيا والبرتغال الكاثوليكية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم صاروا يُطردون ويضطهدون في الإمبراطورية الروسية وبلاد أوروبا الشرقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بل لقد شهد المؤرخ الأمريكي اليهودي سالو و. بارون، الذي يوصف بأنه «أعظم مؤرخ يهودي في القرن العشرين»، أن «المراكز الأكثر ازدهارا للمجتمعات اليهودية، منذ نشوء الخلافة حتى إلغاء أحياء اليهود في أوروبا، قد تواجدت في البلاد الإسلامية: في العراق أثناء الحكم العباسي، وفي إسبانيا خلال فترة سيطرة البربر، وبعد ذلك في الإمبراطورية العثمانية»[(٣)].

وأما البروتستانت، فهم قد نشؤوا أول أمرهم منشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الغربية، فكانت لهم فصول في المذابح والاضطهاد والحروب القاسية، فما كانوا يجدون ملجأ إلا في الدولة العثمانية، فيذكر المؤرخ البريطاني البروتستانتي توماس أرنولد أن معاملة العثمانيين للرعايا

---

(١) ميخائيل فنتر، علاقات اليهود مع السلطان والمجتمع غير اليهودي، ضمن: «تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية» تحرير: يعقوب لاندوا، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م)، ص٤٧٢. باختصار.

(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م)، ص٤٨٩، ٤٩٠.

(٣) هاملتون جب وهارولد باون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة ودراسة: أحمد إيبش، ط١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٢م)، ٢/٣١٠.

المسيحيين «لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوربا، وإن أصحاب كالفن وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجئوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرى القوزاق الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»(١).

وقد عاش اليهود والنصارى في فلسطين مثلما عاشوا في أنحاء الأرض الإسلامية، وبالخصوص: مثلما عاش غيرهم من اليهود في مصر والشام، إذ الأغلب في تاريخ الإسلام أن كانت مصر والشام تحت سلطان الدولة نفسها. وهكذا فلم يكن ليهود فلسطين ولا للنصارى فيها قضية خاصة ومسألة خاصة طوال ذلك العهد!

ولم يتغير هذا الحال إلا حينما ضعفت الدولة العثمانية، وبدأت القوى الأوروبية تسعى إلى التدخل من باب حماية الأقليات، وقد كانت المنافسة على الأقليات المسيحية فالروس يهتمون بالأرثوذكس وفرنسا تهتم بالكاثوليك والمارونيين، وبقي اليهود لا يهتم لهم أحد حتى ظهرت الصهيونية في بريطانيا بعدما سادت فيها البروتستانتية ـ على نحو ما أسلفنا ـ فوجدوا في اليهود أقلية يتكئون عليها كما للمتداخلين من المنافسين أقليات، ومع المدافعة العثمانية وإخفاق المشاريع الغربية، لم تتأثر أحوال الأقلية اليهودية تأثيرا واضحا أو بارزا في سياق الأحداث والصراعات الإمبراطورية، فحتى أواخر القرن التاسع عشر لم يكن لليهود

---

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخران، (القاهرة: مكتبة النهضة الوطنية، ١٩٨٠م)، ص٥٥، ١٨١، ١٨٢. (باختصار).

قضية ولا أزمة في الدولة العثمانية، بل وُصِفوا بأنهم: «لا يثورون ولا يهيجون ولا يشتكون ولا يتألمون، بل يحمدون الدولة (العثمانية) ليلا ونهارا في السراء والضراء، ويسبحون في كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم، وما ذلك إلا لأنه لا يوجد في الدول الأوروبية دولة تدعي الدفاع عنهم»[(١)].

وحتى موجات الهجرة اليهودية التي تضاعفت بعد الاضطهاد الروسي لليهود (١٨٨١م)، والتي أسفرت عن تضخم الوجود اليهودي في فلسطين، لم تفعل شيئا عظيما، وذلك أن معظم هؤلاء المهاجرين إنما كانوا من الفقراء واللاجئين، مما طبع حياتهم وأوضاعهم بطابع الضنك وسوء الحال، وكانوا إنما يعيشون على ما يجود به أثرياء اليهود من تبرعات ومنح مالية[(٢)]، فلم تكن قوتهم الذاتية لتنهض بهم أو لتساعدهم في إجراء أي تغيير، ومن جهة أخرى: لم يكن وضعهم يُشْعِر بأنهم قد يمثلون خطرا بأنفسهم.

ومن الظواهر التي تكررت أن كثيرا من اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين في موجات الهجرة المتعاقبة، كانوا يرحلون عنها إلى حيث يجدون مكانا أفضل في أوروبا أو في أمريكا أو في أنحاء أخرى[(٣)]، فلم يكن الإيمان بالأرض الموعودة قائما ولا كافيا لدى الكثيرين منهم ليحملهم على البقاء. لكن الكثيرين منهم بقوا إما لإيمانهم، وإما لأنهم وجدوا سبيلا لتحسين أوضاعهم عبر الانخراط في مشاريع موّلتها الحركة الصهيونية وأثرياء اليهود طوال هذه الفترات.

على أن هذه الموجة من الهجرة نبَّهت الأذهان العربية إلى الغايات المأمولة للحركة الصهيونية، ونشطت الصحافة العربية والإسلامية في التنبيه

---

(١) مصطفى كامل باشا (الزعيم المصري الشهير)، المسألة الشرقية، ط٢ (مصر: مطبعة اللواء، ١٩٠٩م) ص٨.

(٢) مايكل أورين، القوة والإيمان والخيال، ص٣٠٦.

(٣) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٧/٩٠، ٩١.

على ذلك مثل صحف: فلسطين والكرمل ومجلة المنار، كما تسببت هذه الموجة في وقوع بعض الصدامات مثلما كان في (١٨٨٦م) بين الفلاحين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود.

ويمكن القول بأن أول تغيير ملحوظ شهدته أوضاع اليهود إنما كان بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني وإزاحته (١٩٠٩م)، حيث دخلت الدولة العثمانية في دوامة من الاضطرابات وتبدل الحكومات والانقلابات، وانفتق باب الخطر في أكثر من جهة؛ من أهمها:

١. وجود عدد من اليهود في مناصب حكومية رفيعة في تلك الفترة.

٢. الحاجة الماسة إلى الأموال التي دفعت نحو التعامل مع الحركة الصهيونية التي ساومت بالمال على رفع القيود أمام الهجرة اليهودية، وتطور الأمر إلى بيع بعض الأراضي المملوكة للحكومة في فلسطين.

٣. انتشار الفوضى التي سببها التبدل والتغير في حكومات العاصمة مما فتح الباب أمام شراء مزيد من الأراضي، وفتح الباب أمام مزيد من خرق القوانين والتحايل عليها.

٤. استمرار النزوح اليهودي من روسيا بعد هزيمتها أمام اليابان وما شهدته من اضطرابات سياسية[١].

وفي ظل الأوضاع المضطربة تقدم اليهود في فلسطين خطوة حاسمة أخرى؛ إذ شرعوا في تأسيس حرس يهودي مسلح لمستعمراتهم (١٩٠٩م)، وهو ما مثَّل بذرة الجيش الصهيوني. وبعدها بعامين آخرين (١٩١١م) رفع اليهود مطلب الاعتراف باللغة العبرية لغة رسمية.

لكن انحياز اليهود إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية التي يحكمها الاتحاديون في ذلك الوقت، حملها على الانقلاب

---

(١) عبد العزيز عوض، «هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها»، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ١٩٧٤، ١٦٩/٣ وما بعدها؛ المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٩٠/٧.

عليهم، فقد وصلت المعلومات إلى جمال باشا، القائد العثماني في الشام، بتآمر الصهيونية لإقامة دولة يهودية في فلسطين، فشنَّ حملة واسعة على المؤسسات اليهودية وصادر أموالها وجرَّد حرس المستعمرات من السلاح، ومنع رفع العلم اليهودي أو أي لافتة بالعبرية[١].

ثم تنهزم الدولة العثمانية وينقشع حكمها عن الشام بعد الحرب العالمية الأولى، لينسدل الستار على هذه المرحلة، وينفتح على مرحلة جديدة أخرى[٢].

إن قصة إسرائيل تدل على الطبيعة اليهودية الخبيثة والرديئة، تلك التي أخبرنا الله بها في كتابه الكريم، فإن القوم الذين عاشوا في ديار المسلمين نعيما لم يعيشوه في أي ديار أخرى، لما بدا لهم أن الفرصة متاحة للانقضاض على الذين أكرموهم وآووهم لم يُقَصِّروا ولم يترددوا. كما يظهر في الوقت نفسه من هذه القصةِ عظمةُ أمتنا ونبل معدنها، ويجب أن نتذكر أنه حتى اللحظة الأخيرة حين كانت الدولة العثمانية في أقصى ضعفها كانت تتيح حَلًّا ينقذ اليهود من الاضطهاد والمذابح لكن لا يجعلهم خطرا عليها، غير أنهم أَبَوْا إلا أن يكونوا هذا الخطر وأن يكونوا مخلب العدو الغربي في تمزيقها: «فالمستوطنون الصهاينة كان معروضا عليهم دائما أن يحصلوا على المواطنة العثمانية ويستقروا في فلسطين كعثمانيين لا كعنصر استيطاني تابع لدولة غربية. والقضية لم تكن قضية عدة آلاف يهودي لا وطن لهم، أو مضطهدين في أوطانهم ويبحثون عن مأوى لهم، وإنما هي قضية غَرْس عنصر بشري غريب يتحول إلى دولة ذات توجه غربي

(١) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط٩ (القدس: مطبعة المعارف، ١٩٩٩م)، ١/٥٤٧.

(٢) استعرض د. عبد العزيز عوض باختصار مراحل الاستيطان اليهودي في فلسطين منذ دخول محمد علي الشام وإلى نهاية العصر العثماني، في بحث نشره بالمجلة التاريخية المصرية، عدد ٢١، (القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٤م)، ص٢٥٣ وما بعدها.

استعماري استيطاني رَفَضَ هذا الحل»[١].

وحين نقرأ التاريخ فيجب دائما الانتباه والتفريق بين يهود البلاد الذين عاشوا في ظل الدولة العثمانية وبين الآتين من الخارج؛ فالأولون كانوا أقل ضررا وخطرا بكثير، بل كانوا يتخوفون من الصهيونية ومن إنشاء إسرائيل[٢]، لكنهم لم يلبثوا أن انخرطوا في المشروع الغالب وتشربوا خططه وأهدافه، ومثَّلوا جزءا عضويا فيه منقلبين بذلك على حضارتهم الإسلامية، وغادرين بالمسلمين الذين عاشوا بينهم مكرمين، فنصيبهم من الجريمة العظمى قائم، وإن كان أقل من نصيب المستعمرين القادمين من الخارج!

يجب أن نتذكر أيضا أن من اليهود، حتى الصهاينة المهاجرين، من تمتع بالأمن والتقدير من العرب حتى في أشد أوقات الاشتباكات فيما بعد، والسبب ببساطة أنه تعايش وتعامل مع محيطه العربي بأخلاق حميدة[٣].

---

(١) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٦/٤٣؛ جارودي، الأساطير المؤسسة، ص٢٩، ٣٠.

(٢) ينظر: بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٦، ٢٨؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٤٨.

(٣) ينظر مثلا، مذكرات أريل شارون، ترجمة: انطوان عبيد، (بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٢م)، ص٢٠؛ جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٢٩، ٣٠.

حقبة الاحتلال الإنجليزي

ساهمت المنافسات الدولية وتضارب المصالح بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في إبقاء الدولة العثمانية أمدًا إضافيا، فبالإضافة إلى القوة العثمانية الآخذة في الضعف، فقد كان اختلاف هؤلاء فيما بينهم، وكانت خيشتهم من دخول حرب طاحنة لتقاسم تركة المملكة العثمانية، مما منح الدولة العثمانية مزيدا من الوقت للبقاء، وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحاول جهده أن يلاعب هذه القوى من موقعه الضعيف يتأمَّل أن تكون الحرب الطاحنة بينهم فرصة انتعاشة جديدة للدولة العثمانية، غير أن هذه القوى كانت تؤجل نزاعاتها وتصفيها على حسابه، فأخذت الدولة في عهده تتآكل منه، ولم تندلع الحرب إلا بعد أن أسقط من السلطة بخمس سنوات.

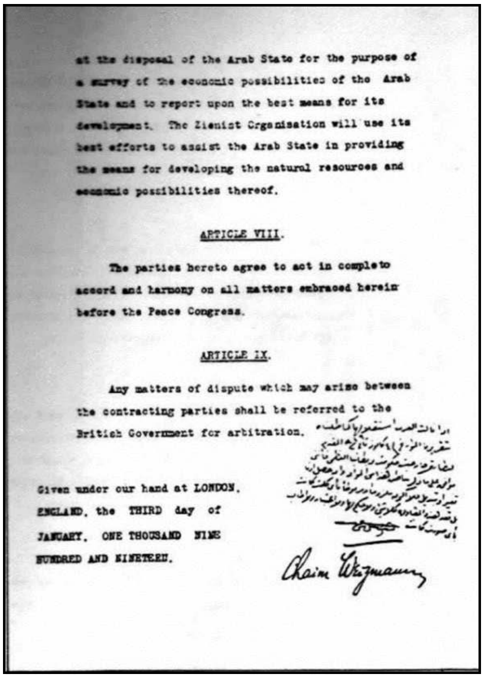
الحرب العالمية الأولى ونتائجها

كانت الحرب أوروبية بحتة، ليس للعثمانيين فيها ناقة ولا جمل، لكن بعض مسرحها سيكون بغير شك في الديار العثمانية المحتلة، مثل مصر والشمال الإفريقي، كما أن نتائجها ستؤثر على بقية المساحات غير المحتلة: الشام والعراق والجزيرة العربية والقوقاز والأناضول! ومن هاهنا فكان لا بد للعثمانيين من استطلاع مواقف القوى الكبرى، وتكشف المصادر أن قوى الحلفاء كانت عازمة على تقسيم المملكة العثمانية بعد انتهاء الحرب، ورفضوا إعطاء أي ضمانة أو اتفاق يمنعهم من المساس بالديار العثمانية، مما ألجأ العثمانيين إلى دخول الحرب إلى جانب الألمان

ودول المحور[1].

انتهت الحرب، بعد فصول طويلة، بهزيمة دولة المحور، ومنها: الدولة العثمانية التي خسرت الشام والعراق والجزيرة العربية، ولكن الذي يهمنا من ذلك الآن هو: ما جرى في الشام، وبالتحديد: فلسطين.

في سياق الحرب العالمية الأولى، أصدر الإنجليز ثلاثة وعود: وعد للعرب، ووعد لليهود، بالإضافة إلى اتفاق مع فرنسا، على هذا النحو:



at the disposal of the Arab State for the purpose of a survey of the economic possibilities of the Arab State and to report upon the best means for its development. The Zionist Organisation will use its best efforts to assist the Arab State in providing the means for developing the natural resources and economic possibilities thereof.

ARTICLE VIII.

The parties hereto agree to act in complete accord and harmony on all matters embraced herein before the Peace Congress.

ARTICLE IX.

Any matters of dispute which may arise between the contracting parties shall be referred to the British Government for arbitration.

Given under our hand at LONDON, ENGLAND, the THIRD day of JANUARY, ONE THOUSAND NINE HUNDRED AND NINETEEN.

Chaim Weizmann

١. وعدت بريطانيا حاكم الحجاز، الشريف حسين بن علي، أن يكون خليفة عربيا على دولة عظيمة تشمل الشام والعراق والجزيرة العربية، وقد انعقدت صلة متينة بين الطرفين، كان فيها الشريف حسين وولداه: فيصل وعبد الله من أخلص رجال الإنجليز، على أن يقاتل بمن معه من العرب القوات العثمانية في الحجاز وفي الشام، وقد انخرط الشريف حسين في هذه الخيانة العظيمة بكل قوته، وكان طعنة عظيمة في ظهر العثمانيين في ذلك الوقت العصيب[2]. كذلك استخلص الإنجليز من فيصل موافقة على وعد بلفور وعلى تسهيل الهجرة اليهودية فيما عرف باسم اتفاقية فيصل وايزمان (زعيم الصهيونية) بتاريخ ٣ يناير ١٩١٩م، وفيها قَبِلَ فيصل بالتفريط في فلسطين مقابل دولة عربية يملكها أبوه وإخوانه، ثم انقشع غبار المعارك عن غدر

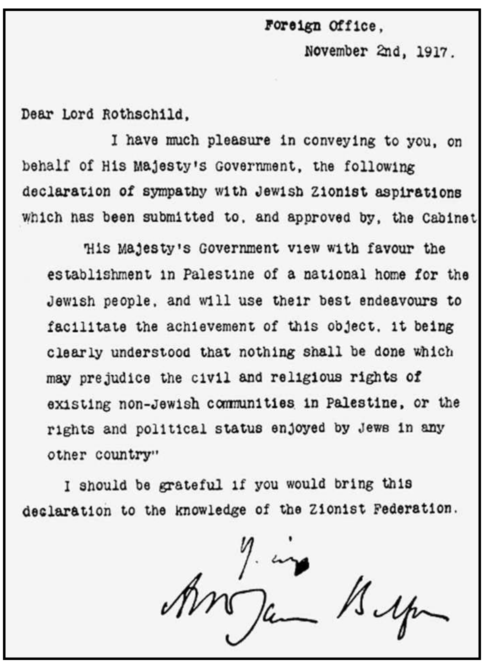
(١) شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص٩٩ وما بعدها، ١٨٧.

(٢) لبيانٍ مختصر حول الدور المهم الذي نفذته قوات الشريف حسين في دعم الإنجليز وهزيمة العثمانيين، ينظر: ليدل هارت، الاستراتيجية وتاريخها في العالم، ترجمة: الهيثم الأيوبي، ط٤ (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠م)، ص١٧٩ وما بعدها.

الإنجليز به، إذ خسر الحجاز أمام عبد العزيز آل سعود، ونُفِيَ إلى قبرص، ولم يحصل على شيء، إلا أن الإنجليز وضعوا ولده عبد الله أميرا على قطعة أرض صحراوية وجعلوها دولة، وهي التي ستعرف فيما بعد باسم «الأردن»، ثم وضعوا ولده الثاني فيصل أميرًا على سوريا. ولما وقع الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على تقسيم مناطق الشام والعراق توافقوا على أن تأخذ فرنسا سوريا مقابل فلسطين التي أخذتها بريطانيا لنفسها، ولما اجتاحت فرنسا سوريا، نقلت بريطانيا فيصلا وجعلته ملكا على العراق. والذي يهمنا من هذا الآن: أن المملكة الأردنية ما هي إلا نظام أنشأه الإنجليز لأحد أخلص عملائهم: عبد الله بن الحسين، وسيكون لهذا النظام أخطر الأدوار في كل قضية فلسطين منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

ويجدر القولُ هنا أن الرأي السائد في فلسطين، وقبل أن تظهر كل هذه النتائج المريرة، كان مع الخلافة العثمانية، وكانوا يرون في الشريف حسين خارجا عن الإسلام، وقد شق عصا الطاعة على الخليفة العثماني محمد رشاد[١].

٢. أصدر وزير الخارجية البريطاني بلفور وعده الشهير بإقامة دولة لليهود في فلسطين، وكان نصه: «تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًّا أنه لن يُؤْتَى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو


Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet

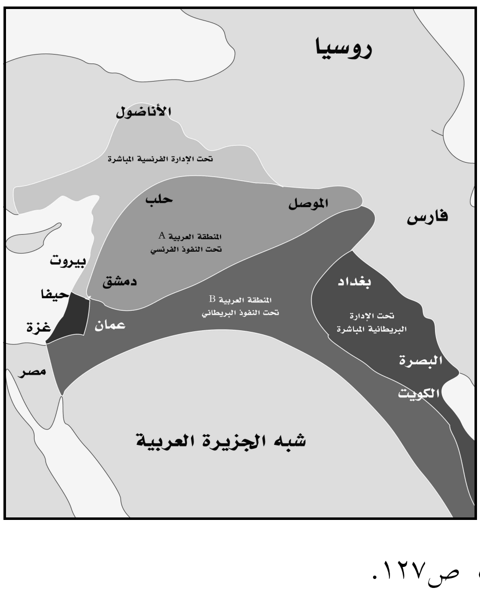
"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country"

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

(١) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٣/٧٢٢.

الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر». ويبدو واضحا أن الوعد تعامل مع فلسطين كأنها أرض بلا شعب ولا صاحب، وأن أهلها ليسوا سوى «طوائف غير يهودية» مقيمة هناك!! وقد أيَّد الرئيس الأمريكي ولسون (٣١ أغسطس ١٩١٨م) هذا الوعد في رسالة مماثلة لزعيم الصهاينة الأمريكان الحاخام ستيفن وايز[1]، وأكد على ذلك في رسالته لمؤتمر السلام في باريس حيث ناشد اليهود للعودة إلى فلسطين ووعد بأن تعترف عصبة الأمم بالدولة اليهودية حال نشوئها[2].

وتتمثل قيمة وعد بلفور العملية في أنه النجاح الأهم والأضخم للجهود الصهيونية، حيث تبنَّت القوة الدولية العظمى مطالبهم وحملت مشروعهم، وهو ما يعني أن المشروع الصهيوني قد توفرت لإقامته إمكانيات قوة عظمى لا مجرد منظمة يهودية! فضلا عن أن هذا الوعد ينصر المنظمة الصهيونية على أعدائها داخل اليهود ممن كانوا يتشككون في أغراضها أو حتى في قدرتها على تنفيذ الحلم الموعود، فهو سيجمع إلى المنظمة الصهيونية المزيد من الطاقات والأموال اليهودية، وفوق ذلك فهو سيشجع الكثير من اليهود على الهجرة إلى فلسطين، فقد صاروا الآن في كنف قوة عظمى!



٣. اتفقت بريطانيا وفرنسا على تقسيم مناطق الشام والعراق وشرقي الجزيرة العربية وشرقي الأناضول، الموروثة من العثمانيين، وهي الاتفاقية المعروفة باسم: سايكس بيكو، لأن طرفا توقيعها هما مارك سايكس البريطاني وفرنسوا جورج بيكو الفرنسي، وتقضي بتقسيم مناطق الشام والعراق على النحو

(١) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٢٧.

(٢) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٢٩.

المبين في الخريطة، مع ترك الجزء الشمالي من فلسطين الحالية ـ بما فيها القدس ـ تحت وصاية دولية. إلا أن الإنجليز سيطروا بأنفسهم على فلسطين، وخالفوا هذا الاتفاق، فاجتاحت فرنسا دمشق ووضعت سوريا تحت سيطرتها المباشرة، ولهذا نقلت بريطانيا الملك فيصل بن الحسين ليحكم العراق، وترسَّمت الحدود الحالية تقريبا بين العراق والشام، حيث انقسم الشام إلى أربعة دول: الأردن، سوريا، لبنان، فلسطين.

ونرى بوضوح أن هذه الوعود الثلاثة لم يتحقق منها سوى وعد واحد؛ هو وعد بلفور، بينما عصفت السياسة البريطانية بالوعديْن الآخرين. وكان أشد الخاسرين هو الشريف حسين، ولقد عوجل جزاء خياناته فلم يحصل إلا على المنفى في قبرص! وقد قيل إنه لم يكن يجد ثمن إيجار البيت الذي أُنْزِل فيه(١)! وإن المتابع لسيرته ليرى فيه نموذجا غريبا من نماذج الخيانة، فلئن كانت شهوته للملك عارمة إلا أنه قد انكشف له في أوقات عديدة أن الإنجليز يخادعونه، ومع ذلك لم يتوقف لا ليفكر ولا ليحتاط لنفسه(٢)، بل رهن كل مستقبله لدى الإنجليز ووثق فيهم ثقة لا حدَّ لها حتى أوردوه المهالك!

على أن هذا كله لم يكن ممكنا لولا أن استطاعت بريطانيا الانتصار في الحرب، والدخول بجيوشها إلى بيت المقدس!

احتلال فلسطين وبيت المقدس

لم يكن دخول بيت المقدس سهلا، ولكن بريطانيا تمتعت بتفوق عسكري كبير، وبموقع استراتيجي فاصل، حيث كانت تحتل مصر منذ نحو أربعين سنة، (منذ ١٨٨٢م)، وقد استطاعت في هذه السنوات أن تسيطر

---

(١) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ١٣٩٦/٥، ١٣٩٧.

(٢) يمكن متابعة التفاصيل لدى: جورج أنطونيوس، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط٨ (بيروت: دار العلم للملايين، يناير ١٩٨٧م)، ص٣٥٧ وما بعدها؛ ص٣٧٥ وما بعدها.

على الموارد المصرية، مما مَكَّنها من تجنيد واستعمال هذه الموارد من البشر ومن الأموال في دعم موقفها الحربي، فاستطاعت تجنيد أكثر من نصف مليون من المصريين وإلحاقهم بالقوات البريطانية[1]، وحاربت بهم الجيش العثماني والتمردات الإسلامية التي اشتعلت ضدها في دارفور وفي ليبيا وفي مناطق بعيدة، لكن الذي يهمنا الآن هو ما جرى على جبهة فلسطين.

مثَّلت قناة السويس مركزا للشبكة الاستعمارية البريطانية، فهذا الممرّ المائي المصنوع في زمن أسرة محمد علي شكَّل خرقا فظيعا للأمن العربي والإسلامي، وصار الطريق الأهم والأقصر الذي تنقل به الدولة المحتلة قواتها الأجنبية من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ولهذا فقد كانت نقطة حساسة وحاسمة، فسعى العثمانيون إلى السيطرة عليها، وسعى البريطانيون إلى حمايتها، والاندفاع لمواجهة العثمانيين بعيدا عنها، فاشتعلت المواجهات البريطانية العثمانية عند مدينة غزة، وهناك دارت ثلاث معارك عنيفة تعرف بـ «معارك غزة الثلاثة»، وقد استطاع العثمانيون الانتصار في المعركتين: الأولى والثانية، حتى اضطر البريطانيون لتغيير القائد العسكري موري، ثم دَفَعوا بواحد من أهم قادتهم وهو الجنرال إدموند ألنبي، الذي استطاع أن ينتصر في معركة غزة الثالثة، وبها انفتحت أمامه جبهة فلسطين!

لقد شكلت القوات المصرية المنضمة إلى الجيش الإنجليزي حجر أساس في هذه النكبة التي ضاعت فيها فلسطين، ليس فقط على مستوى

---

(١) للتوسع عن الفلاحين المصريين الذين أجبروا على التجنيد في الجيش البريطاني وكيف كانت أوضاعهم المأساوية، يُنظر: محمد أبو الغار، الفيلق المصري: جريمة اختطاف نصف مليون مصري، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٢م). وتستند البحوث في هذا الموضوع بشكل أساسي على دراسة المؤرخ الأمريكي كايل أندرسون «فرقة العمال المصرية»، وقد صدرت ترجمته العربية مؤخرا في (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٢٣م).

المقاتلين، بل على مستوى العمال والمهندسين الذين أسسوا لطرق نقل المياه العذبة والمعدات للجيش البريطاني عبر صحراء سيناء القاحلة، مما أتاح لهم الفرصة لمواصلة القتال في معركة غزة الثالثة.

وأخيرا دخل الجنرال الإنجليزي ألنبي إلى بيت المقدس في (١٧ ديسمبر ١٩١٧م)، وكتبت الصحافة البريطانية عنوانا عريضا يقول: «الآن انتهت الحروب الصليبية»!

ثم واصلت القوات الإنجليزية التقدم شمالا واحتلال بقية فلسطين، ضاربة بذلك وعدها مع الفرنسيين، واستكملت احتلال هذه المناطق في عام (١٩١٨م).

تتعدد التحليلات التي حاولت أن تفهم لماذا أقدمت بريطانيا وألقت بثقلها خلف المشروع الصهيوني، غير أن هذا السؤال هو سؤال مؤرخين ينظرون إلى المسألة باعتبار ما قد وقع بعد ذلك من اضطرار بريطانيا للانسحاب من الشام، فأما في ذلك الوقت فما كان ذلك سؤالا غريبا؛ إن السيطرة والتوسع والهيمنة هي رغبة استعمارية عميقة، وهي من غرائز الدول القوية، فإذا اجتمع إلى ذلك أن العدو ضعيف موشك على السقوط (الدولة العثمانية)، وأن ثمة منافسة قوية من آخرين (الروس والألمان والفرنسيين)، مع أهمية الموقع وما له من القداسة الدينية، ثم ما بين البروتستانتية واليهودية من التوافق والتقارب. إن اجتماع ذلك كله يؤدي إلى أن تكون المسابقة والمسارعة إلى السيطرة والهيمنة بمثابة الضرورة الاستعمارية. ومن المؤكد أن بريطانيا حين حاولت إنشاء دولة يهودية لم يكن يخطر ببالها أن تغادر الأرض كما حصل بالفعل بعد ثلاثين عاما، بل تصوَّرت أن تكون الدولة اليهودية تحت السيادة البريطانية مثلها في ذلك مثل بقية الأنظمة الأخرى في مصر والعراق والأردن، للإنجليز فيها الوجود العسكري والكلمة العليا، وللحكومات العربية عبء الإدارة اليومية وتقديم القشرة الوطنية للجمهور.

التمهيد الإنجليزي لإسرائيل

دخلت مع الجيش البريطاني أول فرقة عسكرية يهودية على يد الإنجليز، وزار حاييم وايزمان القدس لا باعتباره مستثمرا هذه المرة، بل باعتباره زعيم المشروع الصهيوني، وقد بدأ العمل سريعا، فأنشأ نواة جهازها الاستخباري (١٩١٩م) ليجمع المعلومات المفصلة عن الأرض والسكان ووسائل الشراء والاستيلاء ومن أين يُتوقع أن تأتي المقاومة... إلخ! وبهذا نشأ وقبل الإعلان عن الدولة بثلاثين سنة الجهاز الأمني والعسكري للدولة الصهيونية.

وقبل أن تدخل الجيوش الإنجليزية إلى بيت المقدس بعامين، كان ثمة وزير صهيوني في الحكومة البريطانية قد كتب تقريرا (١٩١٥م) ينتهي فيه إلى القول بأن الوضع غير مناسب لإنشاء وطن يهودي في فلسطين، ومن ثم فلا بد من فترة احتلال بريطاني لتمهيد الأوضاع، يقول: «مهما تكن حسنات ذلك الاقتراح (إنشاء الدولة اليهودية) أو سيئاته فمن المؤكد أن الوقت لم يحن له بعد... إن القيام بمحاولة لتحقيق أمنية الدولة اليهودية قبل أن يحين موعدها بقرن من الزمن، قد يؤخر تحقيقها الفعلي لقرون عديدة أخرى. هذه الاعتبارات مدركة كليا (تماما) لدى زعماء الحركة الصهيونية»[(١)].

هذا الوزير هو نفسه هربرت صمويل الذي عينته بريطانيا الحاكم على فلسطين (١٩٢٠م)، فشرع في تمهيد الأوضاع للدولة اليهودية بما يجعله المؤسس الفعلي لإسرائيل، على هذا النحو:

١. رعاية تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإلغاء كل القيود والقوانين العثمانية التي كانت تحد منها.

٢. ألغى المصرف العثماني الزراعي الذي كان يعتمد عليه الفلاحون العرب في القروض الميسرة، لصالح مصرف القروض والرهونات اليهودي،

---

(١) ينظر: ملف وثائق فلسطين، ١٥٩/١، ١٦٠.

ليحوز المصرف اليهودي على رأس المال الزراعي، وهو ما سيضر بالمزارعين العرب إذ سيفقدون أرضهم تدريجيا تحت وطأة الديون الربوية[١].

٣. سَمَحَ لليهود بالتسلح وبناء جيش منفصل.

٤. سمح لليهود بنظام تعليمي منفصل.

٥. وأقرَّ العبرية كلغة رسمية.

٦. استولى على الأراضي الأميرية وأراضي المشاع وسائر ما يؤول إلى الحاكم ثم منحه اليهود.

٧. أصدر مجموعة من القوانين التي تقرر الاستيلاء على الأراضي المشاع وما يؤول إلى الدولة وما لا يتمكن أهله من إثبات ملكيتهم له، ومن ناحية أخرى تسهل هذه القوانين تسهيل تملك اليهود، مما أفضى في النهاية إلى تسريب كثير من الأراضي لليهود[٢].

وجرى تغطية كل هذا سياسيا ودوليا بصكّ الانتداب[٣]، وهو الوثيقة التي جعلتها بريطانيا أساسًا لسياساتها في فلسطين، وهذا الصكُّ قد احتوى في بنوده على جوهر وعد بلفور، إذ ورد في بنده الثاني: أن تعمل بريطانيا على تهيئة الأوضاع في فلسطين لإنشاء الدولة اليهودية، وقد وافقت على

---

(١) محمد شعبان صوان، السلطان والتاريخ، ص٣٣٤.

(٢) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٢٩.

(٣) لفظ «الانتداب» هو من الألفاظ الاستعمارية المراوِغة الخبيثة الماكرة، إنه تزيين وزخرفة لمعنى الاحتلال، بمعنى أن الأمم الكبرى والدول الناهضة قد «انتدبت» بريطانيا لتحكم هذا الشعب فتتولى تعليمه وتدريبه وتمدينه حتى يصير متحضرا قادرا على حكم نفسه بنفسه وإدارة شؤونه دون مساعدة!! وبهذا صار الاحتلال والقهر نوعا من المهمة الإنسانية الحضارية!! ومن أغرب الغرائب أن المحتل الذي جاء ليساعد هذا الشعب على التحضر والرقي قد أمضى الوقت ليؤسس في أرضه دولة أخرى يجلب إليها المهاجرون من شتى بقاع العالم فيخرج ويهجر أهل البلد وتنفسح البلاد للغرباء الطارئين!!

هذا الصك أكثر من عشرين دولة في عصبة الأمم (المنظمة الدولية التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى).

وبهذا مَثَّل الحكم الإنجليزي حاضنة ترعى نمو مجتمع يهودي غريب، وتُمَكِّن لوجوده المالي والاجتماعي والسياسي، قسرا وغصبا عن المجتمع الفلسطيني أصحاب الأرض.

وتضمَّن صك الانتداب أيضا، في بنده الرابع، إنشاء «وكالة يهودية» تتعاون مع الاحتلال البريطاني بما يفضي إلى إنشاء دولة يهودية، وبهذا برزت بذرة الكيان الصهيوني السياسية والتي ستمثل اليهود وتدير أمورهم وتبني مؤسسات الدولة القادمة، بل مُنِحت الوكالة حق تمثيل اليهود دوليا من قبل أن تعلن الدولة أصلا. وبهذا صارت الوكالة اليهودية سلطةً وحكومةً داخل السلطة والحكومة الإنجليزية، ثم ستنمو لتصير سلطة موازية ومستقلة[1].

وبهذا كانت بريطانيا تنفذ وعد بلفور المتناقض مع نفسه، فهي في سبيل إنشاء وطن لليهود خالفت بالضرورة ما جاء في الوعد نفسه مما يتعلق بعدم الإضرار بمصالح السكان غير اليهود. وهي كذلك حين كانت تنفذ مهمة الانتداب التي تقضي بتنمية المؤسسات إنما قصرت ذلك على المؤسسات اليهودية وحدها، وعرقلت أي ظهور أو نمو لمؤسسات تعبر عن أهل فلسطين، وهم حينئذ (٩٢٪) من السكان[2]!!

بعد خمس سنوات (١٩٢٥م) تزايد عدد اليهود ومستوطناتهم، وبدأت تظهر مؤسساتهم وأجهزتهم الإدارية المنفصلة:

١. استقلال ذاتي لتل أبيب[3].

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٨، ٢٩؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٥٩، ٦٠.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٢م)، ص٤١، ٤٢.

(٣) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٤٣.

٢. تأسيس نقابة عمال، تولى زعامتها بن جوريون بنفسه.

٣. افتتاح الجامعة العبرية في حفل مهيب حضره: لويد جورج (رئيس الوزراء البريطاني) وألنبي (الحاكم العسكري البريطاني) وبلفور، وتشرشل، وحاييم وايزمان، وهربرت صموئيل.

وقد ظهرت قوة اليهود العسكرية المنظمة أثناء انتفاضة (١٩٢٩م)، حيث فوجئ الفلسطينيون بتشكيلات مسلحة ولديها رتب ودرجات عسكرية[١].

واجتذبت الإدارة الإنجليزية التي تحكم فلسطين إلى صفوفها العناصر اليهودية والنصرانية، فكان المسلمون هم الأقل في العدد وفي المرتبة من اليهود والنصارى[٢]، كان الحكم الأجنبي يُمَكِّن ويستند إلى الأقليات، ويعيد بذلك تشكيل الأوضاع الاجتماعية الداخلية.

وفي السنوات الخمس (١٩٣٠ ـ ١٩٣٥م) هاجر إلى فلسطين أكثر من مائة وخمسين ألف يهودي، وهو ما يساوي عدد اليهود الموجودين في فلسطين، وكان أكثرهم من الألمان، وفيهم عدد كبير من أصحاب الأموال والأعمال، وتزايد تهريب السلاح إلى اليهود[٣].

وعند العام (١٩٣٥م) كانت مصانع الصهيونية تصدر الألماس والأقطان إلى خارج فلسطين. وهو ذات العام الذي شهد ذروة موجة من الهجرة اليهودية الآتية من ألمانيا، زادت على ستين ألف يهودي.

وعبر عشرين سنة من العمل كان اليهود يزيدون عددا بالهجرة، وعتادا بالإمداد الإنجليزي، وخبرة بالتدريب العسكري، وبلغوا من الفعالية حدًّا أن أسسوا لمنظمات «إسلامية» و«وطنية» تشاغب على المنظمات الإسلامية الوطنية وتثير الفرقة والأزمة.

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٦.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٧٦٩.
(٣) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٤٧.

وكان الجهاز الأمني قد تكونت لديه صورة واضحة عن أفراد المنظمات الإسلامية في فلسطين، من منهم يسهل التعامل معه، ومن الذي يمكن شراؤه بالمال، ومن الذي لا حل إلا بالتخلص منه. بل لقد أنشأ هذا الجهاز الأمني، الذي سيصير معروفا باسم الموساد، قسما لتدريب اليهود العرب على القيام بأعمال التجسس على مواطنيهم في البلاد العربية[١].

وفي نهاية الثلاثينات اشتعلت الحرب العالمية الثانية، فانضم إليها خمسة عشر ألف يهودي في صفوف الحلفاء، فتحصل لهم من الخبرة والتدريب واستعمال السلاح ومعرفة العلوم العسكرية ما لم يكن متحصلا للفلسطينيين بحال، عندئذ تحولت «الهاجاناه» إلى جيش حقيقي، يملك مجموعة من الطائرات.

وأسفرت الحرب أيضا عن مزيد من الهجرة اليهودية المتدفقة إلى فلسطين، لا سيما من ألمانيا وأوروبا، حيث عانى اليهود من الاضطهاد النازي، وكان بعض هذا الاضطهاد بموافقة ودعم من قيادات المنظمة الصهيونية لكونه يحفز اليهود على الهجرة إلى فلسطين[٢]، بل قال بن جوريون: لو خيِّرت بين إنقاذ كل أطفال اليهود الألمان ليهاجروا إلى إنجلترا، أو إنقاذ نصفهم ليهاجروا إلى إسرائيل لاخترت هذا الخيار الثاني[٣].

وفي تلك الفترة وبالتوازي مع هذا المجهود العسكري كان المجهود الأمني الاستخباري يعمل على إتمام ملف «القرى» التي يستكمل فيها معلومات واضحة وتفصيلية عن كل قرية فلسطينية.

في عام (١٩٣٩م) وقع شقاقٌ بين الصهاينة وبين أربابهم الإنجليز،

---

(١) مذكرات أمين الحسيني، ص٦٩؛ عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٧٨.
(٢) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٣، ١٤، ١٦٨؛ جارودي، الأساطير المؤسسة، ص٨٧ وما بعدها؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٦٦.
(٣) جارودي، الأساطير المؤسسة، ص٨٧، ٨٨.

فقد سعى الإنجليز جهدهم لإخماد الثورة الفلسطينية الكبرى التي استمرت ثلاثة أعوام (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)، وقد صار هذا ضرورة حتمية لكون الحرب العالمية الثانية قد بدأت، فاحتاجوا إلى تهدئة الأوضاع في فلسطين، وكان من آثار ذلك أن أصدروا ما سُمِّي «الكتاب الأبيض» الذي يتعهد فيه بعدم السماح بالهجرة اليهودية، وهو الأمر الذي رفضه الصهاينة لأنه يعرقل مشروع الدولة، لا سيما وأن الحرب العالمية الثانية قد أخرجت مزيدا من اليهود من أوروبا، خصوصا من ألمانيا التي تعرض فيها اليهود لاضطهادات واسعة عرفت فيما بعد بالمحرقة النازية.

وقد أدار بن جوريون الخلاف مع بريطانيا بذكاء تختصره هذه العبارة التي تقول: «تعهد ديفيد بن جوريون بمساعدة الجيش البريطاني في قتال الفاشية وكأن الكتاب الأبيض لم يكن. في نفس الوقت الذي عارض فيه بنود الكتاب الأبيض وكأن الحرب لم تندلع»(١).

مع كون العصابات اليهودية قاتلت في صفوف الإنجليز في الحرب العالمية الثانية إلا أن بعض الفرق الأكثر تطرفا قد انشقت عن الهاجاناه، وكوَّنت عصابات أخرى مثل الإرجون (١٩٣٧م)، وهذه الأخيرة انشقت عنها فرقة أشد تطرفا اسمها شتيرن (١٩٤٠م)، نسبة إلى مؤسسها اليهودي البولندي: يائير شتيرن. هذه الفرق المنشقة انخرطت في قتال للإنجليز، إذ باتت تراهم قد أصبحوا عائقا أمام مشروع الدولة الصهيونية، فعملت على إزالتهم من فلسطين، وقد بلغت هذه العصابة الأخيرة، أي: شتيرن، ذروة عدائها للإنجليز حتى لقد تواصلت مع الألمان النازيين ـ الذين يضطهدون اليهود ـ من أجل التعاون لضرب الوجود الإنجليزي في فلسطين، وكانت شتيرن ترى أن خطورة الإنجليز على اليهود أعظم لأنها تمثل تهديدا للدولة الموعودة بما تعهدت به في الكتاب الأبيض، وشرعت في تنفيذه من تقليص الهجرة اليهودية والشروع في تقسيم فلسطين بما يعطي جزءا منها

(١) يوجين روجان، العرب: من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، ترجمة: محمد إبراهيم الجندي، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١١م)، ص٣١٥.

للعرب يقيمون عليه دولة لهم! لم ينجح شتيرن في التحالف مع النازيين وواصل هجماته على البريطانيين الذين تعقبوه حتى قتلوه! لكن هجمات إرجون وشتيرن تواصلت ضد البريطانيين، وكان من أبرزها: اغتيال أعلى مسؤول بريطاني في الشرق الأوسط: اللورد موين، في القاهرة (٦ نوفمبر ١٩٤٤م)، لموقفه المؤيد للكتاب الأبيض.

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية، حينئذ كانت الصورة في فلسطين بائسة على كل المستويات:

١. فعلى المستوى الدولي: انتصر الحلفاء على دول المحور الذين تعلقت بهم الآمال العربية والفلسطينية، مما جعل مشروع الدولة الصهيونية سائرا بلا أي عرقلة سياسية.

٢. وعلى المستوى الداخلي كانت الصهيونية ترسخ وجودها على الأرض بمستوى متصاعد:

⊙ فقد تحولت عصابات الهاجاناه إلى جيش حقيقي بما تحصل لها من خبرة وعلوم عسكرية وأسلحة وعتاد من مشاركتها في الحرب العالمية الثانية إلى جوار بريطانيا.

⊙ ازداد عدد المهاجرين اليهود؛ ففي أثناء الحرب العالمية الثانية هاجر إلى فلسطين أكثر من ٩٠ ألفا منهم، وفي السنوات التي تليها هاجر أكثر من ستين ألفا آخرين، واستولى اليهود على ٢٧٠ ألف دونم من الأراضي وأقاموا ٧٣ مستعمرة جديدة[١].

⊙ كان الجهاز الأمني الصهيوني يتمّ خطته التفصيلية عن القرى الفلسطينية فيجمع عن كل قرية: نوعية الأرض والسكان والحالة الاقتصادية والاتجاهات السياسية ومدى سهولة أو صعوبة احتلال القرية، ويستزيد من صناعة العملاء ومراقبة المجتمع الفلسطيني وما بقي من مراكز تأثيره، وقد

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥٧.

صارت له مؤسسات «إسلامية وطنية» لتشاغب على المؤسسات الحقيقية وتثير أزمات الفرقة بينها وصرف الناس عنها.

ومن أهم ما أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية غروب شمس الإنجليز والفرنسيين، لحساب شروق شمس الأمريكان والاتحاد السوفيتي، ولقد قرأت الصهيونية الموقف سريعا فنقلت ثقل نشاطها واعتمادها من بريطانيا إلى أمريكا (١٩٤٢م)، لتكرر خطتها المعتادة، في وضع نفسها في خدمة القوة الدولية لتبلغ أهدافها، وكانت أمريكا حينئذ ترث الوجود الإنجليزي والفرنسي في الشرق، وتعمل على تصفية ما أسمته «الاستعمار القديم» عبر استبداله بشكل جديد من الاستعمار وهو الهيمنة غير المباشرة، فطفقت تتحدث عن تحرير الشعوب وحق الشعوب في تقرير المصير... إلخ!

ولم يكن الأمر مجرد حديث، بل لقد انقلبت العصابات الصهيونية، بما فيها الهاجاناه، إلى الهجوم على الإنجليز ومقراتهم وجنودهم، وإن كانت الهاجاناه قد تعاونت سرا مع الأرجون وشتيرن، وبلغ التعاون ذروته في عملية تفجير فندق الملك داود بالقدس (٢٢ يوليو ١٩٤٦م)، والذي كان مقر الإدارتيْن العسكرية والمدنية البريطانية في فلسطين، وكانت عملية كبرى قُتِل فيها أكثر من تسعين، وكان السبب في ذلك أن البريطانيين حصلوا على وثائق تثبت تورط الهاجاناه في العمل العسكري ضد البريطانيين[١]، ويمكن القول إن هذه العملية كانت فاصلة في معرفة البريطانيين بأن الصهاينة قد انقلبوا عليهم، وأنهم الآن يمثلون ذراعا للقوة الأمريكية الصاعدة التي تطمح لوراثة النفوذ والمكانة وممتلكات «الاستعمار القديم».

من ذلك الوقت لبست الصهيونية ثوب حركة التحرير المكافحة التي تسعى لطرد المحتل الإنجليزي من الوطن! وبقيت هذه الحجة شعارا يرفعه الصهاينة في كل مكان، يتناغمون به مع الأفكار السائدة في الأربعينات

(١) Menachem Begin, The Revolt, (New York: Dell book, May 1987), p. 289 - 295.

وحتى السبعينات عن حقوق الشعوب في الكفاح وتقرير المصير[١]، وتلك كانت الأفكار التي دعمها الأمريكان والاتحاد السوفيتي، لا حبا في الشعوب بل سعيا لإزاحة الإنجليز والفرنسيين.

زعمت بريطانيا أنها لم تعد قادرة على حل المشكلة في فلسطين، ووضعت المشكلة أمام الأمم المتحدة، المنظمة الجديدة التي أنشأها المنتصرون في الحرب العالمية الثانية لإدارة حكم العالم من خلالها، لتدخل القضية مرحلة جديدة بعد أن تمَّ التمهيد الإنجليزي للدولة اليهودية، بل لقد شبَّ الفتى ليهاجم أمه التي احتضنته!!

بلغت حصيلة الأوضاع في حقبة الاحتلال الإنجليزي، أي في هذه الثلاثين سنة بين عامي ١٩١٨ و١٩٤٨، أن تضاعف عدد اليهود ١٣ ضعفا، فبعد أن كانوا حوالي خمسين ألفا عام ١٩١٨، أي ٨٪ من السكان، بلغت أعدادهم ٦٥٠ ألفا، وكان يملك الفلسطينيون ٩٨,٥٪ من أراضيهم عام ١٩١٨م، فصار اليهود عند ١٩٤٨ يملكون ٦٪ من الأرض.

لئن كان هرتزل هو صاحب الفكرة والبذرة الأولى، فيجب ألا ينسينا هذا جهود من تلاه، لا سيما هذا الثلاثي الخطير: حاييم وايزمان، هربرت صموئيل، بن جوريون!

لقد عمل هؤلاء الثلاثة على تطويع كافة الظروف الدولية والداخلية لخدمة خلق الدولة الصهيونية، وعملوا في نفس الوقت على ألا تكون إسرائيل مرتبطة ارتباطا كاملا بالمزاج السياسي الغربي، بل أسسوا للاستقلال اليهودي العسكري والاقتصادي والأمني، فتكون قوتهم الذاتية طرفا في معادلة السياسة، وبرغم ما يبثه هؤلاء من تحريض شعبي وديني لليهود فإنهم عملوا على خلق الظروف المواتية للدولة قبل نشوئها أو إعلانها، فلما جاءت لحظة الإعلان كانت إسرائيل أمرا واقعا!

كان هذا هو الجانب الصهيوني الإنجليزي من القصة، وأما المجتمع

(١) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٩٣.

الفلسطيني فقد كان ينسج قصة أخرى موازية ومتشابكة، على هذا النحو:

أوضاع المجتمع الفلسطيني في ظل الاحتلال الإنجليزي

تعرض الفلسطينيون إلى صدمة هائلة عندما وقع الاحتلال الإنجليزي لبلادهم، لقد عاشوا من قبل معاناة شنيعة خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، حيث جرى تجنيد الكثير من أهل البلاد للقتال في صفوف الدولة العثمانية في جبهات متعددة، وأسفرت المعارك مع قوات الحلفاء عن تخريب واسع لمدن فلسطين، فضلا عن مجاعة شديدة عمت البلاد وأسفرت عن موت الكثير من السكان. وكانت غزة من أكثر المناطق التي تضررت لكونها شهدت المعارك الثلاثة الكبيرة بين الإنجليز والعثمانيين «حيث سحقت مناطق واسعة بالقصف البريطاني»[1].

ولما هُزِم العثمانيون في الحرب العالمية الأولى وجد أهل البلاد أنفسهم لأول مرة منذ ستة قرون أمام احتلال أجنبي، فمنذ العصر المملوكي الذي طرد الصليبيين من سواحل الشام لم تطأ هذه البلاد قواتُ احتلالٍ أجنبي، ولم يعرف أهل هذه المناطق سوى الخلافة الإسلامية التي كان العثمانيون آخر نسخة منها لمدة أربعة قرون!!

وبعد نهاية الحرب بسنوات معدودة ظهر في تركيا مصطفى كمال أتاتورك الذي أعلن إلغاء الخلافة، واكتفى من الأرض العثمانية الواسعة بحدود تركيا الحالية، وأعلن أنها الوطن التركي المستقل، والذي لا علاقة له بأية بلاد أخرى كان يحكمها العثمانيون. بما جعل أهل فلسطين وللمرة الأولى أمام وضع شاذ غريب لم يعرفوه من قبل، فمنذ أربعة عشر قرنا، ومنذ أن دخلت هذه البلاد في حوزة الحكم الإسلامي كانت جزءا وولاية تابعة لخلافة إسلامية واسعة أو دولة إسلامية عظيمة تابعة للخلافة، ولم يحدث أبدا أن كانت جزءا مستقلا، فكيف وهي الآن جزء مستقل أولا وجزء واقع تحت الاحتلال الأجنبي ثانيا، حيث

---

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٤٢.

لا يرى أحدٌ أنه يتبع له أو أنه مسؤول عن الدفاع عنه وتحريره!!

كان هذا الوضع بمثابة زلزال فكري ونفسي عنيف، وقد كان أهل فلسطين حتى هذه اللحظة لا يُعَرِّفون أنفسهم باعتبارهم «فلسطينيين»، فلم يكن لهذا الاسم معنى من معاني الهوية، وإنما كان المرء منهم يُعَرِّف نفسه بالانتساب إلى عائلته أو إلى مدينته أو إلى دينه أو إلى الملة العثمانية الجامعة. فأما الآن فقد بدأ يظهر معنى جديد، وفكرة جديدة، وهوية جديدة، وهي: فلسطين. فمنذ الآن سيبدأ يتشكل وقع جديد لهذه الكلمة لا باعتبارها منطقة من الأرض بل باعتبارها وطنا قوميا منفصلا عن غيره، واقعا تحت الاحتلال، يمثل هوية لساكنيه[1]. وفوق ذلك فإنه وطن خاضع للاحتلال الأجنبي يبحث عن طريقة للتحرر والاستقلال.

كانت الأفكار القومية قد بدأت في الانتشار والتسرب داخل فلسطين، وذلك عبر مداخل ومسارب متعددة، من أهمها:

١. زيادة نسبة المتعلمين في المدارس التي أنشأتها الجهات التنصيرية والإرساليات الأجنبية، والتي ردَّت عليها الدولة العثمانية بإنشاء العديد من المدارس للحفاظ على أبناء البلاد العثمانية[2]، وكانت المدارس العثمانية حتى في ذلك الوقت قد تسربت إليها الأفكار القومية السائدة آنذاك. وكذلك زيادة نسبة المتعلمين في البلاد المجاورة، لا سيما مصر وسوريا ولبنان، وقد كانت القومية في ذلك الوقت هي الفكرة السائدة التي بُنِيت عليها المناهج الدراسية، وتنطلق بها الصحف ووسائل الإعلام وحتى الكتب والروايات الثقافية.. لقد كانت الفكرة القومية تحقق انتشارا في الطبقة المتعلمة المتزايدة عددا، والتي تصعد اجتماعيا في ثبات.

٢. أن الفكرة القومية هي ذاتها فكرة الاحتلال الأجنبي، وما من شك في أن المحتل يبث في البلاد تحت الاحتلال فكرته، رغبا ورهبا،

---

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٥١، ٥٢.

(٢) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٣٤.

قسرا وإغراءا، فكما يعيد المحتل تنظيم الأوضاع على النحو الذي يتوافق معه، فإن الواقعين تحت الاحتلال أيضا تصيبهم صفة المغلوبين الذي يولعون بالاقتداء بالغالب، وتشيع أفكار المحتلين في كثير منهم، لا سيما في الطبقات القريبة من الاحتلال.

٣. انكشاف الغطاء الإسلامي، ووقوع الهزيمة بالخلافة الإسلامية، ثم انهيارها التام على يد مصطفى كمال. ولا ريب أن الأفكار المهزومة تتعرض للنبذ والرفض والنفور، والهروب منها إلى الأفكار التي انتصر أصحابها.. فمن هاهنا كان الانصراف عن الأفكار الإسلامية لحساب الأفكار القومية[١]، وقد سقط في فخ الفكرة العلمانية زعماء ينتسبون إلى فئة أهل العلم والقضاة الشرعيين ونحوهم[٢].

٤. حيث لم يعد أحد من زعماء البلاد حول فلسطين، يرى أن الدفاع عن فلسطين هو من واجباته، وحيث أن المحتل ينطلق من هوية قومية وبيئة قومية في أوروبا، وهو في ذات الوقت يُكَوِّن هوية قومية داخل فلسطين: دولة يهودية، ويُشَكِّل نظاما عالميا مبنيا على القومية ضمن عصبة الأمم، فلهذا كله كانت القومية هي الملجأ والوسيلة التي يمكن من خلالها مناهضة المحتل والسعي إلى الاستقلال عنه، وذلك برفع شعار التحرر والاستقلال القومي، والمناداة بحق تقرير المصير الذي أعلن الرئيس الأمريكي أنه سيسانده، والذي تعلقت به شعوب المستعمرات جميعها، وحاولت من خلاله الوصول إلى اتفاقيات استقلال عن المحتلين ضمن المؤتمرات العالمية المنعقدة بعد الحرب العالمية الأولى.

لهذا كله، ولغيره من الأسباب الأقل أهمية، كانت الفكرة القومية تنتشر في أهل البلاد، الذين سيتحولون رويدا رويدا إلى أن يُطلق عليهم وصف «الشعب الفلسطيني»، وسيترسخ هذا الأمر، بل سيكون من الضروري أن يترسخ في مواجهة مشروعيْ الاحتلال: الإنجليزي

(١) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٢٣/٣.

(٢) ينظر مثلا: رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ٥٢، ٥٣.

والصهيوني. فمنذ وُجِد الشعب الفلسطيني ـ بهذا المعنى القومي الحديث التشكل ـ فإنه يخوض معارك إثبات وجوده، وإثبات حقه في أرضه، ويسعى إلى التحرر من الاحتلال الإنجليزي، ومن التهديد الوجودي الصهيوني.

لا يعني هذا أن الفلسطينيين تخلوا عن انتمائهم وهويتهم الإسلامية، بل في سائر أحقاب النضال والمقاومة كان الحضور الإسلامي طاغيا، وكانت القداسة الإسلامية هي العامل الأهم والأعظم في إثارة المشاعر وإلهاب الطاقات واستقبال المعونة والمساعدات حتى من خارج فلسطين. ولكن المقصود هنا أن مجمل هذه العوامل قد جرفت السياق السياسي العملي ـ الذي هو ممكن ومتاح ـ كما جرفت بالتبعية أكثر الخطاب السياسي والإعلامي إلى هذا المعنى القومي والوطني الذي يسعى إلى تحرير دولة قومية هي: فلسطين!

ولقد كان من أهم أولويات الحكم الإنجليزي، منذ هربرت صمويل، هو منع أهل فلسطين من أن تتكون لهم دولة أو كيان سياسي يعبر عنهم. فقد عملت السياسة البريطانية المصحوبة بقواتها المسلحة على رفض إنشاء أي مجلس تمثيلي للفلسطينيين ـ كما طالب بذلك المؤتمر العربي في القدس (١٩٢٨م) ـ إذ إن أي مجلس تمثيل في ذلك الوقت سيكون العرب فيه أغلبية كاسحة. إضافة إلى ذلك فقد عملت السياسة البريطانية على إجهاض بروز أي زعامة يمكن أن تعبر عن الفلسطينيين، وعلى إخماد أي حراك يمكن أن يفضي إلى تشكل قوة سياسية فلسطينية.

وبهذا كانت السياسة البريطانية تعمل على سبيلَيْن متناقضَيْن في وقت واحد: التمكين والدعم والرعاية والاحتضان لإنشاء دولة يهودية تفتقر إلى كل مقومات الدولة، ومنع تشكيل دولة فلسطينية تتمتع بسائر مقومات الدولة[١]. وهذا هو الفارق الخاص والوضع الشاذ الذي حصل في فلسطين وحدها، فأما في بقية البلاد العربية الواقعة تحت الاحتلال الإنجليزي فقد

---

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٤٦، ٥١.

كان الأسلوب المفضل للسياسة البريطانية هي تنصيب الأنظمة التابعة لها، كما في مصر والأردن والعراق وغيرها.

ومن آثار هذه السياسة أن دبت المنافسات والتنازع بين الأسر الكبيرة في فلسطين، مثل عائلات: الحسيني والنشاشيبي... إلخ!

وقد طورد الحاج أمين الحسيني الذي كان بمثابة الزعيم السياسي الفلسطيني حتى أُلجيء إلى المسجد الأقصى، وجاء الإنجليز بكتيبة هندية «مسلمة» لتقتحم المسجد الأقصى لاعتقاله، إلا أنه تمكن من الهرب وخرج إلى خارج فلسطين، ليبدأ رحلة نضاله من هناك، وتتعرض الحركة لضربة قوية بانفصال قيادتها السياسية عن الأوضاع وعن القيادات الميدانية.

كذلك كان انتشار الأفكار العلمانية القومية، والنزعة اليسارية الشيوعية، في النخبة الفلسطينية ومثقفيها من الشباب المتعلم والصاعد اجتماعيا، مما يفت في عظام المجتمع الفلسطيني وفي انسجامه، فهو يثير فيه الانقسامات بين الانتماء الإسلامي الأصيل وبين الحداثة الوافدة المسلحة.

إضافة إلى ذلك فإن هذا الشباب المتعلم إنما كان يصعد اجتماعيا من خلال توليه الوظائف في الإدارات والمؤسسات التي أنشأها الاحتلال ويشرف عليها لإدارة الشؤون اليومية والتفاصيل المتعقلة بالشعب الفلسطيني، فهذه الطبقة من الموظفين هي التي تجبي الضرائب من الشعب الفلسطيني، وهي التي ترسخ سلطته الإدارية، وهم لا يفعلون هذا عن قصد أو عن عمالة، وإنما هذا هو السبيل الوحيد الممكن تقريبا للمتخرجين من المدارس، كما أنه سبيل الصعود الاجتماعي الذي يرنو إليه فطريا كل أبناء الطبقات الوسطى والدنيا[1]، بل ويتعلق به أبناء الطبقات العليا كذلك للتمسك بمواقعهم الاجتماعية والطبقية في أي مجتمع.

وبهذا عانى المجتمع الفلسطيني من سلطة احتلال أجنبي وأفكار غربية وافدة ونظام مهيمن يوفر سبلا محددة للتعلم والترقي ماليا واجتماعيا،

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٣٤، ٤٣.

وكان ذلك كله أيضا يفتُّ في تكون حركة المقاومة ثم يفت في انسجامها كذلك.

وثمة انقسام آخر لم يقصر الاحتلال الإنجليزي في ترسيخه وتوظيفه، وهو الانقسام الإسلامي المسيحي اليهودي[(١)]، فمهما كانت الأقليات المسيحية واليهودية تتخوف وتتحفظ من مصائر هذا الاحتلال القادم فإن مسار الأحداث وطبيعة القوى المهيمنة والسياسات المستمرة قد جذب اليهود إلى الاندماج في المشروع الصهيوني، وجذب النصارى إلى الالتجاء والاحتماء بالمحتل الإنجليزي. لقد أراد المسيحيون الذين ناهضوا الاستعمار أن يكون المنطلق قوميا عروبيا علمانيا لا إسلاميا وهو ما كان مستحيلا أن يفلح في بيئة أكثريتها الساحقة مسلمة، ثم عملت سياسة المحاباة الأجنبية للأقلية المسيحية وتمكينها من الوظائف العليا والمزايا الخاصة بالتدريج على سحب هؤلاء من جملة المناهضين للاحتلال، إلا قليلا منهم تمسكوا بمذهبهم الديني المهدد وعظَّموا شأن العروبة واستشعروا خطر الاحتلال[(٢)]!

ومن نافلة القول، وما هو طبيعي ومتوقع من حركة احتلال، ما تثيره من أسباب النزاع والتحريض والتحريش بين الفلسطينيين واليهود، لتحقيق أغراضها السياسية، وهو الأمر المستمر منذ أول الفترة الإنجليزية وحتى آخرها[(٣)].

وبالرغم من كل العواصف والأمواج التي تهدر بها السياسة، فإنه يتردد في أكثر المصادر العربية ما كان من تعايش بين المسلمين واليهود، لا سيما أهل البلاد واليهود القادمين من أصول عربية، وأكثر ما يكون ذلك في المدن الكبيرة والتجارية، حتى ليبدو أحيانا أن هذا السياق الاجتماعي

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٢، ١٦.

(٢) لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ٢/٩١٤.

(٣) ينظر مثلا: بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٦؛ صلاح خلف (أبو إياد)، فلسطيني بلا هوية، (بدون بيانات نشر)، ص٣١.

المتعايش معزولا ومنفصلا عن الحالة السياسية لكثرة ما فيه من معالم التسامح والمعاملات الطبيعية، بل وصف فتىً من يافا أنه «لم يكن من النادر» وقوع الحب بين الشاب الفلسطيني والفتاة اليهودية، وكذلك وقوع الزواج من فتاة يهودية[١]، ولم يتغير هذا الحال إلا قبيل النكبة حين صار المشهد السياسي مثيرا للمخاوف!

إن فهم هذه الأوضاع التي كان فيها المجتمع الفلسطيني يُحَسِّن من فهم طبيعة المقاومة التي أفرزها، ومن تصوّر العقبات والمشكلات التي كانت تواجهها، ويُرَشِّد من التوقعات المنتظر أن تحققها.

المقاومة في فلسطين

إذا استحضرنا هذه الأوضاع التي عاشها المجتمع الفلسطيني، فيمكن أن ننظر في أشكال المقاومة التي أفرزها على قسمين؛ الأول: المقاومة السلمية السياسية القانونية، والثاني: المقاومة المسلحة أو العنيفة أو الخارجة عن القانون (القانون الإنجليزي بالطبع)!

فأما المقاومة السلمية السياسية القانونية فهي التي حاولت أن تعيد توظيف السياسة والقانون والشعارات والمبادئ الإنجليزية في خدمة القضية الفلسطينية وفي صالح الشعب الفلسطيني، لتحمل الإنجليز على تنفيذ مبادئهم وشعاراتهم المعلنة والضغط عليهم بالإحراج والتنديد ونحوها من الأساليب التي تسمح بها السلطة الإنجليزية، وهذا النوع من المقاومة هو الوسيلة التي يلجأ إليها كل ضعيف لم يستكمل بعدُ أسباب قوته ولم تتحقق له القدرة على المواجهة، لا سيما ونحن نتكلم الآن عن مجتمع انقشعت عنه القوة الإسلامية التي كانت تحميه ويتعرض للاستنزاف المستمر وهو واقع تحت احتلال القوة العظمى العالمية. ومع كون المقاومة السلمية السياسية القانونية هي أمرٌ لا يؤمل منه تحرر ولا يُعَوَّل عليه في استقلال، إلا أن فراغ اليد من القوة والبدائل الأخرى يُلْجِئ إليه، كما أن طبيعة

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٣، ٢٤.

الاحتلال الغالب وفي زمن التفوق الغربي الكاسح ومع طول الأمد يجعل بعض الشرائح مؤمنة بهذا الحل السلمي، لا سيما إذا تداخلت مصالحهم الشخصية وتوافقت معه، ففي ظل الاحتلال العسكري المتفوق ذي الوجه السياسي الماكر والمخادع يلجأ الاحتلال لتوظيف طبقة الأعيان والأثرياء في مصلحته، فيعطيهم بعضا من المكاسب والمزايا ويبقيهم في ـ أو يصنع لهم ـ المناصب والمواقع التي تجعلهم يتولون تهدئة الشعب والسيطرة عليه[1]، وهو ما يسميه بعض الباحثين «الوطنية الأليفة»[2]، حيث يسعى هؤلاء لدى الاحتلال لتحقيق ما استطاعوا من المكاسب سِلْمًا ويتنافسون عنده أيهم أقدر على تهدئة الشعب والسيطرة عليه، كما يتنافسون لدى الناس أيهم أقدر على تحقيق المطالب المأمولة وانتزاعها من الاحتلال سِلْمًا ودون الدخول في مواجهات عظيمة الخسائر شديدة التكاليف.

ويجب التأكيد هنا أن هؤلاء لا يمكن وصفهم بالخيانة هكذا ضربة لازب، بل الأمور معقدة ومركبة، يجتمع فيها الضعف والعجز وتتداخل فيها مصلحة الشعب والوطن مع مصلحة الفرد والعائلة، ومنهم من يكون ساذجا أو مخدوعا، ومنهم من يلتصق بالاحتلال ويُخلص له، ومنهم من يبدأ مخدوعا ثم ينتهي مقاوما صنديدا، ومنهم من يبدأ مقاوما ثم يجري امتصاصه وشراؤه بالوعد والوعيد فينتكس ويلتصق بالاحتلال ومصالحه، فالتقييم هنا للأفراد والزعماء يجب أن يكون فرديا وأن يصدر بعد استقصاء واسع.

كذلك يجب استحضار أن وضع التجزئة قد أفقد القيادات العربية إلى حد كبير امتداداتها القومية التي كانت قائمة في زمن الدولة العثمانية،

---

(١) ينظر: فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة: رحلة الدم الذي هزم السيف، إعداد: رفعت سيد أحمد، ط١ (القاهرة: مركز يافا للدراسات، ١٩٩٧م)، ١٧٦/١.

(٢) للشاعر والباحث الفلسطيني تميم البرغوثي رسالة دكتوراة بهذا العنوان، لكن موضوعها كان عن الطبقة السياسية المصرية تحت الاحتلال الإنجليزي، لكن الوصف يصدق على سائر البلاد المحتلة في عصر الاستعمار.

وحصرها في العلاقات القطرية الوطنية[1]، وهو ما ضيَّق إمكاناتها، وقلَّل قدراتها على التصدي والتحدي والمقاومة.

تمثلت أبرز مشاهد هذه المقاومة السلمية في سلسلة المؤتمرات العربية، والتي تلخصت مطالبها في: إلغاء وعد بلفور، إيقاف الهجرة اليهودية، وقف بيع الأرض لليهود، إقامة مجلس تشريعي معبر عن الفلسطينيين تنبثق عنه حكومة فلسطينية. وقد بدأت هذه السلسلة بالمؤتمر الأول (١٩١٩م) في القدس، وقد رفض تقسيم بلاد الشام، وأكد أن فلسطين جزء من الشام الموحدة تحت حكم عربي[2]! لكن قوى التقسيم كانت أكبر منهم بكثير، كما أن خضوع أبناء الشريف حسين (فيصل وعبد الله) للأجانب، ورضاهم بما قرره لهم الأجانب من حكم العراق والأردن، جعل هذه المطالب بلا قيمة. ثم توالت المؤتمرات فانعقدت سبعة منها حتى عام (١٩٢٨م)، وكانت برئاسة موسى كاظم الحسيني الذي استمر بمثابة الزعيم السياسي للفلسطينيين حتى وفاته (١٩٣٤م).

ونكاية فيه، فقد اصطنع الإنجليز منصب مفتي القدس ومنصب رئيس المجلس الإسلامي، ووضعوا فيه واحدا من أبناء عمومته: أمين الحسيني، وقد تسبب هذا في بعض التوترات والانقسامات[3]، لكن أمين الحسيني وإن بدأ حياته مهادنا للإنجليز، فإنه سرعان ما صار الزعيم الفلسطيني الأول بلا منازع، وكانت له جهود قوية عزيزة في مقاومة الاحتلال الإنجليزي.

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٣٠.

(٢) ينظر: ملف وثائق فلسطين، ١/٢٦٣، ٢٦٤؛ ويجب التنبيه هنا إلى أن هذا لم يكن رغبة سياسيين منفصلين عن المجتمع كما هو حاصل في زماننا هذا، بل هذا هو الشعور العام الشعبي حينها، وعبرت عنه الصحافة أيضا، ينظر: أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٣/٧٢٩ وما بعدها، ٧٤٥؛ بهجت أبو غربية، ص٣٠؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٥٦.

(٣) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٦٩.

وها هنا أمرٌ لا يكاد يذكر في الدراسات التاريخية التي كتبها الوطنيون والقوميون العروبيون، وهو أن هذه المقاومة بشقيها: السلمي والجهادي إنما هيمن عليها الطابع الإسلامي، فقد كانت الشخصية الأبرز في هذا العصر هي المفتي الحاج أمين الحسيني، الذي كان يعتمد على قوة العائلة الحسينية، ولكنه كان يعتمد فوق ذلك على مكانته الدينية وما له من النفوذ في أمور الأوقاف والمحاكم الشرعية والقضاة الشرعيين والأئمة والوعاظ وتحتهم شيوخ الكتاتيب، وهؤلاء الأخيرون كانوا بمثابة المدارس المعاصرة في تغلغلها داخل القرى، فضلا عن أن مكانة المفتي الدينية منحته امتدادات أوسع خارج فلسطين، إن مع القادة والزعماء السياسيين، وإما مع العلماء وزعماء الحركات الإسلامية[(١)]، لذلك استحوذ حزب المفتي وجبهته على تأييد أكثر الشعب بلا منازع، ولم يفلح معارضوه ذوو الكتلة العائلية المقابلة (عائلة النشاشيبي) أن يوازنوا قوته بنفوذهم العائلي وحده[(٢)].

كذلك لم يخلُ الشأن في المقاومة السلمية من وسائل أخرى، كالقيام بزيارات إلى لندن وتنفيذ بعض الاحتجاجات وإصدار العرائض والنداءات ونحو هذه الأمور المرتبطة بمجال المقاومة السلمية[(٣)]، والتي تؤتي ثمرات محدودة في ظروف معينة، لكنها لا تغير كثيرا من مسار الصراع[(٤)]. غير أن هذا المسار السلمي تعرض لضربتيْن كبيرتيْن؛ الأولى: فشل زيارة موسى كاظم الحسيني والوفد العربي إلى لندن (١٩٣٠م)، ثم رسالة رئيس الوزراء البريطاني ماكدونالد إلى حاييم وايزمان (فبراير ١٩٣١م) المؤكدة على التزام بريطانيا برعاية الصهيونية، وهي الرسالة التي سُمِّيت «الكتاب الأسود»، إذ

(١) ينظر هنا مذكرات محمد أمين الحسيني التي تعبر عن اتساع علاقاته وامتداداتها الوافرة في عموم العالم العربي والإسلامي.

(٢) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٣١، ٣٢.

(٣) ينظر بعض من هذه النداءات والوثائق في: ملف وثائق فلسطين، ٢٦٣/١ وما بعدها.

(٤) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٣؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٥٤، ٦٧.

نقضت بريطانيا فيه ما كانت قد وعدت به بضبط الهجرة اليهودية قبل أربعة أشهر (أكتوبر ١٩٣٠م) بعدما أوصى أحد خبرائها بأنه لم يعد في فلسطين أراضٍ يمكن منحها للمهاجرين اليهود[١].

استمرت الفعاليات السلمية، فحتى أولئك الذين يؤمنون بالمقاومة المسلحة، لم يكونوا ليستطيعوا إعلانها صراحة، وكانوا كذلك في حاجة إلى فعاليات سلمية تغطي حركتهم ويتعرفون بها على الأتباع ويثيرون من خلالها عاطفة العرب والمسلمين، ويستطيعون بها جمع الأموال أو إطلاق المبادرات، ففي (١٩٣١م) انعقد في القدس المؤتمر الإسلامي العام و«لعله كان أكبر تجمع إسلامي شهده العصر الحديث»[٢]، فقد حضره رموز إسلامية عالية مثل رشيد رضا ومحمد إقبال وعبد العزيز الثعالبي وشوكت علي الهندي، وخرجت منه قرارات مثل: إنشاء جامعة إسلامية، تأسيس شركة لإنقاذ الأراضي، تشكيل لجان فلسطين في كل دولة[٣]. وفي (١٩٣٥م) انعقد مؤتمر العلماء الفلسطينيين وأصدر فتوى بتحريم بيع الأرض لليهود وتكفير فاعلها[٤].

جدير بالذكر أن الوجود البريطاني الثقيل كان قادرا على رفع الشخصيات وخفضها، وعلى منح من يشاء تمثيلا دبلوماسيا ونزعه عمن يشاء، فكانت بريطانيا تستطيع في كثير من الأحيان إفساد أي وحدة للصف أو للتمثيل السياسي للفلسطينيين من خلال المقربين منها: مخدوعين أو متورطين! واستعملت هذا في العديد من المواقف طوال حقبة الاحتلال[٥].

وأما المقاومة المسلحة فإنه بالرغم من كل المآسي التي عانى منها الفلسطينيون تحت حكم الاحتلال الإنجليزي إلا أنهم لم يتوقفوا عن

---

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٤٨.
(٢) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٣/٧٥٠.
(٣) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٤٨، ٤٩.
(٤) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ٢/١٠٣٥.
(٥) ينظر مثلا: رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٩٨ وما بعدها.

المقاومة بأقصى ما استطاعوا في ظل أوضاعهم العصيبة، ويمكن أن نرى خطا متقطعا من الانتفاضات الفلسطينية، وهي انتفاضات قَصَدَتْ إلى اليهود وتَجَنَّبَتْ الإنجليز، كي لا تفتح على نفسها الجبهة الأقوى والأعنف، ولكي تحمل بريطانيا على تغيير سياستها في التمكين لليهود، ومن ذلك ما وقع في القدس (١٩٢٠م) ويافا (١٩٢١م)، وانتفاضة البراق (١٩٢٩م)، وانتفاضة القدس ويافا (١٩٣٣م)، وكانت انتفاضات إسلامية، وكانت حصيلة القتلى والجرحى من الطرفين ـ العرب واليهود ـ قريبة، مع فارق أن اليهود قُتِلوا بيد العرب وبالأسلحة البيضاء كالعصا والسكين، بينما قُتِل العرب بيد الإنجليز وأسلحتهم النارية[١].

وكما هي العادة، فقد ظهرت حركات مسلحة صغيرة سرعان ما أُجْهِضَتْ وصُفِّيت، مثل حركة الكف الأخضر بزعامة أحمد طافش التي تشكلت في ثورة البراق ثم انتهت بالقبض على زعيمها (فبراير ١٩٣٠م)[٢]، وفي هذه الحركات تغير النمط الذي كان يستهدف اليهود ويتجنب الإنجليز، فقد استهدفت الحركة كلا العدوين، وسادت الفكرة التي تقول بأن الإنجليز هم أصل الداء، وما اليهود إلا كظِلِّ الشجرة، فإذا قُطِعت الشجرة ذهب ظلها معها! وقد برز هذا التوجه في الفترة (١٩٣٠ ـ ١٩٣٥م)، أي في السنوات التي شهدت تزايد الهجرة والتسلح اليهوديْن.

تفاعلت هذه البذور الصغيرة حتى وصلت إلى الانتفاضة الأكبر حتى ذلك الوقت وهي المعروفة بثورة الشيخ عز الدين القسام؛ ففي عام (١٩٣٥م) استشار فيه عز الدين القسام القيادات الفلسطينية في إشعال ثورة على الإنجليز، فكان ردهم أن الشعب لم يتهيأ بعد، وأن الوقت غير مناسب، وأنه ما يزال الأمل قائما في الوصول إلى الحقوق من خلال المحاورة

---

(١) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٣ وما بعدها، ٣٧ وما بعدها؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٤٦.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥٠.

والمفاوضة مع الإنجليز[١]. إلا أن القسام أشعل ثورة وكان هو من شهدائها (٢٠ نوفمبر ١٩٣٥) في أول المعارك التي خاضها مع الإنجليز.

لا يعرف عدد التنظيم الذي شكَّله القسام على وجه الدقة ولا على وجه التقريب، لكنهم لا يقلون عن مائتين ولا يزيدون عن ثمانمائة، ولا تعرف بدايته على وجه الدقة أيضا كما هي العادة في التأريخ للحركات السرية والمجاهدة التي يستشهد صفها الأول، ولكن لن تتقدم عن (١٩٢٥م) ولن تتأخر عن (١٩٣٠م)، وكان نشاطها في شمال فلسطين حيث مناطق تزايد اليهود، واستهدف التنظيم إرهاب اليهود والإنجليز، وأيضا: جواسيسهم وعملاءهم، وكان تنظيمهم عنقوديا يتكون من مجموعات صغيرة لا يعرف المرء فيها إلا أعضاء مجموعته الأربعة، وتولى القيادة بعد استشهاد القسام: فرحان السعدي[٢].

كان مما عجَّل قرار الثورة اكتشاف أهل حيفا أن الصناديق التي تأتي إلى محال اليهود ومتاجرهم لا تحمل سلعا وأقمشة، بل تحمل أسلحة وطلقات سريعة[٣]، وقد هيمن المتدينون على حركة القسام، ومن بين أربعين اسما بارزا في الحركة كان ست وثلاثون منهم يحملون لقب الشيخ[٤]! ولم يجد القسام أي دعم من أي نظام عربي، بل يعزى موته إلى المتواطئين العرب مع السلطات البريطانية[٥]، ولم يسر في جنازة الشهداء حتى الوجهاء والأعيان الذين يتسنمون قيادة المجتمع الفلسطيني ويمثلون فيه نموذج «الوطنية الأليفة»، خوفا على أملاكهم من ردة الفعل البريطاني[٦].

وفي القدس، برز تنظيم آخر مسلح، بقيادة عبد القادر الحسيني،

---

(١) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ١/١٨٦، ١٨٧.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥١.

(٣) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ط١ (بيروت: دار الوراق، ٢٠٠٠م)، ص٦؛ بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٤٣، ٤٤.

(٤) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ١/١٨٢.

(٥) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٤.

(٦) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ١/١٧٨، ١٨٩.

حمل اسم «الجهاد المقدس»، وحظي برعاية الزعيم السياسي الحاج أمين الحسيني، قُدِّر عدد أعضائها بأربعمائة في عام (١٩٣٥م)[١].

أوقد استشهاد القسام فتيل الثورة الأكبر في تاريخ فلسطين تحت الاحتلال الإنجليزي، وهي ثورة الريف الفلسطيني، وهي المعروفة بالثورة الفلسطينية الكبرى، وكانت شرارة البداية عملية نفذها القساميون بقيادة فرحان السعدي قُتِل فيها اثنان من اليهود (١٥ إبريل ١٩٣٦م)، ثم تصاعدت ردود الفعل المتبادلة حتى أعلن الفلسطينيون إضرابا شاملا (٢٠ إبريل ١٩٣٦م)، وهو الإضراب الكبير الذي كان وجها آخر للثورة، إذ استمر ستة أشهر ليكون أطول إضراب في تاريخ فلسطين، بل عده بعض الباحثين «أطول إضراب في التاريخ يقوم به شعب بأكمله»[٢].

لئن لم يشهد القسام ثمرة جهوده في حياته، فلقد شهدتها فلسطين بعد استشهاده؛ إذ كان رجال التنظيم القسامي هم أبرز رجال الثورة الكبرى، فضلا عن غيرهم ممن أفرزته الثورة من قيادات مناطقية وعشائرية ورجال موهوبين، فكانوا عمادها العسكري. وأما واجهتها وقيادتها السياسية فسرعان ما تشكلت في الأيام الأولى (٢٥ إبريل ١٩٣٦م) حين جرى جمع الأحزاب العربية في فلسطين تحت مظلة «اللجنة العربية العليا» التي تولى قيادتها الحاج أمين الحسيني، والتي حددت مطالب الإضراب في ثلاثة مطالب، هي:

١. تشكيل حكومة فلسطينية تكون مسؤولة أمام برلمان منتخب.

٢. وقف الهجرة اليهودية.

٣. وقف بيع الأراضي لليهود.

نتوقف أولا مع المسار السياسي للثورة، ثم ننظر بعده في مسارها العسكري والميداني؛ لقد صُدِمت بريطانيا من هذا التطور المفاجئ وهذا الاشتعال العام للثورة، فذهبت إلى الضغط على الفلسطينيين بوسائل العنف والسياسة لإيقاف الإضراب الذي كان مذهلا وعصيا عليهم في انتشاره

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥١.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥٢.

واتساعه ثم في طول مدته، فأوعزت إلى الحكام العرب الخاضعين لنفوذها ليتدخلوا ويضغطوا على اللجنة العربية العليا لإنهاء الإضراب[١]، وهو ما كان.



كذلك وعدت بريطانيا من جانبها بإرسال لجنة رفيعة المستوى لبحث الأوضاع، وهي لجنة بيل، فاجتمع الترهيب والترغيب، فضلا عن وسائل الإنجليز العسكرية العنيفة، فقرر الفلسطينيون إنهاء الإضراب عساهم بذلك يسمحون بتهيئة الفرصة لهذه الجهود السياسية العربية والإنجليزية. لكن الحكام العرب لم يفعلوا شيئا، واللجنة الإنجليزية قضت سنة حتى أخرجت تقريرها (يوليو ١٩٣٧م) الذي كانت خلاصته: تقسيم فلسطين بين العرب واليهود!! لتكون هذه اللجنة أول من يقترح فكرة طرد الشعب وتهجيره من أرضه!

وقد بدا بتلك النتيجة أن المسألة إنما كانت شراء للوقت ومحاولة لامتصاص الثورة، وفيما كانت نسبة الأرض التي يملكها اليهود حتى ذلك الوقت لا تتجاوز الخمسة بالمائة، فإن اللجنة منحتهم باقتراحها ثلث فلسطين الشمالي، ومنحت العرب ثلثي فلسطين الجنوبي، وجعلت المنطقة الواصلة بين القدس وحيفا

---

(١) جاء في نص الرسالة: «ندعوكم للإخلاد للسكينة حقنا للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية... وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم»، ينظر نص الرسالة التي وقَّع عليها: الملك عبد العزيز آل سعود (السعودية)، والأمير عبد الله بن الحسين (الأردن)، والملك غازي (العراق)، والإمام يحيى حميد الدين (اليمن)، في: مذكرات أمين الحسيني، ص٢٦، ٢٧.

مستعمرة بريطانية!! فكان ذلك مكسبا جديدا لليهود أخذوه بقوة السياسة البريطانية إلا أنهم ـ وكعادتهم ـ لم يتوقفوا عنده.

زاد هذا من سخط الشعب الفلسطيني وتجددت ثورته، فقررت بريطانيا حل الهيئة العربية العليا واعتقال قادتها، فاعتقلت منهم أربعة نفتهم إلى جزيرة سيشل، واستطاع أن يفلت زعيمها: الحاج أمين الحسيني من الاعتقال، ليهرب إلى لبنان (أكتوبر ١٩٣٧م)، محاولا إدارة الثورة من الخارج[١]!

وأما المسار العسكري والميداني، فقد استهدفت الثورة العملاء والجواسيس مثلما استهدفت الصهاينة والإنجليز، إذ جرى الهجوم على مقرات الحكم البريطاني ومرافقه الحكومية، فضلا عن الهجوم على المستعمرات اليهودية، كذلك استهدفت اغتيال كبار المسؤولين وتهديد عناصر الشرطة العرب، وكان من أبرز عملياتها: اغتيال الحاكم البريطاني لويس أندروز (٢٦ يوليو ١٩٣٧م)، بعيْد نتائج لجنة بيل القاضية بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وتواصل تصاعد الثورة حتى بلغ ذروته في (صيف ١٩٣٨م)، إذ استطاع الثوار الاستقلال بالريف الفلسطيني كله، بل وانتزعوا عددا من المدن لفترات محدودة من السلطة البريطانية[٢].

وكالعادة في كل جهاد إسلامي: اشترك في هذه الثورة مسلمون من مصر والأردن والشام والعراق[٣]، قدموا متطوعين وبعضهم تبوأ فيها مراكز قيادية مثل فوزي القاوقجي.

في كل انتفاضة شعبية كان السلاح البريطاني يتحرك بعنف لإخماد

---

(١) مذكرات أمين الحسيني، ص٢٩ وما بعدها.

(٢) مذكرات أمين الحسيني، ص٣٨، ٣٩؛ بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١١٩ وما بعدها؛ رشيد الخالدي، ص٧٣.

(٣) مذكرات أمين الحسيني، ص ٤١؛ أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٥٢/٣؛ محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص٨٨.

كل مقاومة، واستعملت أسلحة القتل والاغتيال والاعتقالات والنفي والمحاكمات، مع ما يساند هذا كله من عمل أمني واستخباري، وما يغطي هذا كله من عمل سياسي يثير الفرقة بين الزعامات الفلسطينية ويرصد تدابير لإجهاضها، ولتحويلها إلى فتنة طائفية ودينية داخلية[١]. وقد قوبلت الثورة الفلسطينية الكبرى بكافة أنواع القمع الإنجليزي، وكانت الطريقة المتبعة هي: قتل القادة الميدانيين، فصل القادة السياسيين عما يجري بالأرض من خلال النفي أو تسهيل الهروب من فلسطين، وتجريد الناس من كل أنواع السلاح، فمن وجد في بيته ولو بقية رصاصة فارغة نسفوا بيته، واستعملوا المدنيين دروعا بشرية إذ ربطوهم في مقدمات سياراتهم وقطاراتهم للإفلات من الكمائن[٢]. وألقت بريطانيا بثقلها لإنهاء الثورة التي استمرت لثلاث سنوات، فدفعت بعشرين ألفا من قواتها تحت قيادة أربعة جنرالات كبار ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى. لقد اضطرت بريطانيا إلى إعادة احتلال فلسطين مرة أخرى في أواخر ١٩٣٨ وأوائل ١٩٣٩، وفرضت حكما عسكريا اعتمادا على مائة ألف جندي بريطاني، أي جندي لكل أربعة فلسطينيين!! ولنا أن نقدِّر عظمة هذه الكلفة حين نتذكر أن صهيونيا متعصبا مسرفا في العنف مثل جابتونسكي كان يرى أن القوة اللازمة لإقامة إسرائيل لا تقل عن خمسين ألف جندي[٣]!.

أسفرت سنوات الثورة الثلاث (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م) عن استشهاد نحو خمسة آلاف فلسطيني، وجرح نحو أربعة عشر ألفا[٤]، بخلاف من اعتقلوا أو من طُردوا أو من اضطروا للهرب، حتى تذهب بعض التقديرات إلى أن هؤلاء يمثلون ١٠٪ من الذكور البالغين الصالحين للقتال[٥]، وبهذا تمت

---

(١) مذكرات أمين الحسيني، ص٤٢، ٤٣؛ بهجت أبو غربية، ص١٨.

(٢) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٧١ وما بعدها.

(٣) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٨١.

(٤) ينظر: مذكرات أمين الحسيني، ص٤٠؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥٤. مع مراعاة اختلاف المصادر في الأرقام والتقديرات.

(٥) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٢١، ٧٠، ٧١.

تصفية الجيل الذي يمكنه التصدي للعصابات الصهيونية بعد عشر سنوات. أي أن الواقع العملي هو أن النكبة وقعت بإخماد الثورة الفلسطينية في نهاية الثلاثينيات[١].

لقد أبدى الفلسطينيون مقاومة باسلة، لكنها مقاومة متبعثرة ومشتتة[٢]، فلئن كان أول حراك شعبي مخطط له كان هو المظاهرة الكبيرة التي نظمت عام ١٩٣٣م، وانقلبت إلى انتفاضة القدس ويافا، فهو دليل على كيف أن هذا المجتمع الذي يعاني التشتت ويعاق عن إفراز قيادات ظل ١٥ سنة قبل أن يتمكن من تنظيم حراك شعبي سلمي على غرار مقاومة غاندي في الهند[٣].

وفوق كونها مقاومة متبعثرة ومشتتة، فإنها مقاومة تعاني من الفارق الضخم في القوة والتسلح، وتعاني من ضعف الكوادر الناتج عن سحق جيل الثورة قبل عشر سنوات، وتعاني من التواطأ العالمي لا سيما البريطاني، وتعاني من الخيانة العربية التي يحكم عواصمها عملاء تابعون للمحتل.

يجب أن نتذكر أن الإمبراطورية البريطانية كانت أقوى قوة عالمية في عصرها، وأن شعوبا كثيفة العدد وغزيرة الموارد لم تستطع أن تحرر نفسها من الاحتلال البريطاني إلا بصعوبة وبعد عشرات السنين، مثل: الهند ومصر والعراق، فكيف يمكن لشعب قليل العدد فقير الموارد مثل الشعب الفلسطيني أن ينجح في مواجهة كهذه؟! لقد نفذ الفلسطينيون بطولات باسلة وحققوا نتائج غير متوقعة بالنسبة إلى فارق الإمكانيات الضخم بين الطرفين، ويعد مجرد انطلاقهم وخوضهم هذه الفصول من المقاومة شجاعة نادرة.

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٣٠؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٧٥.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٣.

(٣) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص٣٧ وما بعدها.

على أن مقاومة الفلسطينيين لم تنتهِ بلا ثمرة، بل لقد اضطرت بريطانيا أمام هذا الواقع الثائر أن تبحث عن حلول تسكينية، لا سيما وقد بدأت نذر الحرب العالمية الثانية واحتاجت إلى تهدئة هذه المنطقة وشعوبها، فأعلنت إلغاء مشروع تقسيم فلسطين، وأفرجت عن المبعدين من قيادة اللجنة العربية العليا، ودعت إلى مؤتمر في لندن بين العرب واليهود، ثم أصدرت «الكتاب الأبيض» (مايو ١٩٣٩م) الذي يعتبر أكبر تنازل بريطاني في صالح الفلسطينيين، وهو الذي أشعل الخلاف بين البريطانيين وبين اليهود، إذ قد تعهد الإنجليز فيه بتقييد الهجرة اليهودية بحيث لا تزيد عن ٧٥ ألفا، وحظرت بيع الأراضي في مناطق وقيَّدته في مناطق أخرى، لكنها تصلبت في إصدار عفو عن الثوار أو السماح بعودة الزعيم السياسي لفلسطين: أمين الحسيني(١). كانت بريطانيا تريد تهدئة غير مهدِّدة، ولهذا لم تسمح بوجود بذور يمكن أن تعيد التثوير من جديد.

لم يستطع أمين الحسيني أن يعود إلى فلسطين، ولكنه طاف في رحلة صعبة ومثيرة متنقلا بين لبنان والعراق وإيران وتركيا ثم استقر به الأمر في ألمانيا محاولا التحالف مع الألمان ـ أعداء الإنجليز ـ بحيث يستصدر منهم وعدا مناقضا لوعد بلفور، يتحالف فيه العرب مع الألمان مقابل تمكينهم من تحرير بلادهم وإنهاء المشروع الصهيوني. وقد وقع الاتفاق بينهم فعلا، وتطور إلى تدريب الألمان لقوات عربية، وإلى إمدادهم ببعض السلاح(٢).

غير أن الحال انقلب بالهزيمة التي انتهى إليها الألمان والطليان في الحرب العالمية الثانية، وصار الإنجليز في موضع المنتصر، بل قد ظهرت القوة الأمريكية الصاعدة التي أنهت الحرب العالمية وأُسِدل الستار عليها باعتبارها المنتصر الأقوى الذي لم يستنزف ولم يستهلك في الحرب العالمية كما أنهك الإنجليز والفرنسيون والروس!

---

(١) مذكرات أمين الحسيني، ص٤٣ وما بعدها.

(٢) مذكرات أمين الحسيني، ص٧٣ وما بعدها، ١٠٩ وما بعدها.

وهنا تخلت بريطانيا عن الكتاب الأبيض في بيان لوزير خارجيتها بيفن (١٤ نوفمبر ١٩٤٥م)، وتدفقت موجتان يهوديتان كبيرتين أثناء الحرب العالمية الثانية (أكثر من ٩٠ ألفا) وبعدها (أكثر من ستين ألفا).

صار وضع الحاج أمين الحسيني أسوأ، وقد هرب إلى فرنسا وقبض عليه، لكنه استطاع الهرب، وجيئ به إلى مصر، ومنها حاول أن يقود المرحلة الأخطر في الجهاد الفلسطيني قبل وقوع النكبة والإعلان عن نشأة إسرائيل!

نكبة ١٩٤٨ والإعلان عن دولة إسرائيل

دخل الفلسطينيون إلى حرب ١٩٤٨ وهم يملكون ٩٤٪ من الأرض، ونسبتهم ٦٩٪ من سكان فلسطين، فخرجوا منها وقد استولت إسرائيل على ٧٨٪ من الأرض، وهجَّرت ثمانمائة ألف من السكان!

أوضاع البلاد العربية قبل ١٩٤٨

رسفت البلاد العربية في أوضاع بائسة بعد الحرب العالمية الأولى، وخضعت للاحتلال الأجنبي الذي أقام فيها حكومات تابعة له، وربما منحها استقلالا شكليا لا يسمن ولا يغني من جوع، بينما ظلت الهيمنة واليد العليا للإنجليز والفرنسيين، ومن الضروري الاطلاع على أحوال هذه الدول المحيطة بفلسطين لفهم قصتها.

☼ ☼ ☼

(١) مصر

عند نهاية الحرب العالمية الأولى كان قد مضى على مصر نحو أربعين سنة تحت الاحتلال الإنجليزي، وكان الإنجليز قد احتلوا مصر للحفاظ على نظام حكم أسرة محمد علي الذي أدخل مصر إلى التغريب وجعلها دجاجة تبيض ذهبا للأجانب. ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان من جملة الوعود التي أطلقها الإنجليز لتهدئة المصريين ونخبتهم وشراء الوقت: الوعد بالجلاء عن مصر. ولما تباطأ الإنجليز في ذلك وظهر عجز

السياسيين، اندلعت ثورة مصرية ضخمة هي ثورة ١٩١٩م، كادت أن تزلزل الوجود الإنجليزي، فعمل الإنجليز عبر كثير من الفصول على امتصاص هذه الثورة وتصنيع قيادة لها تابعة لهم، وقد كان، واستطاع سعد زغلول الذي كان من أخلص رجال الإنجليز في مصر أن يصير زعيما للثورة، فسحب الثورة من الشوارع وأدخلها في دهاليز المفاوضات التي انتهت إلى استقلال شكلي، ودستور يمنح الصلاحيات المهمة للملك، وبرلمان ذي صلاحيات محدودة، وبدأت في مصر (منذ ١٩٢٣م) ما يسمى بـ «الحقبة الليبرالية»، حيث الهيمنة الفعلية للإنجليز، وأتباعهم من المتغربين هم الذين يتحكمون في الصحافة والإعلام، وهم الذين يقودون هذه الأحزاب السياسية ويناضلون ـ سلميا ـ من أجل الاستقلال، وهو الأمر الذي عجزوا عن تحقيقه لثلاثين سنة تالية.

ترسخت في هذه الحقبة فكرة الدولة القومية، بمعنى: الوطنية المصرية العلمانية، فكان السياسي المصري لا يأبه ولا يحفل بقضية فلسطين[١]، بل وقد كان في مصر جالية يهودية متنفذة، وصحافة يهودية تؤيد الصهيونية (مثل: إسرائيل، والشمس، والاتحاد الإسرائيلي)، وصحافة تنطق بلسان الصهاينة وتروج لهم وإن لم تكن صهيونية، وكثيرا ما سعى السياسي المصري إلى الاستفادة من هذه الأوضاع فأعلن تعاطفه مع الحقوق اليهودية وأعلن استنكاره وإدانته للمقاومة الفلسطينية باعتبارها من مظاهر التعصب الديني والتطرف الفكري، فكانت قضية فلسطين من الأمور الخلافية التي تحتمل الرأي وضده لدى النخبة المصرية، وتحتمل إهمال الأمر برمته أيضا[٢]!

---

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ط٢ جديدة (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ص٣١٦.

(٢) ينظر: طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ص٣١٧ وما بعدها؛ عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، سلسلة عالم المعرفة ٢٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة، فبراير ١٩٨٠م)، ص١٥٤ وما بعدها.

وكثيرا ما كانت السلطة المصرية والنخبة المصرية تدعم الصهاينة دعما صريحا وتسجن الفلسطينيين والمتعاطفين معهم في وقائع عديدة، منها: اعتقال فلسطينيين هتفوا ضد بلفور الذي كان يزور مصر، وفي أثناء انتفاضة البراق (١٩٢٩م) اتخذت الحكومة المصرية ـ برئاسة محمد محمود ـ موقفا مضادا، وكانت الصحيفة الرسمية «السياسة» تهدد الفلسطينيين بالطرد بذريعة أنهم يثيرون الفتنة الطائفية ويهيجون الرأي العام[١]، ونَفَتْ بالفعل بعض الفلسطينيين كان منهم عبد القادر الحسيني[٢]. وفي (١٩٣٠م) أغلقت الحكومة ـ برئاسة إسماعيل صدقي ـ جريدة «الشورى» الفلسطينية[٣]، واعتبرت جريدة القصر (السراي) أن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين هو الحل لمشكلات فلسطين، إذ سيجلبون معهم الخبرة ورؤوس الأموال (وهذه هي الرواية الصهيونية بتمامها)، وزعمت الصحيفة أن المتطرفين بدؤوا يقتنعون بهذا الحل، وأن الفلسطينيين صاروا أكثر تقبلا لليهود بعد التعايش معهم[٤].

وأرسلت الحكومة المصرية ـ برئاسة أحمد زيور ـ رئيس الجامعة المصرية أحمد لطفي السيد ممثلا عنها لحضور افتتاح الجامعة العبرية[٥]، وأرسل طه حسين برقية تهنئة بهذه المناسبة، وزار القدس بعد ذلك استجابة لدعوة من الجامعة العبرية والحاكم البريطاني[٦]، وتحايل طه حسين على القوانين ليرسل طالبا مصريا لاستكمال الدراسة في الجامعة العبرية[٧]، وكان طه حسين وقتها من رواد الدعوة إلى النزعة الفرعونية المصرية[٨].

---

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ص٣١٦.
(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ١٦٨/٣.
(٣) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر، ص٣١٦.
(٤) عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، ص٩٢.
(٥) عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، ص٩٢.
(٦) سوزان طه حسين، معك (مذكرات زوجة طه حسين)، ترجمة: بدر الدين عروكي، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٥م)، ص٨٠.
(٧) سوزان طه حسين، معك، ص١٥٣.
(٨) أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ٧٥٥/٣ وما بعدها.

وشاركت الحكومة المصرية ـ برئاسة إسماعيل صدقي ـ في معرض تل أبيب الصهيوني (ربيع ١٩٣٢م)[1]. وقد اقترح الخديوي عباس حلمي الثاني وشدد في استعمال نفوذه على بعض الزعماء لإقناع أهل فلسطين بالصلح مع اليهود حتى لو تركوا بلادهم ورحلوا إلى شرق نهر الأردن[2]. وفي الإضراب الفلسطيني الكبير (١٩٣٦م) وافقت الحكومة ـ برئاسة مصطفى النحاس ـ على سفر مئات العمال المصريين إلى فلسطين لسد العجز الناتج عن الإضراب[3]. وأجاب رئيس الحكومة المصرية محمد محمود باشا على سؤال صحافي لدى زيارة إلى أوروبا (١٩٣٨م) عن نواياه في مسألة فلسطين، فقال: «أنا رئيس وزراء مصر، ولست رئيس وزراء فلسطين»[4].

وقد نُشِرت في مصر كتب تثني على الأمة اليهودية وتبشر بآمالها في العودة إلى فلسطين[5]، بل نشرت كتب تطلب مساندة الملك والسلطة المصرية في إقامة الدولة اليهودية وإنقاذ هذا الشعب اليهودي المسكين[6]، كما كان نَشْرُ كتابٍ عن فلسطين وما يحدث فيها من المذابح والدمار عملا محفوفا بالمخاطر يتعرض صاحبه للعقوبة، فيضطر إلى نشره بغير اسم وإلى توزيعه في غفلة من السلطة وإلى التعرض لبطش السلطة[7]، وكانت تصدر في مصر منذ (١٩٢٠م) صحيفة «إسرائيل» الناطقة باسم الحركة الصهيونية.

---

(١) عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، ص٩٢.

(٢) شكيب أرسلان، عروة الاتحاد بين أهل الجهاد، ط١ (الشوف: الدار التقدمية، ٢٠٠٩م)، ص٩٧، ٩٨.

(٣) عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، ص٩٦.

(٤) مجلة النذير، العدد ٩، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٣٥٧ (= ٢٥ يوليو ١٩٣٨م)، ص٦، ٧.

(٥) ينظر مثلا: كتاب المؤرخ اليهودي شاهين مكاريوس: تاريخ الإسرائيلين (صدر ١٩٠٤م)

(٦) ينظر مثلا: كتاب اليهودي إيلي ليفي أبو عسل: يقظة العالم اليهودي (صدر ١٩٣٤م)

(٧) مجلة النذير، العدد ٩، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٣٥٧ (= ٢٥ يوليو ١٩٣٨م)، ص١؛ محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، ط٥ (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٤م)، ١/١٧٥، ١٧٦.

وليس الغرض الآن تقييم موقف السلطة في مصر من قضية فلسطين، ولا تحليل اضطرابها صعودا وهبوطا، بل الغرض: القول بأن هذه القضية لم تكن قضية مبدئية صارمة وحاسمة، بل تنوعت وتعددت فيها المواقف، وفوق ذلك فقد اختلف فيها موقف نفس الطرف وفقا لمصالحه وحساباته ومناكفاته مع المنافسين الآخرين في السلطة أو في تيارات النخبة.

وفي النهاية، فإن الجيش والشرطة والقوى الضاربة والموارد الاقتصادية إنما كانت عمليا تحت هيمنة الإنجليز. ومهما كان الشعب المصري متعاطفا ومتضامنا ومستعدا للجهاد والتضحية في سبيل فلسطين فإنه لن يستطيع الحركة إلا في الحدود التي تتيحها السلطة الإنجليزية لذلك.

وباختصار، فقد «كانت مصر أحد المراكز الرئيسية للدعاية الصهيونية في العالم العربي»[1].

☼ ☼ ☼

(٢) الأردن

بعد أن انقشعت الحرب العالمية الأولى، لم يجد الشريف حسين شيئا مما وُعِد به من حلم الخلافة العربية على بلاد العراق والشام، وانتهت قصته البائسة أن مات منفيا في قبرص بلا ملك ولا إمارة، من بعد ما كان شريف الحجاز، ومن بعد ما وضع جهده وقواته في خدمة الإنجليز.

وأما ولده الأكبر عبد الله فقد اصطنع له الإنجليز بلدا بأن اقتطعوا له قطعة في الصحراء شرق نهر الأردن، حتى لقد أسموها اسمًا شاذًّا في عالم الدول وهي «إمارة شرق الأردن» التي تحولت فيما بعد (١٩٤٧م) إلى: المملكة الأردنية الهاشمية. وكانت قطعة أرض بلا موارد ولا قدرات بل وبلا مدينة واحدة تستحق اسم المدينة، وهذه الإمارة هي أدنى في كل

(١) عواطف عبد الرحمٰن، مصر وفلسطين، ص٨، ١٨، ١٩.

شيء من أن تكون دولة فضلا عن أن تكون مملكة!

ولقد ورث عبد الله من أبيه علاقة متينة بالإنجليز، وكان من أخلص رجالهم وأطوعهم في يدها، حتى وصفت علاقته بالإنجليز بأنها «حميمية فريدة لم يكن لها أي نظير»[1]، وأمده الإنجليز بالتمويل اللازم لتكوين جيش له وللإنفاق على نفسه وصناعة سلطته على القبائل العربية في هذه الأنحاء، فكان جيشه مكونا من قيادات إنجليزية حاولت أن تصنع لها من أبناء القبائل جنودا يمثلون «جيشا وطنيا»!! وكان على رأس هذا الجيش القائد الإنجليزي الشهير جلوب باشا.

لم يكن عبد الله قانعا بما أخذ، بل كان ساخطا على هذه الأرض الجرداء التي اقتُطِعت له بلا أية مؤهلات، ولقد ذهبت العراق إلى أخيه الأصغر فيصل بفعل الإنجليز، وذهبت منهم الحجاز بعد أن استولى عليها ابن سعود، وما كان ليفعل لولا أن سمح له الإنجليز بذلك ورفعوا أيديهم عن الشريف حسين وأبنائه، وفي الشمال كانت فرنسا تسيطر على سوريا. فمن ثَمَّ لم يكن ثمة منفس ومنفذ لأطماعه إلا أن يفكر في الاستيلاء على فلسطين لتوسيع مملكته أولا، ثم هو يحدوه الأمل أن يكون توسعه هذا خطوة في سبيل توسع أكبر في سوريا أو في العراق.. وكانت فلسطين هي البلد الوحيد الذي لا حكومة له[2]، ومن ثَمَّ فمن الممكن أن تكون جزءا من إمارته! وقد انتعش هذا الأمل في نفسه حين حصل على استقلال شكلي عام (١٩٤٦م)، وقد التزمت بريطانيا باستمرار تمويل جيشه، إذ لم تكن موارد البلد بقادرة على أن تُمَوِّل سلطةً في دولة!

ولكونه ضعيفا عاجزا لا قوة له، ولكونه مرتبطا بالإنجليز ارتباطا لا فكاك منه، فقد اتخذ لنفسه سبيل أن يكون العميل الأطوع والأفضل للإنجليز لعلهم يسمحون له بالتمدد إلى فلسطين. بل تنقل المراسلات أنه

---

(١) ماري ويلسون، عبد الله وشرق الأردن بين بريطانيا والحركة الصهيونية، ترجمة: فضل الجراح، ط١ (بيروت: قدمس للنشر، ١٩٨٧م)، ص١٣.

(٢) كما ذكرنا: فقد حرص الإنجليز على ذلك.

لما علم بنية الإنجليز الخروج من فلسطين أصابه الفزع من انقطاع الحبل الإنجليزي عنه حتى لقد فكَّر في ترك الحكم[١]، كما يفعل أدنى عميل ملتصق بالاحتلال إذا رحل!

وقد عاش عبد الله الثلاثين سنة التي هي فترة ملكه (١٩٢١ ـ ١٩٥١م) ليضرب مثلا خطيرا في الخيانة والتماهي التام الكامل مع المخططات الإنجليزية، بل ومع الصهيونية، فكان ملك الأردن كأحسن حاكمٍ إنجليزي وضعته بريطانيا لإدارة مستعمرة لها، وكانت له لقاءات وترتيبات مع قيادات صهيونية مثل بن جوريون وجولدا مائير وموشيه ديان وغيرهم، وقام بواحدٍ من أخطر الأدوار في تسليم فلسطين للصهاينة، وقد كان الحاكم العربي الوحيد الذي وافق على قرار تقسيم فلسطين، وذلك لأن البريطانيين وعدوه أن تكون الأراضي التابعة للعرب في قرار التقسيم تابعة له[٢]!

☼ ☼ ☼

(٣) سوريا

وضعت بريطانيا على حكم دمشق فيصل بن الحسين، لكن نكوص بريطانيا عن وعودها لفرنسا في اتفاقية سايكس بيكو جعل الفرنسيين يجتاحون سوريا، ويطردون فيصلا منها، فأخذه الإنجليز وجعلوه ملكا على العراق، ودخلت سوريا تحت الاحتلال الفرنسي منذ ذلك الوقت (١٩٢٠م) حتى نالت الاستقلال (١٩٤٦)، لكن حكومتها تمتعت بقدر من الاستقلال الذاتي تحت هيمنة الاحتلال منذ العام (١٩٣٦م) على نحو ما تمتعت به الحكومة المصرية بعد (١٩٢٢م)، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فغربت شمس الاحتلال الفرنسي الذي يمثل الاستعمار القديم، بضغط من الأمريكان ممثلي الاستعمار الجديد!

---

(١) ماري ويلسون، عبد الله وشرق الأردن، ص١٦، ١٧.

(٢) أفرد المؤرخ الفلسطيني البارز د. أنيس صايغ كتابا لمواقف الهاشميين وسياساتهم في قضية فلسطين، بعنوان: الهاشميون وقضية فلسطين.

وقد اندلعت منافسة بين نظامي الحكم في سوريا وفي الأردن، فملك الأردن يطمح إلى ضم سوريا إليه، فما زال يطارده حلم والده ـ أو بالأحرى: ما زال هو يطارد حلم والده الضائع ـ في دولة عربية كبرى تشمل الشام والعراق والجزيرة العربية. بينما النظام الذي حصل على استقلاله في سوريا ـ وإن كان شكليا ومنقوصا ـ ينفر من المَلَكية ويطمح إلى جمهورية مدنية وديمقراطية نيابية. والنظام السوري يرى أن الأردن ذاتها إنما هي قطعة جرى خلعها من سوريا وأنه ينبغي أن تعود إليها كما كانت، لا سيما وعبد الله معروف بخيانته، فحتى لو قبل السوريون الملكية فلن يقبلوا ملكا مشهورا بالخيانة(١)!

وحين بدأت أحوال فلسطين تتدهور، وذهبت الأحداث باتجاه إرسال الجيوش إلى فلسطين، كان عبد الله ملك الأردن يتخوف من أن تكون القوات السعودية والسورية قد أرسلت بغرض احتلال الأردن، لذا سارع في مطالبة العراق التي يحكمها أبناء عمومته بإرسال قواتها إليه تصديا لهذه المؤامرة! وكانت الدول العربية حينئذ أشبه بالمعسكرين: مصر والسعودية وسوريا في جانب، والعراق والأردن في جانب(٢)، ويد الإنجليز فوق أيديهم جميعا، إلا سوريا التي كان نظام الحكم فيها الأقل سوءا بين هذه النظم غير أنه أيضا يتخوف من احتلال إنجليزي لبلاده، إن هو اخترق خطوط السياسة الإنجليزية!!

هذه حال دول الطوق، ونرى من خلالها بوضوح كيف أنها كانت فعالة في دعم الوجود الصهيوني، وفي كسر شوكة الفلسطينيين وحرمانهم من مقومات المقاومة، فضلا عن مقومات تكوين الدولة. بل يمكن القول بأن الدولة الصهيونية ما كان لها أن تقوم ولا أن تستقر لولا هذه الأنظمة التي كانت تحكم البلاد العربية آنذاك، وسنرى بعد قليل كيف تفاعلت هذه الدول لتمكن للدولة الصهيونية في حرب ١٩٤٨.

---

(١) ينظر مثلا: الأمير عادل أرسلان، المذكرات، ٨٤٩/٢.

(٢) مذكرات فوزي القاوقجي، ط٢ (دمشق: دار النمير، ١٩٩٥م)، ص٣٣٣.

وخلف دول الطوق، لم يكن الحال في بقية البلاد العربية أحسن من هذا:

ففي العراق حكم الفرع الهاشمي الآخر وعلى رأسه فيصل بن الحسين، تحت الهيمنة الإنجليزية كذلك، بعد منحه استقلالا شكليا نتيجة ثورة العشرين (١٩٢٠م)، فقد جاء الإنجليز بفيصل بن الحسين المطرود على يد الفرنسيين من سوريا بعد إخماد ثورة العشرين، في سياق شبيه بما صنعوه في الثورة المصرية ١٩١٩م، وقد تعرض هذا الحكم الهاشمي لعدد من محاولات التحرر التي أخمدها الإنجليز، مثل انقلاب رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١م)، لكن في النهاية وقع انقلابٌ عسكري (١٩٥٨م) أزال هذا المُلك وأسس للجمهورية العسكرية في العراق. وما كان يمكن لهؤلاء ـ حتى لو فرضنا جدلا أنهم أرادوا فعل شيء لفلسطين ـ أن يفعلوا، كيف وقد كان الملك فيصل هو نفسه طرف الاتفاق مع حاييم وايزمان بإعطاء دولة لليهود ضمن الدولة العربية الكبرى الموعودة التي أغرت بها بريطانيا الشريف حسين، ثم غدرت به وخانت اتفاقها معه؟!

وفي السعودية حَكَم عبد العزيز آل سعود، وكانت علاقته بالإنجليز لا تقل متانة ولا قوة عن علاقة الهاشميين بها، بل الإنجليز هم من حددوا له حدود هذه المملكة، ثم هم الذين ساعدوه في إخماد حركة الإخوان حين كادت أن تتمرد عليه، فحتى لو كانت له رغبة في فعل شيء لفلسطين، فما كانت له قدرة على شيء وهو يحكم منطقة واسعة فسيحة قليلة السكان خالية من الموارد، (وذلك قبل أن يبدأ استخراج النفط، والذي جرى استخراجه على يد الشركات الإنجليزية والأمريكية أيضا).

وأما ما وراء هذه الدائرة من ممالك الخليج الضئيلة أو دول المغرب العربي، فلقد كانت واقعة كذلك تحت الاحتلال الأجنبي، ولئن كان أهلها يتحرقون شوقا وتعاطفا مع فلسطين، فإن ما بأيديهم أقل من أن يحقق لهم استقلالهم هم، فكيف بالوقوف أمام المؤامرة على فلسطين؟!

وفي كل هذه البلاد حكومات أحسن ما يقال فيها إنها ضعيفة عاجزة، وهي في حقيقة الحال تابعة للمحتل، وإنما تختلف في درجة التبعية والإخلاص لهذا المحتل.

قرار تقسيم فلسطين

خرجت بريطانيا منهكة من الحرب العالمية الثانية، وبمرونة واسعة نقلت الصهيونية نشاطها إلى القوة الصاعدة الجديدة: أمريكا، وبمرونة مماثلة بدأت العصابات الصهيونية حركة انشقاق ومقاتلة للإنجليز في فلسطين باعتبار أنها حركة تحرر تريد طرد المحتل الإنجليزي من فلسطين، وهي بذلك تتناغم مع الخطاب العالمي السائد حول حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو الخطاب الذي أطلقته وروجته القوى الجديدة الصاعدة: أمريكا والاتحاد السوفيني، لترث من خلاله مستعمرات الإمبراطوريات الشائخة (الإنجليز والفرنسيين). وكانت طريقة الأمريكان في الاستعمار جديدة، فهي تكتفي بالنفوذ والهيمنة والسيطرة غير المباشرة عبر حكومات تابعة دون أن تنزل بقواتها العسكرية على الأرض.

تلونت الصهيونية مع هذه الدعاوى، وصارت ذراع الأمريكان لإخراج الإنجليز من فلسطين، وتلفعت بثوب الحركة النضالية التحررية التي تهدف إلى مكافحة الاحتلال الإنجليزي[١]، فطالب مؤتمر الحركة الصهيونية الذي عقد في أطلنطا بأمريكا (١٩٤٤م) بضرورة خروج الإنجليز من فلسطين وتوفير حماية دولية لليهود، ثم أشعل الصهاينة حرب عصابات ضد الجيش البريطاني نفسه، وقاموا بعدة عمليات تفجير واغتيال وخطف مؤثرة، حتى بلغ القتلى في صفوف البريطانيين ١٦٩ بين عامي (١٩٤٦، ١٩٤٧).

وعند نهاية سنوات الانتداب كانت العصابات الصهيونية قد نفذت خمسمائة عملية ضد الإنجليز، وكم كان مثيرا مشهد تشرشل ـ الذي كان أول من درب العصابات اليهودية قديما ـ وهو يعلن مرارته ويحذر وينذر

(١) المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٩٣؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٢٩.

في الأمم المتحدة، ولكنه التحذير الذي يعرف الجميع أنه أجوف!

وبرغم كل هذا تكاد بريطانيا أن تكون التزمت الصمت ولم ترد بشيء مؤثر على الصهاينة، فقد صارت الصهيونية في الحماية الأمريكية، كما أن كثيرا من عناصر الشرطة والجيش الإنجليزي في فلسطين هم من اليهود والصهاينة أنفسهم. وذلك في نفس التوقيت الذي كانت تعتقل فيه الفلسطينيين لمجرد حيازة السلاح، حتى بلغ عدد المعتقلين ثلاثمائة في النصف الأول من عام (١٩٤٦م).

وعلى الجانب السياسي العالمي كانت الصهيونية تمول حملة الرئيس الأمريكي ترومان ـ ذي الميول الصهيونية المسيحية[(١)] ـ والذي كافأهم بعد فوزه بالموافقة على هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين. كما كانت الصهيونية في أمريكا تجمع من اليهود تمويلا لإنشاء صناعات عسكرية في إسرائيل، وبهذا صارت عصابات الهاجاناه تصنع بعض أسلحتها بنفسها مما قوَّى مركزها الفعلي حتى ضد البريطانيين.

وبهذا كان الوضع في فلسطين على هذا النحو:

١. محتل بريطاني قضى نحو ثلاثين سنة مهيمنا على هذه الأرض، يعاني من ضغط أمريكي بالخروج، ومن مقاومة فلسطينية، ومن مقاومة صهيونية كذلك.

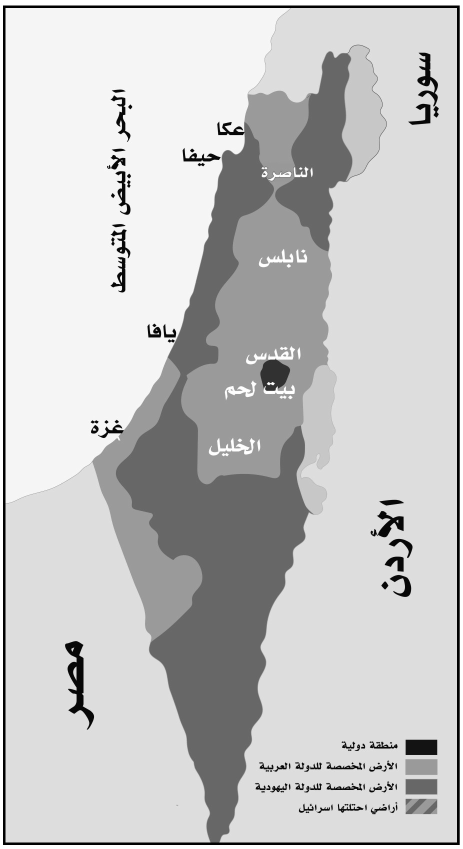
٢. ووجود يهودي قد تكاثر وتصاعد وصارت له فرق عسكرية ومؤسسات تعليمية وصناعية وإعلامية ونشاط تجاري يطالب بالتحرر من الاحتلال الإنجليزي، وله حلفاء دوليون على رأسهم القوة العظمى الصاعدة، وكذلك حلفاء محليون هي الأنظمة العربية المحيطة بفلسطين.

٣. وكذلك وجود الفلسطينيين أصحاب الأرض والبلاد الذين جرى إنهاكهم واستنزافهم بشدة عبر هذه الثلاثين سنة، وهم يطالبون بالتحرر من الاحتلالَيْن: الإنجليزي والصهيوني، ولكنهم بلا أدوات قوة وبلا حلفاء.

---

(١) ينظر في صهيونية ترومان: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٣٧ وما بعدها.

وبعد الحرب العالمية الثانية أقامت الدول المنتصرة فيها هيئة أممية يديرون العالم من خلالها، وتكون بمثابة الحكومة العالمية، فكان للدول الخمس المنتصرة (أمريكا، الاتحاد السوفيتي، بريطانيا، فرنسا، الصين) مكانة متميزة، فهي الدول ذات العضوية الدائمة، وهي التي لها حق النقض والاعتراض، فلو اتفقت الأمم على شيء واعترضت عليه دولة واحدة من هذه فإنه لا ينفذ.. كانت الأمم المتحدة هي وسيلة المنتصرين في الهيمنة على العالم، وهي غطاؤهم لجعل رغباتهم قانونا أو قرارا أمميا عالميا.



صُوِّرت القضية في الأمم المتحدة على أن فلسطين تعاني من مشكلة عربية يهودية، فكلا الشعبين يرى أن له حقوقًا تاريخية في هذه الأرض، وأعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين بحلول (مايو ١٩٤٨م) متنازلة عن صلاحياتها إلى الأمم المتحدة، وطُبِخ الأمر بحيث استخلصت هذه القوى الدولية عبر هذه المنظمة قرارا لتقسيم الأرض بين اليهود وبين العرب، (القرار ١٨١ في عام ١٩٤٧م)، ليعطى اليهود (٥٤,٧٪) من مساحة أرض فلسطين، ويعطى الفلسطينيين (٤٤,٨٪)، ويجعل منطقة القدس وبيت لحم منطقة دولية[١].

كان هذا القرارا غريبا وشاذا لأنه يُحَكِّم أناسا فيما لا يملكون بل وفيما لا يعرفون، فإن عددا من الدول التي أيدت القرار هي بعيدة ولا

(١) ينظر نص القرار في: ملف وثائق فلسطين، ٨٩٥/١ وما بعدها.

علاقة لها بفلسطين مثل هايتي والفلبين وجواتيمالا وليبيريا[1]!! ثم إن القرار يحكم في أوضاع بلد ومصائرها دون استشارة أهلها ولا سؤالهم ولا منحهم حق تقرير المصير!! ثم إن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة غير ملزمة حتى وفق ميثاق الأمم المتحدة نفسها!! فضلا عن أن النسبة التي أعطيت لكلا الطرفيْن غير منطقية ولا معقولة إطلاقا، فبعد كل هذه السنين من الهجرات اليهودية ومن عمليات شراء الأراضي والاستيلاء عليها كان الفلسطينيون يملكون (٩٠٪ من مساحة فلسطين و٨٠٪ من الأرض الصالحة للزراعة منها)، فكيف يكون الحكم في النزاع أن يُعطَوْا (٤٤٪) فقط؟!!

إذا تأملنا في الدول الكبرى التي صنَّعت هذا القرار واستخلصته عبر تصويت عدد من الدول عليه، سنرى أن بريطانيا هي صاحبة المشروع وراعيته منذ البدء، وأمريكا هي التي حملت الآن لواءه وصارت الأم البديلة له، وأما الاتحاد السوفيتي فقد توهم قادتُه أن الدولة اللقيطة قد تحمل الفكر الشيوعي وتكون سبيلها إلى النفوذ في هذه المنطقة ومنفذها إلى البحر المتوسط.

ولما صدر قرار التقسيم كان الموقف الرسمي العربي هو الرفض، إلا ما كان من الملك عبد الله ملك الأردن، فهو الذي وافق على هذا القرار طمعا في توسيع إمارته غربا ليضم إليها الجزء الذي جعله قرار التقسيم من نصيب العرب، وهو الأمر الذي يوافق هوى السلطة البريطانية

---

(١) بعض هذه البلاد كانت معترضة أو ممتنعة عن التصويت، وكاد القرار يفشل، لكن تغيرت مواقف هذه الدول بالضغوط والرشاوى التي بذلتها الدول الكبرى ورجال الأعمال اليهود؛ فهدية من الألماس ومعطف من الفراء النفيس لزوجات بعض الرؤساء كانت كافية لنقل الموقف السياسي، كذلك الوعد والوعيد بإغراءات أو تهديدات اقتصادية فعلت نفس الأمر. أي أن فلسطين وبلاد المسلمين كانت فريسة معروضة للجميع، فمن أراد الأكل نهش منها، ومن لم يرد باع نصيبه في الفريسة بمكاسب خاصة. ينظر: محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٥٩، ٦٠؛ جارودي، الأساطير المؤسسة، ص٢٢٨.

أيضا، وتبع ذلك انخراطه في رعاية ترتيبات هذا التقسيم وتنفيذه. ومن جهة أخرى، فقد كان استيلاء هذا الملك بالذات على الباقي من فلسطين هو أفضل الأوضاع للإنجليز وللصهاينة، إذ هو من أخلص رجالهم وأسلسهم في التعاون معهم. ولذلك كان الفلسطينيون يرفضون هذا الضم، فما هو إذن إلا خروج من الاحتلال البريطاني المباشر إلى الاحتلال البريطاني غير المباشر[١].

ولكن هذا الموقف الرسمي العربي الرافض للتقسيم كان مجرد كلام، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وحتى لو صحَّ أن بعضهم كان صادقا فإن هذا الموقف كان خاليا من قدرة حقيقية تحيله إلى عمل، ذلك أنه صادر عن حكومات عربية تابعة للمحتل الإنجليزي، ولا تتمتع سوى باستقلال شكلي، ثم إن المؤسسة التي تنسق فيها المواقف العربية وهي الجامعة العربية كانت ضعيفة في نفسها، وإنما أنشئت لخدمة الأهداف البريطانية وهي واقعة تحت هيمنتها، وفوق ذلك فإن القوات العربية ضعيفة عددا وتسليحا لا يمكنها أن تواجه القوات البريطانية التي تسيطر على فلسطين بالفعل، كما أنها لا تمتلك المعلومات الكافية لا عن الأرض ولا عن العدو الصهيوني، وليست لها قيادة موحدة ولا شبه موحدة.

ما من ريب في أن بعض شخصيات الجامعة العربية كانت إسلامية وعروبية ووطنية، ولكن السلوك النهائي لما فعلته الجامعة العربية إنما كان في حقيقته دعما وتسهيلا بل وتمكينا للدولة الصهيونية، وقد التزمت الجامعة بحدود السياسة البريطانية التي رفضت دخول أي قوات عربية إلى فلسطين إلا بعد يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، وهو الموعد المقرر لانسحاب القوات البريطانية.

وبالتوازي مع هذا كله، فقد بدأت عملية وراثة فلسطين من الإنجليز، اشترى اليهود من أسلحة الإنجليز بالمال ما لم يأخذوه بطريق الدعم،

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٨٧، ٨٨.

فكانت لديهم ٢٤ طائرة اشتروها بخمسة ملايين جنيه. وعند بداية ١٩٤٨ كانت الوكالة اليهودية تسيطر فعليا إداريا وعسكريا، ولديها جيش مقاتل يتكون من: عصابات الهاجاناه (٣٥ ألفا) وعشرة آلاف مقاتل من الوحدات الخاصة، فضلا عن تنظيمات أشد تطرفا مثل عصابات الأرجون وشتيرن.

وفي المقابل فما كان المجتمع الفلسطيني يملك شيئا من هذا كله، كيف وهو قد استنزف تماما في الثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)، وكان ممنوعا من حمل السلاح، ولم ينل حظا من التدريب العسكري، ولا له ظهير سياسي أو عسكري من الدول المحيطة. إن الأمر الوحيد الذي يملكه الفلسطينيون للدفاع عن أنفسهم هو: بسالتهم، فإذا بالذين ينضمون إلى منظمات جهادية لا يجدون سلاحا فيقتصر تدريبهم على التمارين الرياضية والدروس النظرية فحسب[١].

يمكن أن نضيف أمرًا ثانيا يملكه الفلسطينيون إلى جوار البسالة، وهو: أمدادٌ بشرية من العرب والمسلمين الذين يمكن أن يتطوعوا إلى جانبهم في هذا القتال! ولكن هذا هو الأمر الذي ستعمل الأنظمة العربية والدولية على سلبهم إياه كما سنرى.

لكن قرار تقسيم فلسطين، الذي زعم أنه ابتغى صنع السلام، لم يفعل سوى أن فرض حربا، فاليهود سيقاتلون لاستخلاص الأرض التي قُسِمت لهم وطرد أهاليها العرب، والعرب سيقاتلون لمنع اليهود من هذا الاستيلاء.

وقد أدى الإنجليز خدمتهم الأخيرة للدولة الصهيونية، فهم قد زعموا أنهم سينسحبون عند مايو ١٩٤٨م، وأنهم سيبطشون بأي اعتداء على القوات البريطانية حتى تلك اللحظة، إلا أنهم دبَّروا تسليم المدن قبل هذا التاريخ للصهاينة ضمن تسلسل متفق عليه، فصار الفلسطينيون ـ ومن ورائهم العرب ـ يستيقظون على رحيل قبل الموعد، وعلى استيلاء يهودي على

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٩، ٣٠.

المدن ومقرات الحكم والإدارة فيها، فيصير اليهود في حالٍ أفضل وأقوى لخوض معركة الاستيلاء وطرد السكان.

الانسحاب الإنجليزي وتسليم البلاد لليهود

في اجتماع بتاريخ (١٠ مارس ١٩٤٨م) لقيادة الهاجاناه، أي قبل نهاية الانتداب البريطاني بشهرين، أتموا الخطة التفصيلية للتعامل مع كل قرية فلسطينية يُراد تهجيرها، وكانت الخطة تعتمد على الرعب أكثر من اعتمادها على التفوق العسكري، فلا بد من مذبحة أو ضربة هائلة تسفر عن خروج السكان من هولها قبل أن ينخرطوا في اشتباك أو مقاومة، وإذا وقع بعضهم في الأسر كانوا يقتلون بعضهم قبل نقلهم إلى معتقلات مركزية لتحقيق هدف الرعب وشل محاولة المقاومة، وإذا حوصرت القرية فهي تُحاصر من ثلاث جهات وتُقصف بغزارة ليهرب أهلها من الجهة الرابعة. وكانت خطة التهجير تبدأ من ساحل المتوسط وتمتد شرقا لكي يظل اتصال الدولة اللقيطة بالبحر، فكان أول المهجرين هم أهالي القرى والمدن الشمالية والغربية من فلسطين، ويقدر عدد المهجرين بثلاثمائة وخمسين ألف فلسطيني!

تنوعت عمليات العصابات الصهيونية بين الهجوم العسكري على القرى وتهجيرها، أو تفجير الأسواق والمحال والسيارات، أو نصب الكمائن على الطرقات وقتل الفلسطينيين، أو تنفيذ عمليات خاصة قامت بها وحدات المستعربين التي ظهرت في تلك الفترة، وفي بعض الأحيان لوّثت العصابات الصهيونية موارد المياه بالجراثيم، وفي أحيان أخرى أحرقت الأهالي أحياء[١].

ومن المؤكد أن المقام لا يتسع لرواية ولو جانب بسيط من هذه التفاصيل المريرة والمؤلمة والمروعة، ولكن يجب على كل عامل لهذا الدين أن يتزوّد بهذا النوع من المعرفة فإنه يصنع ضميره ومشاعره

(١) للتوسع، ينظر كتاب المؤرخ اليهودي: إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين.

ووجدانه، وهو أمر لا يقل أهمية ـ بل كثيرا ما يفوق ـ صناعة وعيه وعقله. ولئن كنا في هذه الأوراق نستهدف جانب الوعي والعقل، فيجب أن نؤكد في الوقت نفسه على ضرورة أن يطلع العامل للإسلام على جانب من هذه التفاصيل التي توضح له بجلاء وتبرهن له على طبيعة عدوه ومدى ما يصل إليه من التوحش والقسوة والاستكبار! لقد افتخر مناحم بيجين بأن مذبحة دير ياسين كان لها الفضل في بث الرعب في بقية المناطق، وهي التي جعلت سقوط حيفا سهلا مثل «مروق السكين في الزُبْدة»(١).

سقطت حيفا في إبريل (١٩٤٨م)، أي قبل شهر من موعد الانسحاب البريطاني، بتنسيق بين الإنجليز واليهود، ولحيفا أهمية خاصة لكونها مدينة تجارية نشطة بفعل مينائها الشهير ومصفاة تكرير البترول، وبلغت الكتلة العربية فيها أكثر من ٧٠ ألفا، وقد بدأت الهجمات اليهودية عليها منذ ديسمبر ١٩٤٧م، ثم تكثفت مدعومة بالمدفعية والقوات الجوية في إبريل ١٩٤٨م، لتنتهي الكتلة العربية فيها بعد القتل والتهجير إلى حوالي ثلاثة آلاف أو أربعة! وبعدها بأيام سقطت يافا التي بدأ الاستيلاء على نواحيها في (٢٧ إبريل ١٩٤٨م)، فإذا سقطت ناحية نصبت العصابات اليهودية المدافع منها لتصب وابلا على بقية المدينة، التي لم يجد أهلها سبيلا سوى الخروج، ولم يبق من كتلتها العربية التي كانت سبعين ألفا سوى أربعة أو خمسة آلاف!

وبأشكال شبيهة أو قريبة سقطت المدن الأخرى مثل: صفد وبيسان ومناطق الجليل وغيرها. وكان الثابت في هذا كله أن الانسحاب البريطاني من هذه المدن جرى قبل موعده، بالتنسيق مع العصابات اليهودية، وكانت بريطانيا قد منعت دخول القوات العربية إلا بعد يوم انسحابها في ١٤ مايو ١٩٤٨م، وكانت وحدات جيش الإنقاذ (جيش المتطوعين العرب) على النحو الذي سنأتي إليه بعد قليل، وبهذا كانت المؤامرة تامة على الشعب الفلسطيني الأعزل المستنزف الذي أنهكت قواه، والذي لم تكن عنده أدنى

(١) Menachem Begin, The Revolt, p. 165.

الفرص والوسائل التي تمكنه من الدفاع عن نفسه أمام عشرات الآلاف من العصابات الصهيونية المدربة والمدججة بالسلاح!

وفي كل قصة سقوط مدينة، أو مذبحة في قرية، تتدفق أمواج الفارين واللاجئين سواء من المدن التي سقطت أو القرى التي هُدِمت وذبح أهلها، أو ممن رأوا في هذا السقوط وهذه المذبحة نذيرا لهم فخرجوا قبل أن يتعرضوا للمصير نفسه مع انعدام الوسيلة وانعدام النصير[١]. وهامت الأمواج البائسة على وجهها إما إلى الضفة الغربية أو إلى غزة أو إلى لبنان وسوريا، بحسب ما تيسر وأمكن، أو هاموا على وجوههم إلى غير وجهة محددة، وفي الطريق مات الكثيرون من العجز أو المرض أو الجوع أو البرد أو لدغة عقرب أو أفعى، فمن كان حَسَنَ الحظ استطاع أن يحتمي في مغارة أو كهف أو تحت صخرة، وأكثرهم لم يجد!

وعند يوم ١٤ مايو ١٩٤٨م، غادر الحاكم البريطاني فلسطين، ونزلها بن جوريون، وأعلن «استقلال» دولة إسرائيل، وخلفه كانت تنتصب صورة كبيرة للمنظر المؤسس: تيودور هرتزل، الذي بذر البذرة ومات بعد ثمان سنوات، ثم تحقق حلمه بعد موته بأربعين سنة!

وبه تحقق الوعد القرآني القديم باجتماع اليهود مرة أخرى في الأرض المقدسة ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ فلسطين والعرب والمسلمين بل والعالم!

النكبة في ١٩٤٨

مع كل ما قدمته الإمبراطورية البريطانية العظمى من خدمات للصهاينة طوال ثلاثين سنة، فلم يكن استيلاء الصهاينة على البلاد نزهة ولا كان

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٢ وما بعدها.

بالأمر السهل، ولقد لقي هذا مقاومة عنيفة من جانب الفلسطينيين على رغم كل ما كانوا فيه من أوضاع قاهرة وظروف عسيرة وموارد قليلة وتواطؤ دولي وعربي عليهم.

ولكي نبسط تاريخ هذه الحقبة المتوترة والمتكدسة بالتفاصيل المتداخلة، فيمكن الحديث عن ثلاث مستويات للمقاومة:

١. المقاومة الفلسطينية، وقد برز فيها حركة «الجهاد المقدس» التي قادها عبد القادر الحسيني.

٢. جيش الإنقاذ، الذي أنشأته الجامعة العربية لتنظيم المتطوعين للجهاد في فلسطين.

٣. الجيوش العربية الرسمية التي دخلت إلى فلسطين بعد رحيل الانتداب البريطاني، وخاضت حرب ١٩٤٨.

ويجب ملاحظة أن هذه المستويات الثلاثة، منفردة ومجتمعة، لم تكن تملك لا من السلاح والذخيرة، ولا من التدريب والخبرة العسكرية، ولا من الأموال وطرق الإمداد، ولا حتى من الظهير السياسي مثلَ ما كانت تملكه العصابات الصهيونية، فحتى الجيوش العربية الرسمية كانت هزيلة العدد والعدة، بغير تجارب عسكرية سابقة، وهي خاضعة لأنظمة خاضعة للاحتلال الأجنبي عمليا.

كذلك ينبغي ملاحظة أن أهل فلسطين قد حُرِموا في الواقع من الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم، مع أنهم كانوا يفضِّلون أن يتولوا هم بأنفسهم عبء هذه المقاومة إذ هم الأعرف بالبلاد وبالعدو، ويكفي أن تؤمِّن لهم الدول العربية الأموال والأسلحة اللازمة[١]، كما أن في هذا الاقتصار على الفلسطينيين ثمرة سياسية، إذ هي تنزع من الدعاية الصهيونية ذريعةً وحجةً تستجلب لهم المزيد من الأموال والعتاد والرجال حين يُصَوِّرون أنفسهم

---

(١) عارف العارف، نكبة فلسطين، ١/١٤، ١٥؛ بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ١/١٤٦، ١٤٧؛ محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص٩١، ١٦٩.

كدولة صغيرة تسعى إلى الاستقلال، فتهاجمها الدول العربية الكبيرة حجما وعددا وعدة، ولم يكن هذا صحيحا، فلقد كانت العصابات الصهيونية ـ كما سنرى بعد قليل ـ أكثر عددا وعدة من مجموع الجيوش العربية. إلا أن الجامعة العربية والأنظمة الرسمية حرصت على ألا تترك لأهل فلسطين هذا الأمر، بل اندفعت بنفسها فيه، فزادته سوءا وخبالا، حتى إن الناظر إلى التاريخ ليرى أن السياسة العربية والجيوش العربية ما قامت في هذه الفترة إلا بدورٍ أساسي في التمكين لإسرائيل وترسيخ وجودها(١).

ثم ينبغي ملاحظة أن المجتمع الفلسطيني حُرِم من وجود قيادة سياسية في أرضه، ويرى البعض أن من أخطاء هذه الفترة أن الحاج أمين الحسيني، وهو الزعيم السياسي الوحيد الذي يُسَلَّم لزعامته، كان يجب أن ينزل بنفسه إلى فلسطين في تلك الفترة، ولئن كان الملك فاروق قد منعه، فلقد كان واجبا عليه أن يحتال على هذا المنع ما استطاع(٢).

☼ ☼ ☼

(١) الجهاد المقدس

كانت محاولة عبد القادر الحسيني لتنظيم الجهود الشعبية لتكوين مقاومة مسلحة هي أكثر الجهود نجاحا في تاريخ المقاومة الفلسطينية منذ الثورة الفلسطينية الكبرى، وكان عبد القادر من الأسماء البارزة في هذه الثورة، وأصيب فيها، وقُبِضَ عليه ثم تمكن من الهرب، وتنقل بين البلدان العربية والأوروبية.

وفي صيف ١٩٤٦ اجتمع عبد القادر الحسيني في القاهرة بابن عمه المفتي أمين الحسيني، الذي كان بمثابة القائد السياسي للفلسطينيين، وكان أمين الحسيني قد خرج هاربا من فلسطين وتنقل بين العديد من البلدان

---

(١) مذكرات أمين الحسيني، ص١٠٣؛ عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٣٥.

(٢) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية، ط٢ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٥)، ص٢٣؛ عوني فرسخ، التحدي والاستجابة، ص٨٧٣، ٨٧٤.

وحاول نسج علاقات مع دول المحور ليقابل بهم رغبة دول الحلفاء في إنشاء دولة صهيونية، لكن هزيمة هذه الدول في الحرب العالمية الثانية قَضَتْ على أحلامه، وظل هاربا مُطاردًا من اليهود والحلفاء حتى انتهى به المقام في القاهرة، وهناك اجتمعت الهيئة العربية العليا، وجرى الاتفاق على تشكيل المقاومة المسلحة التي سميت «الجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني.

طاف عبد القادر الحسيني على القرى، واستطاع بما له من سمعة طيبة ومن علاقات أن ينظم عددا كبيرا من الشباب، سواء للأعمال العسكرية أو لأعمال حماية القرى وإدارتها، بالاتفاق مع أعيانها، وانقسم تنظيم «الجهاد المقدس» إلى عدة وحدات؛ وحدة لتنفيذ المقاطعة ومكافحة المتعاملين مع اليهود، فكانت تنذرهم فإن لم يستجيبوا أحرقت مخازنهم وبيوتهم وبضائعهم. ووحدة لمقاومة بيع الأراضي فكانت تنذر السماسرة فإن لم يستجيبوا اغتالتهم. ووحدات أخرى تقسم العمل العسكري بحسب المناطق، ووحدات أخرى تتولى الأعمال المساعدة، ووحدة أمنية استخبارية لجمع المعلومات.

اتخذ جيش الجهاد المقدس مقر قيادته في مدينة القدس، حيث أهم المستعمرات الصهيونية، وحيث القدس هي قلب الصراع في فلسطين، وهي ميزان المعركة الحقيقية التي تحدد مصير الدولة اللقيطة الموعودة، وفي القدس وما حولها دارت أهم معارك جيش الجهاد المقدس الذي كان يتميز بأمور افتقدها جيش الإنقاذ (الذي خصص لجمع المتطوعين العرب) ثم الجيوش العربية الرسمية، وأهمها: قيادة مخلصة ذات كفاءة، جنود من أهل البلد وهم أعرف بالأرض والسكان وطبيعة المناطق، وهم كذلك أعرف بالعدو.

خاض جيش الجهاد المقدس عددا من المعارك المهمة، وأبدى من البطولة والبسالة ما يفوق إمكانياته بكثير، وانتصر في معارك فاصلة على قوات تفوقه عددا وعدة، إلا أنه في النهاية لم يستطع أن يعرقل مسيرة

الدولة الصهيونية المدعومة بالقوى الدولية، لسبب بسيط، وهو أنه قد قاتل حتى نفدت منه الذخيرة، وحتى فقد قياداته شهداء ومعتقلين.

وكانت المؤامرة عليه لها ضلع عربي خطير، فقد عملت الجامعة العربية منذ البداية على تعويق وعرقلة جهاد عبد القادر الحسيني، وحاولت السيطرة عليه وإخضاعه لسلطتها، إلا أنه انفلت عنها وكوَّن تنظيمه «الجهاد المقدس»، غير أنه كان محتاجا للأموال والذخائر، ومن ثَمَّ فقد كان مضطرا للتواصل مع الجامعة العربية، فأثمرت الوساطات عن دعمه لكن ضمن شروط، منها ألا يجمع الأموال من القرى، وألا يتجاوز عمله منطقة القدس، وأمور أخرى استهدفت تعطيله وحاول هو الالتفاف عليها.

كذلك فقد وقف جيش الإنقاذ في مواجهة عبد القادر الحسيني، ولم يكن متعاونا ولا مستجيبا لطلباته في الإمداد بالسلاح أو الذخيرة، وقد كانت الزيارة الأخيرة لعبد القادر الحسيني إلى قيادة جيش الإنقاذ في دمشق ليطلب مددا من الذخيرة والسلاح، إلا أنهم لم يستجيبوا له، بل عاملوه بوقاحة، وهناك سمع بنبأ سقوط قرية القسطل المهمة للغاية، لوقوعها على الطريق بين يافا (حيث الميناء الذي تأتي منه الإمدادات) وبين القدس (حيث أهم المستعمرات والكتل الصهيونية)، فعاد من فوره لتحرير هذا الموقع المهم، واستطاع بالفعل تحريره، إلا أنه سقط شهيدا في هذه المعركة، ليكون استشهاده أهم ضربة قاسية نزلت بجيش الجهاد المقدس[1]، وقد ترك آخر رسائله، قبل استشهاده بيومين، تقول: «السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية: إني أحملكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح».

وبعد استشهاد عبد القادر بيوم واحد، وحين كانت جنازته تشيَّع، كانت تجري مذبحة دير ياسين (٩ إبريل ١٩٤٨م).

☼ ☼ ☼

(١) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢٨.

(٢) جيش الإنقاذ

تدفق الشعور الشعبي العربي والإسلامي للجهاد في فلسطين، وكانت الموجة أعلى من أن تُصَدَّ أو تُخْمَد من قِبل الأنظمة العربية، لذلك فقد عملت هذه الأنظمة على امتصاص هذه الموجة الشعبية، من خلال الإعلان عن تشكيل «جيش الإنقاذ» الذي يمكن لمن شاء من المتطوعين الانضمام إليه. وبدأت فصول مؤامرة جديدة على الشعوب العربية من خلال هذا الجيش!

أول فصول المؤامرة هو حظر التطوع لأي هيئة إلا تحت قيادة هذا الجيش، وحظر الانخراط في كتائب خاصة تحت قيادة الجيش، مما أفقد الهيئات التنظيمية القدرة على الاستفادة من فاعلية تنظيماتها وانسجامها، ومن لم يرض بهذا وانفلت منهم عاقبوهم بمنع السلاح والذخيرة عنهم، مما أعاق قدرتهم على استيعاب المتطوعين في ظل شح السلاح[1].

اتخذ هذا الجيش قيادته في دمشق، وكان على رأسها ثلاثة من الرجال ذوي الخبرة والتاريخ، إلا أنهم ظهروا في هذه الحرب بمظهر بائس رثٍّ ضعيف، يتناقض مع تاريخهم تناقضا فجًّا، وخاضوا المعركة بأداء كارثي، وتصرفوا في هذا الوقت كأنهم جيش نظامي لا جيش متطوعين، وعملوا كأنما هم جزء من المؤامرة الإنجليزية على فلسطين! أولئك الثلاثة هم: إسماعيل صفوت وطه الهاشمي وفوزي القاوقجي.

١. فأما إسماعيل صفوت، فخبير عسكري عراقي، تدرج في الرتب العسكرية، ولم أقع له على تميّز خاص عُرِف به، وإنما سيرته سيرة عسكري تقليدي، غير أنه شارك في ثورة العشرين.

٢. وأما طه الهاشمي، فخبير عسكري عراقي، عُرف بالتآليف الكثيرة ذات القيمة العظيمة في فن الحرب وتاريخها، لا سيما في جغرافية الحروب والمدن، وله تاريخ في خوض الحروب، وتدرج في الرتب

(١) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٩ وما بعدها.

العسكرية حتى كان وزيرا للدفاع في العراق (١٩٣٨م)، ثم رئيسا للوزراء (١٩٤١م)، وقد كان في الستين من عمره في عام (١٩٤٨م)، فلا تنقصه الخبرة ولا التجربة.

٣. وأما القاوقجي، وهو الآن (أي: ١٩٤٨م) قد قارب الستين، فخبير في حروب العصابات، إذ هو مناضل قديم قاتل الإنجليز في البصرة، وقاتل في صفوف العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، ثم قاتل الفرنسيين حين اجتاحوا الشام واستولوا عليها في معركة ميسلون، وكان قائد الثورة في حماة ضد الفرنسيين، ومن قادة ثورة الشام في العشرينات ضدهم، وحياته تشبه أن تكون ثورة دائمة وكفاحا مستمرا، فكلما سمع هيعة هُرع إليها، حتى نزل متطوعا إلى فلسطين ليشارك في الثورة الكبرى (١٩٣٦م)، وشارك في محاولة الانقلاب التي قادها رشيد عالي الكيلاني، وتنقل كثيرا في دروب الجهاد حتى عاد إلى الشام مع بوادر الحرب في ١٩٤٨م[١].

وكلا الرجلين ـ إسماعيل والهاشمي ـ ليسا من أهل حرب العصابات ولم يدخلا فلسطين ولا يعرفانها[٢]، كذلك لم تكن العلاقة بين هؤلاء الثلاثة سليمة، بل شملتها المخاوف والشكوك التي ألقت بآثارها على المعارك ونتائجها[٣].

لكن الخلاف الأخطر والأشد ضررا هو ما كان بين قيادة هذا الجيش وبين زعيم فلسطين الحاج أمين الحسيني، إذ المفتي عدو للنظام الهاشمي في الأردن والعراق، فأما العداوة لعبد الله ملك الأردن فمفهومة إذ هي معركة بين عميل للإنجليز (عبد الله) ومقاتل لهم (أمين الحسيني)، ثم هما

---

(١) للمزيد عن سيرة فوزي القاوقجي، ينظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٤٨٠/٣ وما بعدها.

(٢) طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي، تحقيق: خلدون ساطع الحصري، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨م)، ١٧٦/٢.

(٣) ينظر مثلا: مذكرات فوزي القاوقجي، ص٣٣٥، ٣٣٧؛ مذكرات طه الهاشمي، ١٨٨/٢.

متنافسان على الأرض نفسها، وأما عداوته للنظام الهاشمي في العراق فلذات السبب غير أن الحسيني ساهم أيضا في محاولة الانقلاب الفاشلة على النظام العراقي التي قادها رشيد عالي الكيلاني للتخلص من النفوذ البريطاني، وكلا الرجليْن: الهاشمي وصفوت من رجال النظام العراقي، وإنما شُكِّلَتْ القيادة على هذا النحو من الجامعة العربية لاستبعاد المفتي ورجاله في المقام الأول، ضمن سياسة الجامعة في منع الفلسطينيين من الدفاع عن أنفسهم. والمفتي من جهته كان يرى التعويل على أهل فلسطين وتسليحهم وتدريبهم، والأمر لا يحتاج إلى تدخل كتل عسكرية نظامية، ولو فُرِض بأن الحاجة قامت لهذا فينبغي إدخال المتطوعين تحت قيادة المفتي وابن عمه القائد الميداني عبد القادر الحسيني، إذ أهل فلسطين أعرف بها وهم أشد حاجة إلى السلاح والمال والتدريب منهم آنذاك إلى الرجال[1]. لقد أدى هذا الخلاف بين قيادة جيش الإنقاذ وبين المفتي ورجاله إلى آثار في غاية السوء، زاد من سوئها أن الوقت حَرِجٌ لا يحتمل أدنى خلاف.

فتح هذا الجيش صفوفه للمتطوعين، وتدفق المتطوعون حتى وُصِف بيت قائده فوزي القاوقجي أنه كان لا يتوقف عن استقبال المتطوعين ساعة من نهار! غير أن السلاح الذي أرسلته «الجامعة العربية» لم يكن كافيا، «بضع مئات من البنادق لأجل عشرات الآلاف ممن كان يمكن تعبئتهم من بيننا لخوض المعركة، وكانوا يحتجون على سبيل التبرير بأنهم قد ألزموا أنفسهم بأن يضطلعوا هم بتحرير فلسطين»[2].

كان جيش الإنقاذ من جهةٍ مشلولا بالإمكانيات التي ترسلها إليه الأنظمة العربية، من الأموال والعتاد، وبالتوقيت أيضا، وبالصلاحيات الممنوحة له كذلك، إذ ليست له سلطة مستقلة، ولذلك تشيع في كتابات قادته تحميل المسؤولية لهذه الأنظمة وسياساتها وتأخرها وبطئها ونوعية ما أتاحته من عتاد، فضلا عن اضطراب الهدف من تكوينه: هل هو دعم أهل

---

(١) مذكرات طه الهاشمي، ١٨١/٢ وما بعدها.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٥.

فلسطين؟ أم خوض معركة مع الصهاينة؟ أم إبقاء الحالة ساخنة ريثما تدخل الجيوش العربية[١].

ثم إن جيش الإنقاذ من جهة أخرى ارتكب عددا من الأخطاء بهذه الإمكانيات والصلاحيات التي تحصَّل عليها، وهي الأخطاء التي يختلف شهود العيان والمؤرخون ما إن كانت أخطاء غير مقصودة، أو مؤامرة وخيانة، أو أن بعضها كان من هذا القبيل أو ذاك، ونحن هنا نسردها دون أن نتعرض لتحليلها، لأن المقام لا يتسع لذلك:

١. استقبال عدد قليل من المتطوعين وإغلاق باب التطوع بذريعة أن العدد أكبر بكثير جدا من المطلوب، مع وعد بفتح باب التطوع مجددا إذا احتاج الأمر إلى متطوعين.

٢. انتقاء المقاتلين من فئات غير نافعة، بل تعمد انتقائهم من العامة وذوي السوابق في الجرائم أو البطالين، فما كادوا يدخلون البلاد حتى تعددت حوادث السلب والنهب والتعدي على الأعراض والمتاجر[٢]. بل وقعت بينهم اشتباكات داخلية بالسلاح[٣]، وكان أخطر ما وقع بسبب هذا الانتقاء السيئ أن كان في صفوف جيش الإنقاذ جواسيس من اليهود ومن العملاء العرب العاملين لحساب اليهود[٤]!

٣. السير في تدريب المتطوعين على هيئة الجنود النظاميين، لا على هيئة المتطوعين، مما جعل الأمر بطيئا ورتيبا لا يناسب تسارع الأحداث[٥].

---

(١) ينظر مثلا: مذكرات طه الهاشمي، ١٧٧/٢ وما بعدها، ١٨٣ وما بعدها.

(٢) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٩، ١٠؛ كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ط٣ (الزرقاء: مكتبة المنار، ١٩٨٤م)، ص٢٨؛ عارف العارف، نكبة فلسطين، ٢٤٧/١.

(٣) مذكرات فوزي القاوقجي، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٤) عارف العارف، نكبة فلسطين، ٢٤٧/١، ٢٤٨.

(٥) مذكرات فوزي القاوقجي، ص٣٣٦.

٤. دفع المقاتلين بغير خطة ولا تنظيم ولا ترتيب في العديد من المعارك، فكانت حركة الهجوم والانسحاب حركة عشوائية، لا تثمر نصرا، بل تضر أكثر مما تنفع! بل كان بعضهم يملك أن يجلس على المقاهي تاركا الثغور وجبهات القتال إلى جواره[١].

٥. اقتصار عمل جيش الإنقاذ على المناطق التي خصصها قرار التقسيم للعرب[٢]، فكان عمله في مناطق غير معرضة للتهديد، وكان فوزي القاوقجي يقيم في نابلس، ولم يمد يد العون لإغاثة المدن التي جعلها قرار التقسيم من نصيب اليهود، فسقطت أمامه يافا وحيفا دون أن تجد من يدافع عنها، وكذلك لم تتحرك هذه القوات لإنقاذ بلدة كدير ياسين رغم قرب مواقعها منها[٣]!

٦. الامتناع عن التعاون الفعال مع عبد القادر الحسيني، وعن إمداده بالأسلحة التي يحتاجها مقاتلوه في لحظات حاسمة وشديدة الحرج، مما ترتب عليه انهيار جبهات كان جيش الجهاز المقدس يتولى حمايتها والدفاع عنها[٤].

٧. الامتناع عن التعاون مع فصائل متطوعة أخرى، ومنع إمدادها بالذخيرة اللازمة في خضم دفاعها عن القدس، كما فعل طه الهاشمي[٥]،

---

(١) ذكر الشيخ مصطفى السباعي أنه رأى ميشيل عفلق وصلاح بيطار (مؤسسا حزب البعث السوري) يجلسان على مقهى، فنهرهما أنهما خرجا كمتطوعين للقتال ثم يجلسان على المقهى، وأخذهما إلى جبهة قتال، فأما عفلق فمشى معه مسافة ثم أمسك، وأما صلاح بيطار فتقدم أكثر ثم خاف وأمسك أيضا! ينظر: عدنان مسودي، إلى المواجهة، ص٥٧، ٥٨.

(٢) ورد في مذكرات طه الهاشمي، ما يشير إلى أن عمل جيش الإنقاذ ليس إلا المناطق العربية، أي أنه صُنِع لتنفيذ قرار التقسيم، ينظر: طه الهاشمي، ١٧٦/٢، ١٧٧.

(٣) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٣٣؛ عارف العارف، نكبة فلسطين، ٢٤٨/١، ٢٤٩، ٢٥٦؛ بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ١٤٦/١.

(٤) قاسم الريماوي، داخل السور القديم: نصوص قاسم الريماوي عن الجهاد المقدس، تحقيق: بلال شلش، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ٢٠٢٠م)، ص٣٧٢، ٣٧٣.

(٥) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٢٧، ٢٨.

كذلك امتنعوا عن إمدادهم بالمال اللازم لشراء أسلحة من مخلفات الجيش البريطاني عند الانسحاب[١].

٨. التفريط السهل في المدن المهمة، مثل يافا وحيفا، وكذلك بيت المقدس نفسها، وقد برر طه الهاشمي هذا الأمر باعتبار أن بيت المقدس ليست مدينة استراتيجية وأن استرجاعها سهل وممكن في أي وقت، وهذا على خلاف الحقيقة والواقع، فلقد كان لسقوط القدس تأثير استراتيجي وسياسي خطير، فضلا عن تأثيره المعنوي الهائل على العرب وعلى اليهود معا[٢].

٩. التزام جيش الإنقاذ بالسياسة العامة للأنظمة العربية، وإعطائه أوامر الانسحاب أو التقدم من العواصم السياسية لا وفق ضرورات الميدان، كأنما هو جيش نظامي لا جيش من المتطوعين الذين لا يلتزمون بهذه السياسات[٣]، مع الاستسهال في إصدار أوامر الانسحاب، ثم تنفيذ هذا الانسحاب بدون خطط، مما جعل سقوط المدن سهلا، بل واندهش اليهود أحيانا لسرعة هذا التساقط[٤]! وذكر بعض الباحثين أن جيش الإنقاذ اقترف أيضا نزع السلاح الموجود مع الأهالي في القرى، ثم الانسحاب أمام الهجوم الصهيوني وترك القرى عزلاء، وهذا ما فعله فوزي القاوقجي في قرى الجليل الأعلى[٥].

١٠. القبول في لحظات ثمينة بالهدنة التي سرعان ما يستثمرها اليهود

(١) عارف العارف، نكبة فلسطين، ٢٤٩/١، ٢٥٠.

(٢) مذكرات أمين الحسيني، ص٣٩٣، ٣٩٤. ويشير أمين الحسيني في مواضع متعددة من مذكراته إلى ما في الهاشمي من غفلة أو سذاجة في أمور ومواقف سابقة منذ كونه وزيرا في العراق، ينظر: ص٧٠.

(٣) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٣٣.

(٤) عارف العارف، نكبة فلسطين، ٣٠٨/١، ٣٠٩.

(٥) سمعت هذا من المفكر المعروف د. منير شفيق، وهو من أبناء القدس وكان في الرابعة عشرة من عمره عند وقوع النكبة، ومن الباحثين في تاريخ فلسطين، غير أني لم أهتدِ إلى هذه المعلومة مكتوبة فيما وقفت عليه من المصادر.

لقلب ميزان المعركة وتلقي الإمدادات بالأفراد والسلاح، كما فعل القاوقجي في معركة «مشمار هعيمق»[١].

وفوق هذا كله فإن المتطوعين لم يجدوا في اللحظات الحرجة دعما وإسنادا من العواصم السياسية حتى بعد دخول الجيوش العربية، ولم يكن يبالي المسؤول العربي إذا استنجدت به القوات أن يطلب منها الانسحاب، حتى لو كان الانسحاب سيتسبب في مذابح هائلة للاجئين وأهل البلد، وحتى لو كانت هذه البلد هي: القدس نفسها[٢]!!

وكانت النتيجة المتوقعة لهذا كله أن تدور معارك غير متكافئة ولا منظمة، وكانت النتيجة النهائية أن هُزِمت هذه الفرق غير المدربة ولا المنظمة أمام عصابات اليهود المدربة والمنظمة، والمدعومة بالقوات الإنجليزية والسياسة الإنجليزية كذلك.

وبسبب هذه النتائج المزرية تغير التقييم العام لهذه الشخصيات من الإعجاب الطاغي قبل النكبة[٣]، إلى الأوصاف المتشككة بل والتي ترميهم بالخيانة فيما بعدها[٤]. ويحتاج تحليل هذه التصرفات إلى مقام آخر وجهد أوسع.

لكن الذي لا شك فيه أن قيادة جيش الإنقاذ لهم نصيب كبير في ضياع فلسطين وبيت المقدس، وقد كانوا في غاية الصلافة والجلافة مع عبد القادر الحسيني وهو في أحرج أوقاته، وقد شهد اجتماعه الأخير بهم امتناعهم عن إعطائه السلاح، حتى تميز غيظا وقال لإسماعيل صفوت وطه الهاشمي: «أنتم خائنون، أنتم مجرمون، وسيسجل التاريخ أنكم أضعتم

---

(١) عارف العارف، نكبة فلسطين، ١٩٨/١، ١٩٩.

(٢) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٢٩، ٣٠.

(٣) في سائر ما وقفت عليه، فإن المصادر ما قبل النكبة تتفق على الثناء على طه الهاشمي وفوزي القاوقجي.

(٤) ينظر مثلا: مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٢٧، ٢٨، ٣٦؛ عبد الله عزام، حماس الجذور والميثاق، ضمن: الذخائر العظام، ٨٣٤/١.

فلسطين»[١]، وخرج من عندهم وقد عرف أن مصيره ليس إلا الشهادة، وهو ما كان.

وقد سجَّل الشيخ مصطفى السباعي، وكان قائد المتطوعين الإخوان من سوريا، خلاصة تجربته مع جيش الإنقاذ، في أنه إنما صُنِع لتخدير الشعور العربي الهائج، ولم يكن القصد منه أن يقاتل فعليا، وأنه لم يخض معركة جدية واحدة في فلسطين، ولم يكن قادته يعرفون حقيقة الأوضاع، وأن مهمته الحقيقية كانت تحطيم منظمة «الجهاد المقدس» بقيادة عبد القادر الحسيني[٢]! ويضيف آخرون على هذا بأنه كان وسيلة لحجب السلاح والمعونات والتبرعات عن أهل فلسطين، وكان وسيلة لاستيعاب الشباب العربي المتطوع وطاقتهم لتنفيذ قرار التقسيم[٣].

ومع سائر ما ذُكِر، فإن أهل فلسطين ومعهم المتطوعون، استطاعوا أن يحافظوا على ٨٢٪ من أرض فلسطين قبل أن تدخل إليهم الجيوش العربية[٤]!

☼ ☼ ☼

(٣) الجيوش العربية

حظرت بريطانيا على الجيوش العربية أن تدخل إلى فلسطين قبل موعد انسحاب القوات البريطانية في ١٥ مايو ١٩٤٨م، وقد التزمت هذه الجيوش بهذا الموعد، مع أن العديد من المدن المهمة انسحب منها الإنجليز قبل هذا الموعد واستولى عليها اليهود، وعانت قوات «الجهاد

(١) عارف العارف، نكبة فلسطين والفردوس المفقود، (كفر قرع [فلسطين المحتلة]، دار الهدى، ١٩٥٦م)، ١/١٦٠، ١٦١؛ قاسم الريماوي، داخل السور القديم، ص٣٧٢، ٣٧٣.

(٢) مصطفى السباعي، جهادنا في فلسطين، ص٣٦.

(٣) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٤٧.

(٤) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٦١.

المقدس» وقوات «جيش الإنقاذ» من أوضاع في غاية القسوة أمام هذا التواطؤ الإنجليزي الصهيوني.

لكن يجب أن يقال أيضا بأن الدول العربية لم تقرر بالفعل أن ترسل جيوشها إلا في يوم (١٢ مايو ١٩٤٨م)، أي قبل يومين فحسب من موعد الانسحاب البريطاني، فلم تكن ثمة نية حقيقية للتدخل أصلا، وماذا يفعل يومان في الحشد والتخطيط لحرب؟!

وفضلا عن ذلك، فإن أعداد الجيوش العربية مجتمعة كانت تبلغ ثلث القوات الصهيونية، وذلك في سائر المراحل، حيث شهد العام ثلاث قفزات في أعداد القوات ولكن ميزان العدد لم يختلف تقريبا، ففي مايو (٣٥ ألفا) وفي سبتمبر (٦٥ ألفا) وفي ديسمبر (٩٦ ألفا)، والجيش الوحيد الذي زادت أعداده خلال الحرب كان هو الجيش المصري، إذ بدأ بعشرة آلاف ثم انتهى إلى خمسة وأربعين ألفا[١].

وفضلا عن ذلك، فإن الفارق في التسليح والتدريب كان مائلا وبقوة أيضا لصالح الجيش الصهيوني، ففي حين تمتعت القوات الصهيونية بتدريب وتسليح إنجليزي وخبرة في المعارك الكبرى وآخرها: الحرب العالمية الثانية، كانت الجيوش العربية تفتقر إلى هذا التدريب والتسليح، وإنما هي جيوش ناشئة واقعة تحت الهيمنة الأجنبية في دول تتمتع باستقلال شكلي غير حقيقي[٢].

وهذا بخلاف الفارق الضخم في المعلومات، فإن العصابات

(١) يوجين روجان، العرب، ص٦٨٥.

(٢) يروي محمود الصباغ، الذي كان قائد متطوعي الإخوان في فلسطين، أن الصحراء الغربية المصرية، وغيرها من الأماكن التي شهدت مواجهات الحرب العالمية الثانية كانت حافلة بالأسلحة والذخائر المتروكة منذ زمن هذه الحرب، وكانت كميات كبيرة يمكنها أن تكفي الجيوش العربية للقتال خمس سنوات، لو صحَّت منهم الإرادة لذلك. محمود الصباغ، حقيقية التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين، (نسخة إلكترونية صادر عن موقع الإخوان: إخوان ويكي)، ص١٧٠.

الصهيونية كانت تعيش على هذه الأرض، وتتدرب عليها، ولها أجهزة معلومات تعمل منذ ثلاثين سنة في جمع المعلومات عن الأرض والسكان، وقد وضعت خططها للاستيلاء على القرى. بينما كانت الجيوش العربية تفتقر إلى أدنى المعلومات عن الأوضاع في فلسطين، بل يروي محمود الصباغ (قائد قوات المتطوعين المصريين من الإخوان المسلمين) أنه حين طلب من قيادة الجيش المصري خرائط للأرض جاؤوا له بخرائط قبل ثلاثين سنة(١)!! وهي المعلومات التي كانت لا قيمة لها لأن أوضاع الأرض تغيرت تماما بما أنشيء من طرق ومستعمرات ومنشآت يهودية، ولهذا اضطر المتطوعون إلى العمل على جمع المعلومات من البداية.

وفوق هذا فإن الجيوش العربية ليس لها من الدعم السياسي ولا المالي ولا العسكري ما تتلقاه القوات الصهيونية المدعومة بالقوى العظمى: سياسيا في المنظمات الدولية، وفي قصور الحكم العربية أيضا، وماليا بالخطوط المفتوحة عبر البحر التي تسمح بتدفق رؤوس الأموال اليهودية، وعسكريا إذا لزم الأمر.

وأخيرا، فإن هذه الجيوش افتقدت أي قدر من الثقة والتنسيق والشعور بوحدة المعركة، حتى قال مؤرخ بريطاني: «لو أن تدخل الجيوش العربية تحلى بقدر يسير من التنسيق والتخطيط المسبق ومسحة من الثقة والحس بالهدف المشترك، فلربما تمكنت القوات العربية من تحقيق النصر؛ غير أن العرب دخلوا فلسطين وهم يحاربون بعضهم بعضا أكثر مما يحاربون الدولة اليهودية»(٢). لقد أدَّى هذا التشتت إلى أمورٍ غريبة لا تكاد تصدق، ومن ذلك أن الجيش العراقي كان يقاتل في منطقة جبلية ولديه دروع لا فائدة منها في هذه البيئة، بينما قاتل الجيش المصري في منطقة مكشوفة بلا دروع! وكان لدى الجيش العراقي مدافع من عيار ٢٥ رطلا

---

(١) محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص١٧٧.

(٢) يوجين روجان، العرب، ص٣٣٥.

بلا عتاد بينما كان لدى الجيش المصري عتادٌ لهذه المدافع لكن دون مدافع[1]!

إن هذه الفوارق الخطيرة في سائر عوامل القوة كفيلة بقلب ميزان أي معركة، فلو أن جيشا يمتلئ حماسة وإخلاصا وبسالة ثم وُضِع في مثل هذه الظروف فإن المتوقع أنه سيخسر الحرب خسارة ذريعة، فكيف نتصور الحال، وهذه الجيوش نفسها قد احتوت على مصائب وكوارث أخرى داخلية من عوامل الهزيمة؟!

لقد كانت حرب ١٩٤٨ واحدة من الحروب المأساوية العجيبة، التي تندرج تحت عنوان «شرّ البلية ما يضحك»، فمع سائر هذه الظروف التي سلف ذكرها، كان ثمة ظروف أخرى ساخرة وقاتلة، منها:

١. كانت الجيوش العربية تابعة لقيادة عليا تتمثل في الجيش الأردني! هذا مع أن ملك الأردن قد وافق أصلا على قرار التقسيم، فكيف يُتَصَوَّر أن يقود المعركةَ ضدَّ قرار التقسيم من قد وافق عليه، بغية أن يضم الأرض المقسومة للعرب إلى مملكته؟!

٢. ثم إن الجيش الأردني نفسه يقوده ضباط إنجليز على رأسهم جلوب باشا قائد الجيش الأردني، أي أن قيادة الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين لتحررها من الصهاينة كانت بقيادة ضابط إنجليزي ذي علاقات وثيقة مع الصهاينة!

٣. والكتلة الأكبر من هذه الجيوش، وهي جيوش مصر والعراق والأردن، إنما كان سلاحها وذخيرتها إنجليزيا، فبريطانيا هي التي شكلت هذه الجيوش في حقب الاحتلال، فما كان لدى هذه الجيوش من سلاح وذخيرة إنما وصل إليها بعلم بريطانيا وحساباتها التي تضمن ألا تمثل هذه الأسلحة ولا الذخيرة تهديدا حقيقيا للصهاينة.

---

(١) محمود شيت خطاب، إرادة القتال في الجهاد الإسلامي، ط٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ص٣٩.

٤. وهذه الجيوش العربية كانت تلتزم بالقرار السياسي الوارد إليها من السياسيين، وهؤلاء السياسيون إنما كانوا تابعين للمحتل الإنجليزي، فكانوا في سيرهم يتقدمون إذا جاءتهم أوامر التقدم، وينسحبون إذا جاءتهم أوامر الانسحاب، دون أن يكون للتقدم خطط ميدانية ولا أن يكون الانسحاب وفق ضرورات قتالية[١]، ثم إذا مالت الكفة إلى صالحهم أحيانا تدخل مجلس الأمن ففرض وقفا لإطلاق النار، فتلتزم به الحكومات العربية، وتلتزم به الجيوش، حتى يلتقط الصهاينة أنفاسهم، ثم يعودون بعد الهدنة أكثر عددا وعدة، بينما الجيوش واقفة كالمشلول، تلتزم بالهدنة!!

٥. ثم إن كثيرا من فرق هذه الجيوش تعاملت مع سكان فلسطين باعتبارهم خطرا، لا باعتبارهم حاضنة شعبية، فكثيرا ما كانت الجيوش تدخل القرية فتجمع منها السلاح بذريعة أنها ستتولى الدفاع عن القرية وبأنه ينبغي ألا يكون ثمة سلاح في ظهر هذه الجيوش، فإذا انهزمت الجيوش أمام عصابات الصهاينة صارت القرية عزلاء، فلم يبق بأيديهم حل إلا أن ينزحوا خوفا من مذبحة صهيونية[٢]!

٦. وقد ذكرنا سابقا أن قوى المقاومة في فلسطين كانت تفضل ألا تتدخل الجيوش الرسمية في الصراع، وأن تكتفي الدول العربية بتأمين الأموال والأسلحة لأهل البلاد، وهم أدرى ببلادهم من جهة، وكذلك لكي لا تكون حربا يستثمرها الصهاينة عالميا في جلب مزيد من الدعم المالي والسياسي بحجة كونهم دولة صغيرة ضعيفة تهاجمها جيوش الدول العربية الأكبر منها في العدد والعتاد، وهو ما لم يكن صحيحا أصلا[٣].

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، (القاهرة: المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٤م)، ص٣٩.

(٢) وقد ثبت بتجربة التاريخ صحة هذا الموقف، ينظر أيضا: أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٣٧.

(٣) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٣٨.

وهكذا يجب أن نتوقع كيف يمكن أن تدور حرب بين طرفين هذا حالهما!

لقد عُرِفَ الملك عبد الله بأنه «حليف الصهاينة»، ووصفه بن جوريون بأنه «الحاكم الحكيم»[١]، وقد تنوعت اللقاءات السرية بين الملك عبد الله بن الحسين، ملك الأردن، وقيادات صهيونية[٢]، وبذل وعوده في هذه اللقاءات بأنه لن يحاربهم، وأن هذا وعدٌ من ملكٍ بدويٍّ هاشميٍّ، وهو وعد مبذول لامرأة، فلا يمكن نقضه[٣]!! كما رُتِّبت مشاركة الأردن في حرب ١٩٤٨م في لقاء سري بين رئيس الوزراء الأردني توفيق أبو الهدى وقائد الجيش الأردني (الإنجليزي) جلوب باشا مع وزير الخارجية الإنجليزي بيفين في لندن (١٧ فبراير ١٩٤٨م)[٤]، ولم يكن طموح عبد الله ضم الجزء المقرر للعرب من فلسطين فحسب، بل بلغت به خيانته أن يعمل مع نصارى لبنان على إنشاء دولة مسيحية لهم مقابل أن يضم إليه الأجزاء ذات الأغلبية المسلمة منها[٥]!

وقد وُضِعت خطة الجيوش العربية في عمّان، ثم نقضت وأعيد وضعها من جديد، ثم نقضت مرة أخرى لتعود لما كانت عليه، ولكن هذا كان بعد أن تحركت الجيوش وفقًا للتعديل، مما شتت الجهود

---

(١) Menachem Begin, The Revolt, p. 334.

(٢) عبد الله التل، كارثة فلسطين: مذكرات عبد الله التل قائد معركة القدس، ط٢ (بدون مكان نشر: دار الهدى، ١٩٩٠م)، ص٦٤ وما بعدها؛ حرب فلسطين: الرواية الإسرائيلية الرسمية، ترجمة: أحمد خليفة، ط٢ (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦م)، ص٢٢٤؛ مذكرات طه الهاشمي، ٢/١٨٠.

(٣) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ترجمة: عزيز بيومي، (القاهرة: دار التعاون، د. ت)، ص ١٧٦ وما بعدها؛ عبد الله التل، كارثة فلسطين، ص٦٦ وما بعدها.

(٤) ماري ويلسون، عبد الله وإمارة شرق الأردن، ص١٢.

(٥) مذكرات طه الهاشمي، ٢/١٨٢.

وأثار الهواجس من جهة، وجعل هذه الجيوش التي تدخل متفرقة بلا خطة موحدة متماسكة فريسة سهلة للعصابات الصهيونية التي تواجهها، وامتنع جلوب باشا عن الدخول بالقوات الأردنية إلى القدس ليمنح الصهاينة فرصة السيطرة على القدس وحسم المعركة، وهو ما كان بعد أيام دامية عُرفت بالأيام الخمسة الحمراء في القدس. وبسبب هذا استولى اليهود على القدس الغربية فمزقوا بذلك قرار التقسيم الذي جعل القدس منطقة تحت إشراف دولي، وقد أدى هذا إلى تهجير ٦٠ ألفا من الفلسطينيين!

لم يكن عمل الجيش الأردني قتالا للصهاينة أو محاولة لتحرير ما احتلوه من البلاد، وإنما كان تنفيذا لقرار التقسيم باستيلائه على مناطق الضفة الغربية ليضمها إلى مملكة الأردن، أي أنه كان ينفذ خطة إقامة إسرائيل كما قررتها القوى الدولية، وكما اتفق عليها الملك عبد الله مع الصهاينة والإنجليز. وسجلت بعض المصادر أن الجيش الأردني كان يسلم المواقع تسليما مباشرا للجيش الصهيوني يدا بيد[١].

وقد تصدى الجيش الأردني، بمن في ذلك ضباطه الإنجليز لمحاولة السيطرة على القدس القديمة والمسجد الأقصى، لأن السياسة البريطانية آنذاك تخوفت أن يثير سقوط المسجد الأقصى بيد اليهود مشاعر المسلمين، في العالم العربي وفي الهند[٢].

وأما الجيش المصري الذي دخل من الجنوب، فقد جاءت الأوامر بالتقدم مباشرة صوب القدس، وقد أفسحت له القوات الصهيونية الطريق

(١) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ط١ (بيشاور: مركز الشهيد عزام الإعلامي، ١٩٩٧م)، ٨٣٥/١.

(٢) منير شفيق، من جمر إلى جمر: صفحات من مذكرات منير شفيق، تحرير: نافذ أبو حسنة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٢١م)، ص٤٩، ٥٠.

فلم تعترضه، حتى إذا اقترب من القدس انقضت عليه القوات من المستعمرات التي تركها خلفه، في أبسط كمين عسكري لا يقع فيه طفل صغير، فتشتت الجيش، وحوصرت بعض فرقه، وشُلَّت حركته، ثم جاءته أوامر الانسحاب فيما بعد، فانسحب بطريقة صعبة وبالتفاف بعيد مع أن الأسهل عليه كان أن يفتح لنفسه طريق انسحاب بإطلاق النار على الإسرائيليين[١].

وتركت هذه الجيوش في ذاكرة الفلسطينيين مواقف محفورة وراسخة، منها مثل قول الجيش العراقي كلما استنجد به الفلسطينيون: «ماكو أوامر» (أي: ليست لدينا أوامر للتحرك لنجدتكم)[٢].

وقد وقعت من بعض الفرق في هذه الجيوش بطولات ومعارك وجهاد، إلا أن هؤلاء هم من تمردوا على القرارات السياسية، أو قد اضطرتهم ظروف ميدانية إلى أن يقاتلوا بمعزل عن هذه الأوامر العليا[٣]، ومن المؤسف أن سائر ما استطاع هؤلاء المجاهدون أن يُنجزوه ذهب هدرا على يد الأنظمة العربية نفسها، إما بإصدار أوامر انسحاب أو بتعديلات الخطة أو بإيقاف التقدم والالتزام بوقف إطلاق النار أو حتى بسجن المجاهدين كما حدث في حالة الإخوان المسلمين في مصر[٤]، ومحاكمة بعض القادة العراقيين الذين لم يستجيبوا لأوامر الانسحاب[٥]!

لقد كانت المرحلة الأولى من القتال هي الأفضل بالنسبة للعرب

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٣٦.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٣٥/١، ٨٤٧؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢١٧.

(٣) وبعض هذه الأمور كان بطولات تكاد تكون خارقة، ينظر مثلا: أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٣٥، ٣٦.

(٤) محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص١٨٣.

(٥) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٣٤/١.

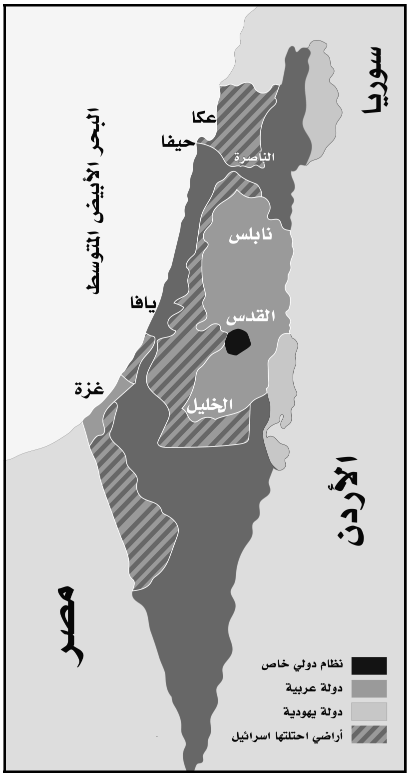
والأسوأ بالنسبة إلى الإسرائيليين، رغم كل ما سبق بيانه، فلقد ارتبك الإسرائيليون إذ احتاجوا أن يتوزعوا على عدة جبهات ليقاتلوا في نفس الوقت، وهنا جاءهم الإنقاذ السياسي بقرار الأمم المتحدة بتطبيق هدنة لمدة ٢٨ يوما، مع حظر التسليح، وهي الهدنة التي التزم بها الحكام العرب من فورهم، فانتهزها الإسرائيليون في زيادة أعداد المقاتلين والتزود من السلاح ـ بالخرق لقرار الأمم المتحدة ـ لتنتهي الهدنة الأولى وقد استعاد الصهاينة زمام الموقف! فاستأنفت القتال واستولت على المناطق الشمالية ودحرت الجيشين السوري واللبناني، بل واستولت على مدينتي اللد والرملة من الجيش الأردني، وبدأت التركيز على الجبهة المصرية في الجنوب! ثم أمدتها الأمم المتحدة بقرار آخر يفرض هدنة جديدة طويلة تستمر ثلاثة أشهر (من ١٩ يوليو حتى ١٤ أكتوبر)، استغلتها في التزود بالسلاح والرجال، ثم استكملت دحر القوات السورية واللبنانية شمالا، والقوات المصرية جنوبا حتى استولت على أراضٍ مصرية عند خليج العقبة وهي قرية أم الرشراس! ثم ترسمت الحدود بين القوات باتفاقيات وقف إطلاق نار! لتصير إسرائيل حقيقة قائمة على الأرض!

وفي هذه الأثناء صادرت السلطات المصرية السلاح الذي كان يجمعه المتطوعون، وما وجدته من معدات أخرى[١]، لتقطع الطريق على استمرار المقاومة بعد هزيمة الجيوش.

وهكذا سقطت فلسطين! ولم يكن نصيب العملاء في سقوطها بأقل من نصيب الصهاينة أو المحتلين، أو بعبارة الشيخ عبد الله عزام: «تسلم اليهود في مدة أشهر خمسة أضعاف ما استولوا عليه خلال خمسين عاما»[٢]!

(١) محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص٨٩ وما بعدها.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٣٧/١.



بلغت الحصيلة النهائية للنكبة تدمير ٥٣١ قرية ومدينة فلسطينية[١]، وبذلك استولت إسرائيل على (٧٨٪ تقريبا) من أراضي فلسطين. أي أنها أخذت بالحرب أكثر مما أعطاه لها قرار التقسيم (أعطى لها قرار التقسيم ٥٥٪ تقريبا)، فكأنما كانت الجيوش العربية تقاتل في صفوف الإسرائيليين ودعما للمشروع الصهيوني!!

وفوق ذلك، وقعت بهذه الحرب مأساة اللاجئين، فقد جرى تهجير ٥٨٪ من سكان فلسطين (٨٠٥٠٧٦ فلسطينيا)، وقد كان الخروج هو الحل الوحيد المتاح لشعب أعزل ومنهك ومجرد من السلاح أمام عصابات صهيونية مسلحة ومجرمة. وفي ذلك الوقت كان التصور العام لدى الشعب الفلسطيني أن العرب لن يسكتوا عن هذا، وأنه ليس إلا أن تدخل الجيوش العربية فتطرد العصابات الصهيونية ليرجع الناس إلى ديارهم، فلم يكن خروجهم من القرى نوعا من التفريط أو الاستسلام، بل كان قرارًا مدفوعا من جهتين: الضعف والعجز من جهة، والأمل في الوعد الذي قطعه العرب على أنفسهم من جهة ثانية[٢]. ويجب ملاحظة أن نصف اللاجئين إنما طردوا من قراهم قبل دخول الجيوش العربية، أي أن مأساة اللاجئين لم تكن نتيجة للحرب، بل كانت نتيجة للاجتياح الصهيوني ومذابحه العديدة والمدعومة بالتواطؤ الإنجليزي.

---

(١) إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، ص٣؛ سليمان أبو ستة، حق العودة، (غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق، ١٩٩٩م) ص٨.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٣٢.

توزع اللاجئون على ثلاث اتجاهات: قطاع غزة، والضفة الغربية، وخارج فلسطين في الأردن وسوريا ولبنان وغيرها. وهذه المناطق التي بقيت من فلسطين: غزة (١,٣٪ من مساحة فلسطين) والضفة الغربية (٢١,٥٪ من مساحة فلسطين) تسابقت الدولتان إلى ضمِّهما ولم تُترك للفلسطينيين، فضمَّتْ مصرُ قطاعَ غزة، وضمَّتْ الأردن الضفةَ الغربية. مع ملاحظة تخلي نظام الأردن عن اللد والرملة، وتخلي نظام مصر عن أجزاء من قطاع غزة لم يحصل عليها الإسرائيليون بالقتال، بل تنازل عنها المفاوض المصري[(١)]، فضلا عن التنازل عن قرية أم الرشراش، ليصير بذلك لإسرائيل منفذ بحري على البحر الأحمر!

ولم يكن ضم الضفة الغربية إلى الأردن مستنكرا من قِبَل عموم الفلسطينيين، بل رأى فيه بعضهم نوعا من الحماية لئلا تبقى بقية الجسد الفلسطيني بلا صاحب كما كان الحال بعد الحرب العالمية الأولى وانقشاع الحماية العثمانية، ومثلما نادى زعماء فلسطين وأعيانها المؤتمر العربي الأول المنعقد في القدس بضم فلسطين إلى سوريا حينذاك، فإن انضمام الضفة الغربية إلى الشرقية كان نتيجة سلسلة من المؤتمرات التي نُظِّمت لمدن الضفة الغربية، ولئن كان بعضها بترتيب وتدبير الملك عبد الله فإن الذي يهمنا الآن أن فكرة الضم نفسها لم تكن أمرًا منكورا ولا مرفوضا لدى أعيان فلسطين ووجهائها. على أن الذين تخوفوا من هذا الضم ولم يرحبوا به إنما كانوا متخوفين من سياسة الملك عبد الله، رجل الإنجليز المخلص، لا أنهم كانوا ضد الوحدة العربية أو الإسلامية.

---

(١) سلمان أبو ستة، «كيف قضمت إسرائيل قطاع غزة في اتفاقية سرية»، الحياة اللندنية، بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠٠٩م.

بين النكبتين

وضع إسرائيل

لم تتوان الوكالة اليهودية عن العمل بعد إنشاء الدولة الصهيونية التي اعترفت بها القوى الدولية بمجرد الإعلان عنها، كانت أمريكا وروسيا أول المعترفين بالدولة اللقيطة، وهما القوتان العظميان العالميتان في هذا الوقت، ثم تبعتهما القوى الأوروبية.

وأول ما سعى بن جوريون إلى تثبيته هو اتخاذ القدس عاصمة لدولة إسرائيل، مع أن هذا الأمر كان ضد رغبة القوى الدولية وهم حلفاء الصهاينة، لكن بن جوريون أمضى قراره، فنقل مقر الحكومة والوزارات إلى القدس مهملا رأي أوليائه وحلفائه، ولم تبق في تل أبيب إلا وزارة الخارجية، وذلك لأن مقر السفارات والبعثات الدبلوماسية بقيت في تل أبيب. فكانت القدس هي العاصمة الفعلية لإسرائيل منذ أيامها الأولى، وهي التي تدار منها البلاد، بينما بقيت تل أبيب عاصمة رسمية. وذهب الوزراء إلى القدس على عجل حتى إن جولدا مائير سكنت لفترة في غرفة فوق سطح إحدى البنايات حتى جرى تجهيز منزل يليق بالوزيرة[١].

وأما في المحيط السياسي، فقد سعت إسرائيل لتثبيت أقدامها وترسيخ وجودها، لتجعل من نفسها حقيقة واقعية، وبدأ منذ ذلك الوقت

(١) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ص٢١٣، ٢١٤.

هاجسها الأمني يكون هو المسيطر الأول عليها:

فحيث قامت هذه الدولة على تهجير كثير من السكان أصحاب الأرض، فيجب أن تبذل أقصى طاقتها في تخويف وإرعاب هؤلاء السكان من أي محاولة لاستعادة أرضهم أو حتى للتسلل داخل الأراضي التي صارت ضمن «حدود إسرائيل».

وحيث أوجدت هذه الدولة في محيط عربي لا يقبل بها، ويسعى في إزالتها، فيجب أن تبذل أقصى طاقتها في إثبات قوتها، وإثبات قدرتها على التصدي والدفاع عن نفسها، ثم إن الحالة العربية بعد قليل أغرتها بالطموح إلى إثبات قدرتها على انتزاع المزيد من النفوذ بل ومن الأراضي الجديدة من فلسطين وهي الباقية ضمن الضفة الغربية وغزة.

ولهذا نرى إسرائيل قد شنت عددا من الهجمات على الضفة الغربية وغزة وسوريا والأردن، قتلت فيهما العديد من المدنيين ومن عناصر الشرطة والجيش، بل ومثَّلت بجثث من قبضت عليهم حين حاولوا التسلل إلى داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م[١].

وكان أخطر وأوسع ما ارتكبته إسرائيل هو هجومها الواسع في عام (١٩٥٦م) على سيناء داخل الأراضي المصرية، لتبدأ بهذا حربا تكون ذريعة لتدخل الإنجليز والفرنسيين من بعد ما أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس، واعتمدت إسرائيل في هذه المبادرة الخطيرة على ما يشيع من الغفلة والفساد في دولة عبد الناصر، وقد سارعت القوات الإنجليزية والفرنسية باحتلال قناة السويس، وتلقى الجيش المصري ضربة قاسية، لكن هذا العدوان الذي عرف بحرب السويس، كما عرف بالعدوان الثلاثي، كان على غير رغبة الأمريكان، وكذلك السوفييت، لأنه يجدد وجود

(١) للتوسع، ينظر تقرير: اعتداءات إسرائيل على خطوط الهدنة، الذي أصدره مكتب جامعة الدول العربية في نيويورك، ونشر في القاهرة، ١٩٥٥م. وهو عن الأعوام (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤م).

الاستعمار القديم (الإنجليزي والفرنسي) في المناطق التي ورثها الأمريكان، فوقفت أمريكا ضد هذا العدوان الثلاثي بكل ثقلها حتى أجبرت الجميع على الجلاء، إلا أن إسرائيل انتزعت لنفسها عددا من المكاسب المهمة والفارقة بهذه الحرب، أهمها:

١. إثبات قدرتها على الهجوم المفاجئ والناجح على مصر التي هي أكبر الدول العربية وجيشها هو أقوى الجيوش العربية، وكان هذا هو الاختبار الأول لنظام ثورة يوليو العسكري الذي زعم أنه قام بالثورة لجملة أسباب من أهمها: فلسطين، فقد تبين أنه نظام عاجز.

٢. انتزاع حق حرية الملاحة في خليج العقبة، وهو الذي يربط إسرائيل بسائر النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، فرغم أنها سيطرت على رأس خليج العقبة عند إيلات، إلا أن الخليج ينتهي إلى جزيرتين تُغلقانه، وهما ضمن الأرض المصرية، فبهذه الحرب انتزعت إسرائيل هذا الحق مقابل انسحابها. وهو الأمر الذي لم يعرفه المصريون أنفسهم.

٣. نشر قوات دولية على الحدود المصرية الإسرائيلية، وهو ما يعني أنه لن يتمكن المصريون من مفاجأة إسرائيل بأي عمل عسكري، فلئن فكر المصريون في الهجوم فلا بد لهم من إبلاغ هذه القوات الدولية أو طلب المغادرة منها، إذ ليس ممكنا أن تخاطر القوات المصرية بالهجوم على قوات دولية.

وكادت إسرائيل أن تنجح في جعل قطاع غزة منفصلا تحت إشراف دولي، لولا مظاهرات احتجاجية واسعة قام بها أهل غزة، قادهم فيها الإسلاميون الغزيون، لبقاء السيادة المصرية على القطاع[١].

وعلى هذا النحو، رسَّخت إسرائيل بحربها في ١٩٥٦ من قوتها ونفوذها في المنطقة، وزادت من أهميتها وحضورها، وعبَّرت عن أحلامها التوسعية وأنها لم تكتف بما انتزعته في ١٩٤٨م، ولا شك أن هذه السهولة

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٤٨، ٤٩.

في الاستيلاء على سيناء قد أغراها بتكرار الأمر في (١٩٦٧م).

ثمة توسع خطير آخر نفذته إسرائيل في فترة ما بين النكبتيْن، وهو اختراقها للأنظمة العربية بعملاء مباشرين تابعين لها شغلوا مناصب حساسة، فمن أهم هؤلاء: إيلي كوهين الذي وصل إلى منصب نائب الرئيس السوري، وأشرف مروان صهر عبد الناصر وسكرتير المعلومات الخاص عنده. وكان لكلا الرجلين أدوار خطيرة وحاسمة في نقل معلومات مهمة للإسرائيليين أثناء النكبة الثانية (١٩٦٧م) وحرب أكتوبر (١٩٧٣م).

أوضاع فلسطين بين النكبتين

على مدى حقبة الاحتلال الإنجليزي كانت قد تكوّنت هوية «فلسطينية» واضحة للمجتمع في فلسطين، وشهد الأمر ضعفا واضحا في التعلق الجمعي بالهوية الإسلامية والرابطة الإسلامية، ويرجع ذلك إلى عدد من الأمور، من أهمها:

١. الفتور العام الذي أصاب الهوية الإسلامية في سائر العالم الإسلامي بعد انهيار الخلافة الإسلامية، ووقوع أغلب دول العالم الإسلامي تحت الاحتلال الأجنبي، ومن لم يكن تحت احتلال مباشر فلقد كان واقعا تحت نفوذ أجنبي مباشر.

٢. سيادة العلمانية في سائر هذه المناطق، وهذه الفكرة العلمانية تقاسمَ النفوذَ داخلها مذهبان: الشيوعية الاشتراكية اليسارية التي تؤول إلى المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والليبرالية الرأسمالية التي تؤول إلى المعسكر الغربي بزعامة أمريكا.

٣. تَعَزُّز المفهوم الوطني، بانقسام سائر هذه المنطقة الإسلامية إلى دول حديثة، اتخذت لنفسها أعلاما ودساتير وقوانين، وبدأت في تكوين شخصيتها الوطنية المنفردة والمستقلة، وشرعت تفتش في أحافيرها وآثارها لتكوين تاريخ مستقل وقديم.

وهذه الأمور الثلاثة: غياب الخلافة الإسلامية، سيادة العلمانية، تعزز

الوطنية، (وكلها تحت هيمنة النفوذ الأجنبي وبدعم كامل منه)، متداخلة ومتضافرة يقوي بعضها بعضا.

لكن هذا الضعف العام في التعلق بالرابطة الإسلامية الجامعة لم يعنِ في حالة فلسطين نزوعا وطنيا منسلخا من الهوية العربية، بل ظل أهل فلسطين يرون أن تحرير بلادهم واجبٌ عربي عام، وأن العرب حين يحاربون في فلسطين إنما يقومون بواجبهم الطبيعي لا أنهم يتفضلون بذلك أو يمنون به على نحو ما يفعل الأصدقاء أو الحلفاء أو الشركاء، وقد ساهم في نمو وتعزز هذه الهوية العربية عدد من الأمور، من أهمها:

١. أنها تستند إلى حقائق صلبة وراسخة بامتداد سكان فلسطين في المجتمعات المحيطة، فالعائلة الواحدة تتقسم بين فلسطين والأردن ومصر وسوريا ولبنان، وكثيرا ما كان مالك الأرض يعيش في لبنان أو سوريا وأملاكه في فلسطين، فما ثمة معنى لانفصال «وطني» أو حدود حقيقية واضحة لا جغرافيا ولا سكانيا بين ما صار يُعرف بحدود فلسطين المعاصرة وبين حدود بقية هذه الدول! وإذا غضضنا الطرف عن كون فلسطين قضية إسلامية مقدسة تلتهب لها القلوب في سائر العالم الإسلامي، فإن كثيرا من المجاهدين المتطوعين «العرب» إنما «قدموا» دفاعا عن أهلهم وأموالهم وأعراضهم وأرضهم بأنفسهم[١].

٢. أن الدول العربية، لا سيما المحيطة بفلسطين، قد تدخلت بالفعل سياسيا وعسكريا في القضية، واتخذت من شعار العروبة درعا لها، وعبَّرت

(١) يجب هنا أن نلاحظ أمر مهما: إن قولنا «العرب» و«قدموا» هو تأثر منا بضغط الثقافة الغالبة والمعنى الوطني السائد الآن، ففي ذلك الزمن ما كان يُنظر إلى هؤلاء، ولا كان هؤلاء يرون أنفسهم، «عربا» بمعنى «غير فلسطينيين». وما كانوا يرون مجيئهم لأرض الجهاد «قدوما» على قوم آخرين، ولا كان يراه أهل فلسطين كذلك. ولكننا مضطرون إلى استعمال مثل هذه العبارات أحيانا لأننا نخاطب الناس في عصرنا، وما بوسعنا ولا بوسعهم أن ننفلت تماما من تأثير سطوة الأفكار المهيمنة على واقعنا، ولا على تأثير ذلك في لغتنا وألفاظنا.

عن «واجبها» الذي يحتم عليها التدخل لتحرير فلسطين ومكافحة الصهيونية، بل ساروا في هذا السبيل إلى الحد الذي منعوا فيه أهل فلسطين من الدفاع عن أنفسهم، وضيقوا عليهم هذا السبيل، باعتبار أن قضيتهم قضية عامة لا خاصة، وأنها قضية جيوش لا عصابات، على نحو ما أسلفنا. وبهذا الخطاب نطق قادة الدول العربية وإعلامها ومثقفوها. ووجد هذا الخطاب صدى عظيما في مجتمع مستنزف جرى إنهاكه وإضعافه على مدى عقود، وما أسرع ما يترسخ خطابُ الأماني في نفس المقهور العاجز!

٣. وفيما بعد زمن النكبة، بلغ هذا الخطاب أوجه، وارتفعت القومية العربية (العلمانية) إلى ذروة قوتها مع صعود المد الناصري في مصر، ومع صعود حزب البعث في سوريا والعراق، وهو الخطاب العروبي الذي تركز حول وحدة الأمة العربية وحول تحرير فلسطين وطرد العصابات الصهيونية، بل إن حرب فلسطين كانت حاضرة في البيان الأول للانقلاب العسكري المصري (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م). وفي ذلك الوقت كانت مصر تكاد تحتكر القوة الإعلامية في العالم العربي من خلال الإذاعة ثم الصحافة، فبعث هذا الخطاب القومي العروبي نشوة عارمة وأملا عظيما لدى أهل فلسطين وغيرهم، ولكن الذي يهمنا الآن: أنه رسَّخ فيهم معنى الانتماء العروبي القومي.

وبعيدا عما فعله الخطاب والشعارات، فإن حقائق الواقع كانت غير هذا، بل كانت على الضد من هذا، فقد صارت الأنظمة العربية تتدخل في هذه القضية بما يجعلها ورقة في أيديها ووسيلة إلى تعظيم نفوذها، فلئن كانت الحقبة الماضية قد شهدت محاولات الإنجليز الحثيثة لمنع تكون قيادة فلسطينية جامعة، فإن هذه الحقبة قد شهدت نفس هذا الدور ولكن على يد الأنظمة العربية.

لقد حاولت الهيئة العربية العليا، بزعامة الحاج أمين الحسيني، أن تشكل حكومة فلسطين لملء الفراغ السياسي الناتج عن الانسحاب البريطاني، وبذلت جهدها في هذا قبيل النكبة، لكن الحكومات العربية

رفضت هذا الأمر، وكان أشدهم رفضا ونفورا الملك عبد الله ملك الأردن الذي كان شبقا لتوسيع مملكته، فقد كان لم يزل متحسرا منذ ثلاثين سنة أن مُنِح هذه القطعة الصغيرة الجرداء وهو الابن الأكبر للشريف حسين. فلما وقعت النكبة وهُزمت الجيوش العربية أعلنت الهيئة العربية العليا حكومة عموم فلسطين (٢٣ سبتمبر ١٩٤٨م)، واعترفت بها الدول العربية ما عدا الأردن، ودَعَت الهيئة إلى اجتماع مجلس تشريعي في غزة (١ أكتوبر ١٩٤٨م) برئاسة الحاج أمين الحسيني لتأكيد شرعية الحكومة. غير أن الحكومة المصرية ما لبثت أن نقلت الحاج أمين الحسيني وأعضاء الحكومة وعددا من أعضاء المجلس قسرا إلى القاهرة، وتولت هي السيطرة على قطاع غزة، لتصير الحكومة حكومة شكلية، وحكومة منفى، بلا قدرة على ممارسة أية صلاحيات!! وفي القاهرة شُدِّدت الرقابة على أمين الحسيني وحوصر مقر الهيئة العربية العليا، ولم يعد ثمة قيمة لرئيس حكومة عموم فلسطين إلا أنه قد صار مندوب فلسطين في الجامعة العربية!!

وبهذا فإن الدول العربية قد مَكَّنت عمليا لإسرائيل، وساعدتها على استتباب ابتلاعها أكثر مما خصصه لها قرار التقسيم[١]، وفوق هذا فقد عمل النظامان العربيان: المصري والأردني، وهما يسيطران على غزة والضفة الغربية، على بذل المجهود الكبير في إحباط أي عمليات مقاومة أو تسلل إلى داخل الحدود «الإسرائيلية»، يقوم بها أفراد فلسطينيون، وعملت أجهزة أمنهم على اختراق أي تشكيلات فدائية[٢]، وهذا برغم الاعتداءات والخروقات المستمرة التي ينفذها الإسرائيليون، وقد استعرض تقرير لجامعة الدول العربية هذا المجهود الرسمي في مكافحة التسلل، وفي تعقب المجاهدين بأنواع العقوبات من السجن والتغريم والنفي فضلا عن الضرب والتعذيب غيره[٣]، وذلك بخلاف ما قامت به أجهزة إعلام هذه الأنظمة

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٥.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٨١، ٨٤، ٨٧.

(٣) تقرير: اعتداءات إسرائيل على خطوط الهدنة، ص٤، ١١، ١٢؛ صلاح خلف، =

من تشويه وتشنيع على المقاومة[1]. أي أن الأنظمة العربية قامت منذ اللحظة الأولى بدورها في حماية إسرائيل وفي مطاردة أعدائها[2]. وفي ظل هذا الوضع يعد من السفاهة أن نسأل: هل فكرت الأنظمة العربية في تحريك جيوشها أو الرد عسكريا على الغارات والخروقات الإسرائيلية، فضلا عن التفكير في تحرير فلسطين[3]؟!!

لئن كانت الحكومات العربية قد سلَّمت فلسطين للصهاينة وأمكنتهم منها، فإن هذا لم يكن مجرد فساد أو خطأ غير مقصود، بل سنرى أن مسيرة الحكومات العربية مع فلسطين كانت مسيرة خيانية متكاملة! وأن الدول التي قيل إنها «استقلت» و«تحررت» عن الاستعمار، لم تختلف في شيء عن سلوك الدول وهي تحت الاحتلال الأجنبي.

لقد شهد المجتمع الفلسطيني زلزالا عنيفا، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، لقد غيرت النكبة وما تدفق عنها من الهجرات وجه المجتمع الفلسطيني كله، ولئن كان الحديث فيما سبق عن مجتمع استمر إنهاكه واستنزافه طوال زمن الاحتلال الإنجليزي فنحن الآن إزاء مجتمع مصدوم وممزق ومشتت، حتى ليجوز أن يختلف النظر في كونه يحقق صفة المجتمع أم

= فلسطيني بلا هوية، ص٨٣ وما بعدها؛ أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٥، ٧٦.

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٨٢، ٨٣؛ أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٥.

(٢) يروي الشيخ عبد الله عزام حكاية ذات دلالة، عن جارٍ له في قريته سيلة الحارثية، رأى الإسرائيليين قد وصلوا إلى حديقة بيته، فذهب يُبْلِغ مركز الجيش الأردني في جنين، فاعتقلوه وسجنوه، وسيق إلى محكمة عسكرية، ولم ينجُ من الحبس إلا لما زعم أمام القاضي أنه كان نائما وكان يحلم، فلما أصبح ظنَّ أنها حقيقة!! وأورد قصصا أخرى تدل على شناعة السلطة الأردنية وتواطئها. عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٣٨.

(٣) بل لقد أثبت تقرير مكتب الجامعة العربية في نيويورك أنه «لم تثبت أية لجنة من اللجان المشتركة الأربع التابعة للأمم المتحدة إدانة أية حكومة عربية بتدبير أو تنظيم أو شن هجوم على أرض إسرائيل»، ينظر: ص٤.

لا. لقد أدت كارثة اللجوء إلى تشكل طبقات وشرائح اجتماعية جديدة في المخيمات وما حولها من المدن، وهاجر الكثيرون إلى دول الطوق، وهاجر كثيرون آخرون إلى دول الخليج العربي التي كانت تشهد طفرة نفطية وتبدأ في بناء نفسها ومؤسساتها، فكان أن وجد فيها الفلسطينيون فرصة وأملا في النجاة من الفقر، ووجدت فيهم عناصر عاملة ذات كفاءة في سائر المجالات. وقد اهتم الفلسطينيون بالتعليم إذ صار المسار الوحيد لأكثرهم نحو الصعود الاجتماعي بعد ضياع الأرض والبلاد، فلا أملاك ولا زراعة ولا تجارة، فصاروا أكثر الشعوب العربية ارتفاعا في نسب التعلم، وحصل كثير منهم على درجاته العلمية من الجامعات العربية والأوروبية والأمريكية[(١)].

وقد تضافر هذا الزلزال الاجتماعي الاقتصادي الكاسح، مع السياسة العربية ـ لا سيما المصرية والأردنية ـ في التأثير سلبا على المقاومة الفلسطينية بشقيها السياسي والعسكري؛ فمن جهة السياسة أخذت الهيئة العربية العليا في الذبول والاضمحلال، وخفت نجم الحاج أمين الحسيني الذي ظل كالرهينة في القاهرة حتى غادرها إلى لبنان ١٩٥٨م.

ومن جهة المقاومة العسكرية فقد اقتصر الأمر على عمليات صغيرة يقوم بها أفراد أو مجموعات محدودة، تحاول اختراق الحدود أو تصطاد الجنود، إلا أنها فعلت ـ بالنسبة لإمكانياتها ـ شيئا كبيرا، إذ أردت نحو ١٢٠٠ قتيلا إسرائيليا في سبع سنوات (١٩٤٩ ـ ١٩٥٦م)[(٢)]، ثم توقفت لأن النظام الناصري تشدد في حراسة الحدود وعدم السماح بشن هجمات ضد إسرائيل، بعد الهزيمة النكراء التي لقيها في حرب (١٩٥٦م)، وحقا فإنه «لم يؤرخ بعد السجل الدموي الخياني لما ارتكبته هذه الأجهزة في حق شباب غزة، كلما حاول أن ينظم مقاومة لتحرير بلاده، وكيف ظل هذا الشباب في سجون ومعتقلات عبد الناصر إلى حرب ١٩٥٦م، حيث سلمت

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٣٩؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة الفلسطينية، ص٣٥، ٣٦؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٧١.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٧٥، ٧٦.

هذه الملفات إلى قوات الاحتلال الإسرائيلي»[1].

وفي ظل هذا اليأس العام والفراغ التام، بدأ في العام التالي (١٩٥٧م) شبابٌ فلسطينيون في تكوين حركة جديدة، هي حركة فتح التي تأسست في الكويت، التي كان قد كثر فيها الفلسطينيون آنذاك، وستبقى هذه الحركة تسع سنوات حتى تبدأ عمليتها العسكرية الأولى في (ديسمبر ١٩٦٤م)، وهذه الحركة ستبدأ بداية إسلامية اعتمادا على شباب الإخوان المسلمين، لكنها ستنتهي إلى أن تكون حركة علمانية لظروف وأسباب سنأتي إليها فيما بعد إن شاء الله.

وإن واحدة من عيوب دراستنا المختصرة هذه أنه لا يمكن توفية موضوع اللاجئين حقه، وهو واحد من المآسي المريرة التي ارتبطت بالمجتمع الفلسطيني، فلقد تمزقت العائلة الواحدة وتبعثرت أشلاؤها بين دول عدة بل بين قارات بحسب ما أتيح لكل واحد من الظروف ومستوى التعليم والموهبة والفرصة، وقد وجد اللاجئون في كل دولة عربية أصنافا وأشكالا وأنواعا من الإذلال والتحقير والإقصاء، وكثيرا ما كانوا يُعاملون معاملة أدنى من بقية الأجانب فضلا عن أن يكونوا مواطنين، فلم توجد دولة عربية واحدة عملت على الاستفادة من طاقات الفلسطينيين على قاعدة المساواة التامة مع أهل البلد، إنما تفاوتت المعاملة بين السيئ والأسوأ، وتلك مأساة تؤثر على كل الحياة بداية من السفر والتعليم والعلاج والعمل والسكن وحياة الأطفال وحتى دفن الموتى! وفوق ذلك كله فقد كان اللاجئون في فترات الاضطراب السياسي والحروب ضحية حاضرة تدفع الثمن وتتعرض للمحن. ومع الإقرار التام بأنه لا يمكن إحسان فهم القضية الفلسطينية دون معايشة وفهم قضية اللاجئين، فإن ضرورات الاختصار والانتقاء والاختيار التي نضطر إليها في دراسة كهذه تجبرنا على الاكتفاء بهذه الإشارة السريعة، دون التعمق في هذا الملف المرّ!

---

(١) جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية، ط٢ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨م)، ص٩٣.

أوضاع البلاد العربية بعد نكبة ١٩٤٨

أثارت النكبة موجة عنيفة من الانقلابات والاغتيالات والثورات في المنطقة، لا سيما في دول الطوق، وتعددت تفسيرات النكبة وأسبابها، ومن ثم تعددت الطرق إلى المستقبل. وتداخلت هذه الموجة الذاتية النابعة من سخط عربي وإسلامي عارم، مع موجة أخرى غربية، وهي موجة الوراثة الأمريكية السوفيتية للنفوذ البريطاني والفرنسي في المنطقة. فاكتظت المنطقة بالفاعلين والمغامرين والتنظيمات والسياسات المتشابكة، ووجد الفاعلون داعمين خارجيين، كما وجد الداعمون بيئة ومناخا وعناصر كثيرة يمكن البناء فيها واستثمارها، لهذا كله تعد سنوات ما بعد النكبة من أكثر السنوات زخما وارتباكا وحراكا في العالم العربي لا سيما منطقة الشام ومصر والعراق، ولكن النتيجة النهائية كانت للغالبين المتفوقين، وهم المنتصرون في الحرب العالمية الثانية: الأمريكان والاتحاد السوفيتي.

وتعد قضية فلسطين من الأدلة الواضحة على أن مجمل الانقلابات والتغيرات التي شهدتها المنطقة العربية لم تثمر في النهاية تغيرا في صالح الشعوب العربية، ولا كانت خروجا من النفوذ الأجنبي، وذلك أنه بالرغم من تغير الأنظمة الملكية إلى جمهورية، ورغم تبدل الملوك، وكذلك تقلب الرؤساء، إلا أن الموقف من فلسطين ظل ثابتا، لم يمسَّ أحدٌ إسرائيل بسوء، ولم يبذل أحدهم جهدا حقيقيا لتحرير فلسطين أو دعم أهله[١]. ولأن المقام لا يسمح بالتطويل، فنكتفي هنا بإلقاء النظر على الأوضاع في دول الطوق: مصر والأردن وسوريا ولبنان، وذلك لوضوح تأثيرها في مسار القضية.

☼ ☼ ☼

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٥.

(١) مصر

قبل أن تضع حرب ١٩٤٨م أوزارها، انقضت السلطات المصرية على جماعة الإخوان المسلمين، التي كانت القوة الضاربة في المتطوعين للجهاد في فلسطين، فصدر القرار بحل الجماعة ومصادرة أموالها واعتقال قياداتها والكثير من أعضائها، بمن فيهم أولئك المتطوعون الذين كانوا يقاتلون إسنادا للجيش المصري[١]، ورفعت شعار: الإخوان أخطر من الصهاينة[٢]، وما ثمة قليل حتى اغتيل حسن البنا مؤسس الجماعة وزعيمها لتدخل الجماعة في مرحلة من التيه بعد هذه الضربة القاسية.

ولكن مجموعة في الجيش المصري، بقيادة جمال عبد الناصر، استطاعت البناء على المجهود السابق للإخوان وللشيوعيين وغيرهم، ونفذت انقلابا عسكريا استولت به على السلطة، وهي عملية مدبرة أمريكيا لوراثة الاستعمار الإنجليزي في مصر، وهو ما كان، وبهذا الانقلاب انتقلت مصر من النفوذ البريطاني إلى النفوذ الأمريكي.

ومع أن جماعة الإخوان كان من أسس تنفيذ هذا الانقلاب عبر أعضائها في الجيش، حتى إن أخطر مهمتيْن: حصار قصري الملك الأساسيين في القاهرة والإسكندرية تولاهما عضوين من الإخوان، رغم ذلك فقد تلقت الجماعة ضربة ساحقة تماما على يد عبد الناصر بعد تمكنه من اختراقها وتشتيت قيادتها.

وانفرد عبد الناصر بحكم مصر تماما، وافتتح فيها حقبة شديدة الظلم والسواد والفساد، حتى أطلق على عهده بحق «عصر المظالم والهزائم»[٣]،

---

(١) من أبرز الكتب التي سجلت جهاد كتائب المتطوعين من الإخوان المسلمين: كتاب كامل الشريف «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، وكتاب حسين حجازي «جماعة افتدت أمة»، وكتاب محمود الصباغ «حقيقة التنظيم الخاص ودوره في دعوة الإخوان المسلمين».

(٢) محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص، ص٣٥.

(٣) هذا تعبير المؤرخ المصري د. أحمد شلبي في الجزء التاسع من موسوعته: موسوعة التاريخ الإسلامي.

فقد كان هذا العصر أشد قسوة من عصر الاحتلال الإنجليزي بما لا يُقارن به، ولم ينتصر عبد الناصر في معركة واحدة قط، وقد فرط في الوحدة مع السودان فانفصلت السودان عن مصر، وجاءته الوحدة مع سوريا فلم يستطع أن يحفظها ثلاث سنوات ثم فقدها، ثم هُزِم في حرب اليمن، وهُزِم في حربين أمام إسرائيل، ومات وقد فقدت مصر: السودان وقطاع غزة وسيناء! وهذا فضلا عن التدهور الذي أصاب البلد في سائر المجالات: السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والأخلاق وغير ذلك.

ومع الصراخ الكثير الغزير عن تحرير فلسطين وعن الدولة المزعومة ونحو ذلك فإن عبد الناصر لم يفكر أبدا في الهجوم على إسرائيل[١]، بل نقل عنه تفكيره في السلام مع إسرائيل لولا أنه خاف من اغتياله كما حصل لعبد الله ملك الأردن[٢]، وأنقص ميزانية الجيش في السنوات الأولى لحكمه[٣]، وبقي نفس القادة العسكريين الذين هُزِموا في (١٩٥٦م) حتى هُزِموا مرة أخرى هزيمة أشد وأنكى في (١٩٦٧م)، وكان الجيش وبقية مؤسسات الدولة في حالة مريعة من الفساد والانحطاط.

☼ ☼ ☼

(٢) سوريا

افتتحت سوريا عهد الانقلابات العسكرية في البلاد العربية، وكانت انقلاباتها هي الوسيلة والأذرع التي تستند إليها القوى الاستعمارية، فقد شهدت سوريا ثلاثة انقلابات عسكرية متوالية في عام واحد فحسب: انقلاب حسني الزعيم (مارس ١٩٤٩م)، انقلاب سامي الحناوي (أغسطس ١٩٤٩)، انقلاب أديب الشيشكلي (ديسمبر ١٩٤٩م).

---

(١) محمد حسنين هيكل، قصة السويس: آخر المعارك في عصر العمالقة، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، ١٩٨٢م)، ص٢٢.

(٢) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ص١٧٦.

(٣) هيكل، قصة السويس، ص٢٢.

وقد حاول أديب الشيشكلي أن يحكم من خلف ستار مدني، فلما أخفق في هذا نفَّذ انقلابه الثاني، وهو الانقلاب العسكري الرابع، (نوفمبر ١٩٥١م) لينفرد بالحكم العسكري الشمولي حتى جرى انقلاب آخر عليه (فبراير ١٩٥٤م) بقيادة فيصل الأتاسي أطاح بحكم الشيشكلي، وسلَّم السلطة إلى المدنيين لتعيش سوريا ما يُسمى «ربيع الديمقراطية» لمدة ٤ سنوات.

وفي (عام ١٩٥٨م) بادر شكري القوتلي إلى مصر بمشروع الوحدة، ومع أن عبد الناصر لم يكن مرحبا بهذا، إلا أنه لم يجد بدا من الاستجابة له، فوقع الاتحاد بين مصر وسوريا وصار الاسم الجديد «الجمهورية العربية المتحدة»، لكن هذه الوحدة ما لبثت أن انهارت بعد ثلاث سنوات فحسب، حيث جرى انقلاب عسكري (١٩٦١م) على السلطة المصرية التي عاثت فسادا وطغيانا في سوريا، واستسلم عبد الناصر لذلك الانقلاب، وبهذا يكون عبد الناصر ـ بسياساته الفاسدة أولا، ثم باستسلامه وانسحابه ثانيا ـ قد ضيَّع فرصة ذهبية أخرى لا تقدر بثمن في الاتحاد بين أهم بلدين عربيين، وفي ذلك الوقت العصيب.

وفي عام (١٩٦٣م) جرى انقلاب عسكري نفذته اللجنة العسكرية التابعة لحزب البعث، لتدخل البلاد في عهد البعث الحديدي العنيف، وازداد الأمر سوءًا بعد انقلاب عسكري داخلي آخر (١٩٦٦م) أطاح بالحرس القديم من البعثيين وتسبب في انقسام حزب البعث بين العراق وسوريا، ثم انقلاب داخلي آخر (١٩٧٠م) بقيادة حافظ الأسد أطاح بآخر أطلال المدنيين وبقايا الحياة السياسية لتبدأ حقبة طغيان شنيعة هي أسوأ ما مرَّ على بلاد الشام في سائر تاريخها.

وبهذا الاستعراض السريع العابر يبدو واضحا أن سوريا لم تكن على استعداد ولا لديها فرصة لمد يد عون إلى فلسطين، بل على العكس، لقد حاول حسني الزعيم، وهو زعيم الانقلاب الأول، أن يمدَّ يده بالسلام إلى إسرائيل مع التطبيع الكامل وتبادل السفراء وتوطين ثلاثمائة ألف لاجئ

فلسطيني في سوريا، لكن بن جوريون رفض ذلك إذ أراد أن يستولي على كل بحيرة طبرية لا أن يتقاسمها مع السوريين، ولأنه لا يريد اتفاقيات ترسم حدود أضيق من طموحاته الواسعة في أرض إسرائيل المنشودة[١]!

☼ ☼ ☼

(٣) الأردن

على نقيض الحال في سوريا المضطربة، وبخلاف الحال في مصر والعراق حيث انقلب النظام الملكي إلى جمهوري، تمتعت الأردن بأكثر النظم استقرارا ورسوخا، وظلت البلد الوحيد الذي لم يتغير نظام الحكم فيه، بل ولا تغيرت فيه الأسرة الحاكمة، وإنما استمر الحكم مع الملك عبد الله ثم في نسله من بعده، وما كان ذلك لأنه نظام يتمتع بالرضى الشعبي أو بالقوة الذاتية، فكلا هذين الأمريْن: هشٌّ وضعيف، وإنما أمسكت به قوى الاحتلال أن يزول! إذ بقي نظام الأردن هو الأكثر طواعية وخدمة وإخلاصا للقوى الأجنبية، وأثبت هذا عبر تجاوبه التام وتناغمه المستمر مع مصلحة الأجانب لا سيما في فلسطين.

ما إن وضعت حرب ١٩٤٨ أوزارها، وبدأ الملك عبد الله في حكم الضفة الغربية، إلا وقد انكشف للجميع مدى انسجام هذا الملك مع الإنجليز والصهاينة، وكيف أنه أحد الأضلاع الأساسية في خيانة فلسطين، وقد زاد من تسليط الضوء على هذه الخيانة وتفظيعها ما للملك من عداوات مع أنظمة مصر والسعودية وسوريا، ثم ما له من عداوة مع الحاج أمين الحسيني الذي هو أبرز قائد فلسطيني، وقد تضافر هذا كله ليقضي عليه، فبينما هو ذات جمعة يصلي في المسجد الأقصى إذ اغتاله مقدسي عند عتبات الجامع (٢٠ يوليو ١٩٥١م) لتكون أول عقوبة تنزل بحاكمٍ خائنٍ لفلسطين!

---

(١) الأمير عادل أرسلان، المذكرات، تحقيق: د. يوسف أيبش، ط٢ (الشوف: الدار التقدمية، ٢٠٠٩م)، ٨٣٩/٢، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٦؛ يوجين روجان، العرب، ص٣٤٨، ٣٤٩.

وقد أورد حفيده الذي صار ملكا فيما بعد، الحسين بن طلال، أن الملك عبد الله قد توقع هذا الاغتيال، الذي كان هذا الحفيد شاهدا عليه، وأن كثيرين آخرين كانوا يتوقعونه أيضا بمن فيهم السفير الأمريكي، ولقد هالَ الحفيدَ سرعةُ انفضاضِ حاشيةِ الملكِ وفرارُهم عنه لحظةَ الاغتيال[١].

ألقى هذا الاغتيال بآثاره الكبرى في نفوس بقية الحكام العرب، حتى إن عبد الناصر كشف عن خشيته أن يُغتال إذا أقدم على السلام مع إسرائيل[٢]، بل اضطر النظام الأردني نفسه فيما بعد أن يسلك سبيلا آخر يداري فيه خيانته المتأصلة وينهج نهجا علنيا عروبيا، ويمكن القول بأن عملية الاغتيال هذه كان لها الفضل في تعطيل قطار التطبيع العلني العربي مع إسرائيل لنحو ثلاثين سنة! وتعطيل قطار التطبيع الأردني لنحو أربعين سنة!!

تولى الحكم بعد عبد الله ابنه طلال، وكان في الثانية والأربعين من عمره، لكنه سرعان ما أزيح عن الحكم بعد أقل من سنة بسبب ما قيل من اختلال عقلي، وأُودع مصحة خارج البلاد لأكثر من عشرين سنة حتى وفاته، وتلك واحدة من ألغاز التاريخ العربي المعاصر، إذ لا يُعرف حتى الآن ما حقيقتها، ويتردد كثيرا أنه لم يكن مطواعا للإنجليز كأبيه[٣]، وأن هذا هو السبب في تآمر جلوب باشا (الإنجليزي الذي يشغل منصب قائد الجيش الأردني) وتوفيق أبو الهدى (رئيس وزراء الملك عبد الله ومن رجال الإنجليز).

تولى بعد ذلك ابنه الملك الصغير الحسين الثاني، وكان لا يزال في السابعة عشرة من عمره، واستمر في الحكم لنحو نصف قرن بعد ذلك (١٩٥٢ ـ ١٩٩٩م)، فكان على سيرة جده في التماهي والانسجام مع

---

(١) الملك حسين، مهنتي كملك، ترجمة: غالب عارف طوقان، (الشركة العربية للطباعة، ١٩٧٨م)، ص٣٦ وما بعدها.

(٢) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ص١٧٦.

(٣) يؤيد هذا بعض ما نُقل عنه، ينظر مثلا: مذكرات أمين الحسيني، ص٣٨.

الإسرائيليين، ونقل ولاءه إلى الأمريكان بعد غروب القوة البريطانية، وكشفت مصادر عديدة أنه كان مُسجَّلًا ضمن عملاء المخابرات الأمريكية، فله اسم حركي ورقم كودي وراتب دوري معروف[١].

ويعد نظام الأردن واحدا من أخطر الأنظمة العربية وأكثرها مكرا ودهاءً وخبثا، وقد حملته الظروف التي نشأ فيها على أن يسلك سبيل المناورة الخدَّاعة في سائر ملفاته؛ وذلك لعدد من الأسباب الداخلية والخارجية، من أبرزها:

١. أنه نظام حكم ضعيف ليست له جذور طبيعية اجتماعية في هذه الأرض وإنما نشأ وساد عليها بقوة الاحتلال البريطاني

٢. ثم إنه يحكم بلدًا صغيرًا فقير الموارد صُنِع صناعةً فما كان يمكنه أن يستمر في حكمها لولا تعلقه بالحبل السري البريطاني ثم الأمريكي، وكذلك: الإسرائيلي.

٣. وبالرغم من أن القومية العربية بدأها الجد الأكبر للملك حسين: الشريف حسين بن علي، والتحف بها أيضا الجد المباشر: الملك عبد الله بن الحسين؛ إلا أن الظروف أخذت لواء القومية العربية فجعلته مرفوعا في مصر وسوريا والعراق. وهذه كلها بلاد كثيرة العدد غنية الموارد وزعماؤها قد طمحوا بقدر ما سمحت لهم شخصياتهم وظروفهم بالزعامة العربية، وبالقضية الفلسطينية، وهو ما يجعلهم في مواجهة نظام الأردن.

٤. وهذه الأنظمة الثلاثة: مصر والعراق وسوريا هيمنت عليها أنظمة اقتربت من الشيوعية والاشتراكية والاتحاد السوفيتي، فكان الأردن وحده هو الموصول المتصل بالأمريكان وبالمعسكر الغربي، فكان ذلك من أهم

---

(١) واشنطن بوست، بتاريخ ١٧ فبراير ١٩٧٧م. وينظر: محمد حسنين هيكل، كلام في السياسة: قضايا ورجال، ط٧ (القاهرة: المصرية للنشر، نوفمبر ٢٠٠٢م)، ص١١٧ وما بعدها، ١٣٣ وما بعدها.

عوامل الاحتكاك والتجاذب والخصومة والعداوة.

٥. أن النظام الأردني يحكم شعبا أغلبيته من الفلسطينيين؛ فالعائلات والقبائل كانت متصلة عبر ضفتي نهر الأردن قبل الاحتلال الإنجليزي ونشأة الأردن، ثم لما احتلت فلسطين سيطر النظام الأردني على الضفة الغربية وتمسك بها، فضلا عمن هُجِّر من أهل فلسطين فأقام في الأردن أو في الضفة الغربية.

لكل هذا سار النظام الأردني سيرة التمثيل والمخادعة والمناورة، فهو عروبي اللسان والشعارات لكن سياساته وولاءه صهيونية أمريكية، وهو قد فتح أبوابه وبعض مناصبه للإسلاميين الهاربين الفارين من جحيم أنظمة مصر وسوريا والعراق لا لحبه فيهم بل لتحصين الناس عنده من أن ينقلبوا عليه استجابة لزعامة عبد الناصر أو غيره، ثم هو يتاجر بقضية فلسطين ويسمح ببعض التحركات والمساحات المحسوبة لا لإيمانه بهذا السبيل الجهادي بل لممارسة الاحتواء والتنفيس وامتصاص الطاقات الملتهبة المنادية بجهاد الصهاينة وتحرير فلسطين. وكلما مضت الأيام ازداد النظام قوةً فأغلق ما استطاع من هذه المساحات المتاحة أمام الإسلاميين أو أمام الفلسطينيين.

وقد ترتب على هذا أن كانت الأجهزة الأمنية الأردنية أقوى وأخطر من الجيش الأردني، وربما كانت أخطر الأجهزة الأمنية العربية إطلاقا، فلم يكن فيها العنف الغالب كما هو حال أجهزة العراق وسوريا ومصر والجزائر، بل كانت أجهزة أكثر احترافا ونعومة وكفاءة أيضا.

وبهذا استطاع الأردن أن يكون أفضل وسيلة تأمين لإسرائيل التي يشترك معها في أطول حدود (٦٥٠ كم)، مع أنه يحتوي أكثرية فلسطينية متشوقة للجهاد، ومع أنه يعطي مساحة للإسلاميين ولحركات المقاومة الفلسطينية. إنه نموذج متميز في دفن كل حركات التحرر والحركات الإسلامية بقيود الاحتواء الناعمة لا بالبطش والتنكيل الشرس، وليس معنى هذا أنه لم يكن شرسا حين تتاح له الفرصة، بل المعنى أن الدهاء والخبث

والمكر كانوا أكبر في سياسة النظام الأردني من البطش والتنكيل.

ونموذج الأردن هذا هو ما جعل بقية الأنظمة في مصر وسوريا والعراق، ومعهم بعض الفلسطينيين أيضا، تتعلل وتتعذر به في أنه يعطل مشاريعها لتحرير فلسطين[١]. وكلا الطرفيْن صادقٌ إذا سرد جرائم الطرف الآخر، ولكن الكل مجرمون، وليس منهم شريف ولا نزيه ولا بريئ!

وبهذا كان النظام الأردني منذ نشأ وإلى لحظة كتابة هذه السطور على سجية واحدة[٢]، عبَّر عنها في النهاية رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي بنيامين نتنياهو في مذكراته حيث قال: «بقاء المملكة الأردنية الهاشمية بمثابة مصلحة حيوية لإسرائيل، ولو اقتضى الأمر، فسننزل بجيوشنا للحيلولة دون سقوطها»[٣].

وأهم الخلاصات التي يمكن استخلاصها من أوضاع الدول العربية، فيما يخص فلسطين، أن هذه الدول:

١. لم تسع حقيقةً إلى الوحدة، بل حرص كل نظام على تثبيت نفسه، وتعميق هويته الوطنية المحلية، حتى وإن كان يتغنى بالقومية العربية! ويرفع شعار «الوحدة طريق التحرير»! يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

٢. لم تسمح هذه الدول للفلسطينيين المهجرين إليها بالعمل الجاد على تحرير فلسطين، ولا سمحت بالحركة الطبيعية للزعامات الفلسطينية أو

---

(١) ينظر مثلا في سرد مواقف الملك حسين: أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ١٣٩٢/٥ وما بعدها. وفي رواية الملك حسين يُنظر: الملك حسين، مهنتي كملك، ص٢٠٤ وما بعدها، ٢١٢ وما بعدها.

(٢) من المفيد هنا أن نشير إلى الوثيقة التي نشرتها صحيفة هاآرتس الإسرائيلية (٧ سبتمبر ٢٠٢٣م) والتي تكشف أن الملك حسين التقى بنفسه جولدا مائير قبيل حرب أكتوبر (١٩٧٣م) ليخبرها بأنه قد وصلته معلومات مؤكدة حول نية سوريا شن حرب على إسرائيل! ونشرت الصحيفة هذه الوثيقة للدلالة على عمق العلاقات بين الملك وإسرائيل!!

(٣) Benjamin Netanyah, BIBI: My Story, 3rd edition (New York: oct. 2022), p. 296.

للشباب، بل على العكس لقي الفلسطينيون من تلك الحكومات من الاضطهاد مثل ما لقيه أهل هذه البلاد أو أشد!

٣. حاولت الدول الكبرى، لا سيما مصر وسوريا والعراق أن تجعل فلسطين ملفا تابعا لها تساوم به وعليه! مما مزَّق وفرَّق بين الفلسطينيين واتجاهاتهم، وأنبت فيهم الغيرة والحزازات وأثار في نفوس الطامحين فرص التصدر للزعامة وإزاحة غيره.

٤. لم تفكر دولة من هذه الدول العربية في حرب إسرائيل ولا في تحرير فلسطين.. بل جند كل نظام قوته الأمنية والعسكرية في تثبيت حكمه وقهر الناس في بلده، وفوق ذلك انتهت هذه الحقبة بالنكبة الثانية، وهي نكبة لا تقل خطرا ولا فظاعة بل تزيد عن النكبة الأولى، نعني بذلك نكبة العام ١٩٦٧م.

نكبة ١٩٦٧ وانفجار التوسع الإسرائيلي

لا تزال كثير من أسرار هذه الحرب طي الكتمان، رغم مرور نحو ستين عاما على حدوثها، ذلك أن الأنظمة العربية التي كانت قائمة في ذلك الوقت لا تزال مستمرة حتى الآن، وهي أنظمة لا تنشر وثائقها، مما يجعل المؤرخ معتمدا على مذكرات شهود العيان التي سمح لها بالنشر، وعلى الأبحاث الأجنبية المتعلقة بالموضوع.

نكبة ١٩٦٧

من المثير للدهشة في هذه الحرب أن عبد الناصر اندفع إليها كأنه مستعد، ثم تلقى ضربة كاسحة ساحقة كأنه لم يفكر فيها ولم تخطر له على بال!! ولم يكن الأمر متعلقا بمصر وحدها، فقد اجتاحت إسرائيل في يوم واحد، ٥ يونيو ١٩٦٧م، أراضي أربعة دول عربية:

١. مصر: فاحتلت منها قطاع غزة (الذي كان تحت السيادة المصرية) ثم احتلت شبه جزيرة سيناء التي كانت مساحتها أكبر من مساحة إسرائيل ذاتها! وهي ضعف مساحة كل فلسطين!

٢. سوريا: فاحتلت منها هضبة الجولان ذات الموقع الخطير والمهم والمحصن طبيعيا.

٣. الأردن: فاحتلت منها الضفة الغربية التي كانت تحت السيادة الأردنية

٤. وأما الدولة الرابعة فهي فلسطين، وذلك وفق التقسيم المعاصر، وبالأحرى: ما بقي من فلسطين، ونعني بذلك قطاع غزة والضفة الغربية، القطعتان الباقيتان اللتان فرطت فيهما القوات المصرية والأردنية، ثم تخلتا عنهما فيما بعد نهائيا.. فكانت بذلك واحدة من الخيانات الكبرى في تاريخنا المعاصر: سيطرتا عليهما بشعارات القومية العربية، فلما سلَّمتهما لإسرائيل، تركوهما واعتنقوا شعارات الوطنية!!

سميت حرب الأيام الستة، إلا أن ساعاتها الست الأولى كانت حاسمة، ولذلك توصف هذه الحرب بأنها «أعظم نصر تحقق في أي صدام من نوعه منذ انهيار الإمبراطورية البيزنطية أمام العرب»[١]!

انطلقت شرارة الحرب حين أغلق عبد الناصر مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية، فعرف المصريون للمرة الأولى أن إسرائيل تبحر سفنها في المياه المصرية منذ (١٩٥٦م)، وكان هذا الإغلاق بمثابة تصعيد عسكري خطير، ثم أردف ذلك بأن طلب الرحيل من قوات البوليس الدولي التي تفصل بين الحدود المصرية والإسرائيلية، وهو ما يعني صراحة أنه ينوي شنَّ حرب، ولكنه لم يفعل بعد ذلك أي شيء للاستعداد للحرب، وهو ما جعل كثيرا من المؤرخين يرى أن عبد الناصر أراد التهديد والتصعيد لكي يستجلب تدخلا دوليا فيطلب لنفسه بعض المكاسب المالية أو السياسية، فلما فوجئ أن تصعيده هذا لم يجلب له أحدا، بل فوجئ أن قوات البوليس الدولي رحلت بالفعل، لم يدرِ ماذا يفعل!

وهكذا ظلت القوات المصرية في حالة شلل، ليس لديها أي نوع من الاستعداد، بل استدعي جنود الاحتياط وألقي بهم في أتون المعركة وهم لا يعرفون أين الحدود ولا أين اليهود[٢]!!

بل لقد كتب فيلسوف عبد الناصر والناطق باسمه محمد حسنين

---

(١) جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية، ص٢٣.

(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٦٠.

هيكل، أن مصر قررت تلقي الضربة الأولى!! وليتهم حين قرروا تلقيها استطاعوا التعامل معها أو تفاديها، بل الواقع أن الضربة الأولى كانت ساحقة، كأنما كانت مفاجأة!!

بدأت الحرب بتدمير شامل لسلاح الطيران المصري الذي كان رابضا مصفوفا في المطارات، عاريا دون أية حماية، كأنما كان مُعَدًّا للذبح، والتدمير، وهو ما حصل بالفعل في واحدة من أغرب الوقائع العسكرية التاريخية، وبعد ذلك صدرت الأوامر العسكرية للجنود المصريين بالانسحاب العاجل من سيناء دون أية خطة، فكانت القوات المنسحبة بلا غطاء دفاعي ولا خطة ذبيحةً أخرى مكشوفة للطائرات الإسرائيلية، وللقوات البرية، فأخذ الإسرائيليون في قصف هذه الأرتال العسكرية جنودا ومعدات كأنهم يمارسون نوعا من هواية الصيد، فقتلوا أكثر من عشرة آلاف وأسروا بسهولة أكثر من خمسة آلاف أسير، قتلوا بعضهم ودفنوهم في مقابر جماعية، واحتفظوا بآخرين، وأطلقوا آخرين في وضع غاية في الإذلال والإهانة.

وقد زاد في الأزمة والصدمة أن الصحافة المصرية وكذلك الإذاعة المصرية كانت لا تفتأ تبث أخبار الانتصارات المصرية على قوات العدو، وتذيع أخبارا عن سقوط طائرات العدو واحتراق دباباته وتراجع قواته حتى ظن العرب جميعا أن الجيش المصري على وشك أن يدخل تل أبيب!

لم يستفق أحد من هذا الوهم إلا حين خرج جمال عبد الناصر في يوم ٩ يونيو ١٩٦٧، بعد أربعة أيام، ليعلن الهزيمة ويعرض على الناس قرار تنحيه بصيغة «يتمنعن وهن الراغبات»، حيث قال: «اتخذت قرارا أريدكم أن تساعدوني فيه» وأعلن أنه يتحمل «نصيبه من المسؤولية»، وعهد بالحكم من بعده لوزير الداخلية وصندوقه الأمني الغامض: زكريا محيي الدين. فاندلعت المظاهرات الشعبية، وبعضها كان مصنوعا مدبرا، يطالب عبد الناصر بالبقاء، فعاد عبد الناصر كأنما قد استجاب لرغبة الشعب، وانتهز الفرصة لتصفية القيادات الأخرى، فقتل صديقه الأثير عبد الحكيم

عامر قائد الجيش وأعلن أنه انتحر، وتتبع رجاله في الحكم وفي الجيش، وأعاد تشكيل القيادات العسكرية، وبدأ سياسته التي أسماها «إزالة آثار العدوان».

وفي هذه الأثناء كانت إسرائيل قد استكملت احتلال سيناء، واستفادت من وجود قناة السويس، فمكثت وراءها، كمانع مائي صعب ومكشوف، ثم بنت على الضفة الشرقية منها ساترا ترابيا بمثابة مانع آخر، وخلفه خط دفاع عسكري حصين عرف بخط بارليف نسبة إلى مهندسه، فكان وضعا عسكريا بالغ الصعوبة والعسر.

لئن كانت نكبة ١٩٤٨م قاسية عنيفة وصادمة، فلقد كانت مُتَوَقَّعة عند كثيرين، لما سبقها من تمهيد الإنجليز، ولوجود الهيمنة الأجنبية على الدول العربية، ولكون الجيوش العربية قليلة وضعيفة التسليح وخاضعة للنفوذ الأجنبي أو القيادات الأجنبية. أما النكبة في ١٩٦٧ فقد كانت صاعقة وصادمة، لم يكد يتوقعها أحد، فقد استقلت هذه البلاد، ورفعت شعارات القومية العربية، وتكاد أن تكون قد سلمت بزعامتها لعبد الناصر، وصدح عبد الناصر وإعلامه كثيرا بمسؤوليتهم عن تحرير فلسطين، وبث خطابا إعلاميا خطيرا حول القدرات العسكرية الخارقة التي امتلكتها مصر من الصواريخ والأسلحة، فما كان أكثر المتشائمين والمبغضين لعبد الناصر يتصور أنه يمكن أن تقع نكبة كهذه، وبتلك السرعة، حتى لكأن الجيش والأسلحة والمعدات تبخرت واستحالت رمادا، وها هو العدو الذي كنا نؤمل أن نقتحم عليه تل أبيب قد صار على بعد ساعتين من القاهرة!!

وأما في سوريا فقد جرى بسهولة احتلال الجولان، مع أنه هضبة مرتفعة يكاد يستحيل احتلالها لو وُجِد الجيش الذي عنده أدنى قدر من اليقظة والاستعداد، وقُتِل في ذلك ألفٌ من الجنود السوريين.

وأما في الأردن فقد كانت العلاقة الممتازة والمتميزة بين الملك حسين وبين الإسرائيليين والأمريكان مما يمنع الملك أن يَظُنَّ بحلفائه سوءا، بل لقد بدأت اللقاءات السرية بين الملك وبين قيادات صهيونية،

وكان هذا في ذلك الزمن جريمة عظمى محرمة لا يجرؤ على التفكير فيها أحد! وبلغ من قوة العلاقة أن أخبرت إسرائيل الملك حسينا قبلها بأيام أو في صباح اليوم نفسه[١]، ولكن بعد منتصف هذا اليوم اجتاحت القوات الإسرائيلية الضفة الغربية التي كانت تحت السيادة الأردنية، ولم تحفظ للملك عهدا ولا كرامة.. هذا إن لم يكن اجتياحها بالاتفاق بين الطرفين كما يتوقع البعض، والله أعلم! فما شيء بمستبعد على هذه الأنظمة، ولا على النظام الأردني خصوصا. وقتل أكثر من ستة آلاف جندي أردني، وصار نهر الأردن هو الخط الفاصل بين الأردن وبين إسرائيل، وبهذا الاجتياح تكون آمال الملك الراحل عبد الله (جد الملك حسين) في توسيع حدود الأردن قد دفنت وإلى الأبد.

وبهذا سقط المسجد الأقصى، ثالث أقدس المساجد الإسلامية، بيد الاحتلال الصهيوني، «دون أن يُقتل حوله عشرة من الشباب أو من الجيش الأردني»[٢].

سرعان ما نسفت إسرائيل حي المغاربة في القدس، وهو الملاصق للمسجد الأقصى بعد ستة أيام من بدء الحرب (١١ يونيو ١٩٦٧م) بعد طرد عاجل لسكانه، وجعلته ساحة للعبادة اليهودية أمام حائط البراق (يسمونه: حائط المبكى)، ثم أعلنت بعد اثني عشر يوما (٢٧ يونيو ١٩٦٧م) أن القدس صارت مدينة موحدة تحت السيادة الإسرائيلية، ثم طفقت بسرعة وانتظام في بناء المستوطنات اليهودية الجديدة في القدس الشرقية، وفي مصادرة المباني الأثرية والتاريخية الإسلامية أو هدمها، وفي بناء كنُس جديدة ملاصقة للمسجد الأقصى، وفوق ذلك كله: بدأ برنامج خطير للحفر تحت المسجد الأقصى، وهو الأمر الذي ظل يتزايد ويتوسع حتى لهو الآن يشكل خطرا حقيقيا على انهدام المسجد، الذي تأثرت

---

(١) انظر بعض التفاصيل لدى: محمد حسنين هيكل، كلام في السياسة، ص١٢٧ وما بعدها.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٣٨/١.

بالفعل كثير من جدرانه وأسواره، وظهرت فيها التشققات. وقد نفذت محاولة خطيرة لإحراق المسجد الأقصى (٢١ أغسطس ١٩٦٩م).

سقوط القومية والناصرية

قضت سنة الله في خلقه أن الأفكار تذيع وتنتشر حين تفوز وتنتصر، وأنها تنكمش وتنحسر حين تنهزم وتنكسر، فما من انتصار كبير ولا هزيمة كبيرة إلا وتبعته موجة فكرية موافقة لنتائج المعركة، وكما هي سنة الله في خلقه، ضربت الهزيمةُ العسكريةُ الأفكار السائدة في مقتل، فكانت هذه الهزيمة بداية انقشاع للأفكار الناصرية والقومية والشيوعية التي سادت مصر وأكثر بلاد العرب في عهد عبد الناصر، وقد أدرك هذا بعضُ العلماء فسجدوا لله شكرا عند وقوع هذه النكبة[١].

وكان الحال قد وصل إلى أن يُنشر الكفر الفاجر جهرة في وسائل الإعلام الحكومية، فضلا عن موجة من الانحلال الأخلاقي والإباحية التي كانت تدفقها وسائل الإعلام والأفلام والمسلسلات ونحوها، حتى كأن الناظر لهذه البلاد في ذلك الزمن يتوقع انقراض الإسلام منها على الجملة. فقد كتب إبراهيم إخلاص في جريدة الجيش السوري قبل شهر من النكبة الثانية يقول: «إن الله والرأسمالية والإمبريالية وكل القيم التي سادت في المجتمع السابق أصبحت دمى محنطة في متاحف التاريخ»[٢]، وكان الذي يحمل كتابا إسلاميا يصير كالمجرم في نظر المجتمع الذي كان مفتونا بعبد الناصر مسحورا به[٣].

ومن أخطر ما ترتب على هذه النكبة الثانية، فيما يخص موضوعنا الآن وهو تاريخ فلسطين، عدة أمور من أهمها:

---

(١) ذكر هذا الشيخ الشعراوي عن نفسه في مقطع مرئي شهير ومنتشر على الانترنت.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٣٩/١.

(٣) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٨، ٨١ وما بعدها.

١. تكسر وتفتت صنم عبد الناصر والناصرية والقومية العربية العلمانية[١].

٢. بدأت الأفكار الإسلامية تبزغ من جديد، لا سيما في مصر والشام[٢].

٣. شعر الفلسطينيون بالخديعة والغدر حين اكتمل ضياع بلادهم على يد هذه القوات العربية التي لطالما اضطهدتهم وأخذت من أموالهم ووعدتهم بالتحرير القريب والعودة الوشيكة إلى ما ضاع من بلادهم، وتشكلت قناعة جديدة بأن لا أمل في هذه الأنظمة العربية ولا في هذه القومية العربية على الجملة. وهو ما أعطى دفقة جديدة للمعنى الوطني الفلسطيني، وتسبب في إقبال على الفصائل الفلسطينية التي حملت على عاتقها عبء مواجهة الاحتلال.

٤. بدأت السلطة المصرية، لأول مرة، تذهب إلى نوع من التعاون مع حركة المقاومة الفلسطينية، من بعد صدٍّ وصدود ومحاولات اختراق، وشرعت سلطات عربية أخرى في ذلك أيضا، فيم بقيت أنظمة أخرى على حالها من التوجس أو حتى العداوة[٣].

إسرائيل القوة الأولى في الإقليم

حققت إسرائيل في هذه الحرب جملة من المكاسب الحاسمة في تاريخها، ويمكن اعتبار أن حرب ١٩٦٧ تمثل ذروة قوتها وصعودها العسكري في المنطقة، وذلك لعدد من الاعتبارات:

١. إن كانت إسرائيل قد نشأت برعاية بريطانية ودعم استعماري قوي، فإنها في هذه الحرب قد أثبتت أنها تستطيع النمو والصعود بنفسها

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٩٤؛ فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ١/١٧٩.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٥١، ٨٥٢.

(٣) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٨٨، ٩٦ وما بعدها.

وبقوتها الذاتية ودون الاعتماد على قوة عظمى.

٢. وإن كان بقاؤها قد ظل محل شك في الفترة التي تلت الإعلان عنها في (١٩٤٨م)، حيث لم يصدق كثيرون أنه من الممكن أن تعيش بلد صغير في وسط محيط عربي معادٍ لها، فإنها أثبتت في هذه الحرب أنها دولة مؤهلة للنمو والتوسع والتمدد، ومن ثَمّ فيمكن المراهنة عليها في إبرام اتفاقيات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية.

٣. ثبّتَتْ إسرائيل مكاسبها التي حصلت عليها في حرب (١٩٤٨م)، فلم يعد يتحدث أحدٌ في أروقة السياسة عن إزالة إسرائيل، بل صارت المطالبات السياسية حتى بعد ستين سنة من هذه الحرب تنحصر في العودة إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧م.

وقد تحولت إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ لتصير القوة الأولى في الإقليم بغير منازع، ذلك أنها استطاعت أن تجتاح الدول المحيطة بها في وقت متزامن، ومن ثَمَّ فقد وضعت نفسها باعتبارها الحليف الوحيد الذي يمكن المراهنة عليه، ففيما قبل هذه الحرب يمكن لقوة عظمى مثل أمريكا أن ينقسم رجالُ إدارتها حول مدى النفع في المراهنة على إسرائيل أو المراهنة على الأنظمة الأخرى التابعة لهم، إذ إن إسرائيل مهما تمتعت بدعم فإنها تظل دولة غريبة ومغروسة بالقهر في منطقة لا تتقبلها، وهو ما يعود بالضرر في المستقبل المتوسط والبعيد على المصالح الأمريكية.

ومن جهة أخرى: يمكن لدولة أخرى في المنطقة، مثل: مصر أو تركيا أو إيران، وهذه الدول الثلاثة كانت في ذلك الوقت تابعة تماما للأمريكان وطامحة لأن تكون القوة الإقليمية الأهم، ولديها من إمكانيات العدد والسكان والموارد ما لا يمكن مقارنته بما لدى إسرائيل ـ يمكن لدولة من هذه أن تقدم نفسها باعتبارها الأنفع والأصلح لقيادة المنطقة ولحماية المصالح الأجنبية، فتكون بذلك الحليف الأهم للأمريكان. بهذه الحرب قطعت إسرائيل الطريق على أية قوة عربية أن تكون منافسة لها في العقل الاستعماري.

وأسفرت الحرب عن تهجير أكثر من ثلاثمائة ألف فلسطيني آخرين، ومع أن هذا العدد ضخمٌ كبير، إلا أنه بالمقارنة بما حصل في النكبة الأولى (١٩٤٨م) وبمراعاة مرور الزمن يعد قليلا، وذلك أن ذاكرة الشعب الفلسطيني كانت في النكبة الأولى تستدعي ما حصل في الحرب العالمية الأولى حين هجر كثير من الناس قراهم لظروف الحرب ثم عادوا بعدها، فظن هؤلاء أنهم إذا خرجوا فإنهم يعودون بعد أن تدخل الجيوش العربية وتدحر العصابات الصهيونية، فأما في عام (١٩٦٧م) فقد كانت ذاكرة الشعب قد استوعبت تجربة النكبة الأولى، وأن اليهود قد احتلوا البلاد وهجروا أهلها ويريدون الإقامة فيها، فلهذا تصلب كثيرون في أراضيهم وقراهم ومدنهم فلم يخرجوا. وقد ساعد على ذلك أن إسرائيل نفسها لم تكن تنفذ في هذه الأثناء عملية إحلال وتهجير على نحو ما فعلت في ١٩٤٨م، بل كانت تتوسع توسعا أكبر من قدرتها البشرية والسكانية، وهو توسع مفاجئ ليس تدريجيا على نحو ما كان في النكبة الأولى.

وكان من أثمن ما حصَّلته إسرائيل أرشيفي الجهازيْن الأمنييْن: المصري والأردني، وما فيهما من أسماء المقاومين وأبطال العمل الفدائي، وكان هذا واحدًا من الخسائر الخطيرة التي فتت في عضد المقاومة في مرحلة ما بعد النكبة الثانية (١٩٦٧م)، وأوقعت الكثير من الأبطال بأيدي الإسرائيليين[١]. فضلا عن أنها وجدت بيئة نفسية ومعنوية ضعيفة، قد كثر فيها من يمكن تجنيده وإسقاطه، بسبب غياب الوعي الإسلامي نتيجة لضرب الإسلاميين ومطاردة الإسلام في ذلك الوقت[٢].

وشيئا فشيئا، استطاعت إسرائيل، بالترغيب والترهيب وبشتى الوسائل العسكرية والأمنية، السيطرة على خلايا المقاومة في الأرض المحتلة، حتى خمدت المقاومة عند عام (١٩٧٣م) تقريبا[٣].

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٠٠.
(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٦٩.
(٣) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٨، ٧٩.

لهذه المكاسب الإسرائيلية الحيوية، اقترح بعضهم أن يُنصب لعبد الناصر تمثال ضخم.. في إسرائيل! فلولاه لم تكن لها أن تبلغ هذا الذي بلغته كله[1].

(١) جلال كشك، ثورة يوليو الأمريكية، ص٢٣، ٦١٤.

عملية الاستسلام والتطبيع

بدأت مناوشات عسكرية متقطعة على خط قناة السويس بين القوات المصرية والإسرائيلية، عرفت بـ «حرب الاستنزاف»، وفيها وصلت إسرائيل إلى قصف مناطق في أقصى الجنوب المصري، ونفذت بعض الوحدات عمليات خلف خطوط الإسرائيليين، إلا أن هذه المناوشات لم تغير شيئا مهما، وانتهت بقبول عبد الناصر لمبادرة روجرز لوقف إطلاق النار، ثم مات عبد الناصر، وتولى الحكم بعده: نائبه أنور السادات، ودخلت البلاد في حالة اللا سلم واللا حرب.

حرب أكتوبر

بعد ثلاث سنوات من تولي السادات الرئاسة في مصر، استطاع فيها القبض على زمام الحكم والتخلص من رجال عبد الناصر، شنَّ الجيش المصري هجوما مفاجئا على سيناء، استطاع به عبور قناة السويس، ونقل وحداته إلى الضفة الشرقية للقناة، ومعها نقل معدات الدفاع الجوي إلى شاطئ القناة بحيث استطاع الجيش المصري احتلال منطقة بعرض عشرة إلى خمسة عشر كيلومترا!

وفي ذات الساعة شنت القوات السورية هجوما على جبهة الجولان، وحققت فيه تقدما مفاجئا، ولكن سرعان ما استعاد الإسرائيليون زمام الموقف على الجبهة السورية، فصدوا هجوم القوات السورية، وطاردوها حتى استعادوا مواقعهم التي فقدوها على وقع المفاجأة، ودخلت الطائرات

الإسرائيلية إلى العمق السوري وقصفت بعض المناطق في دمشق، وعادت الجبهة السورية إلى ما كانت عليه، بل إلى أسوأ، لأنها لم تعد تضمن إلى أي حد سيتمادى الجيش الإسرائيلي.

وأما على الجبهة المصرية فقد سارت الخطة كما هو مرسوم لها لستة أيام، وفيها بقي الجيش المصري متمسكا بمواقعه التي حررها، وممتنعا عن التقدم وفق ما هو مقرر له، وذلك أن الخطة قد بُنِيت على أساس أن إسرائيل لا تتحمل حربا طويلة لكونها تستنفر معظم الطاقة الشعبية مما يوقف حركة الاقتصاد، كما أن شبه جزيرة سيناء الفسيحة ليس فيها مكان لاختباء الجيش الإسرائيلي، وبهذا فإذا عجز عن الاحتافظ بكل شبه الجزيرة فسيضطره هذا إلى الانسحاب.

وبعد هذه الأيام بدأت الاضطرابات والانهيارات، فقد قرر السادات ورغما عن القادة العسكرية أن يتوغل الجيش في سيناء، وهو ما كان يُخرجه من مجال صواريخ الدفاع الجوي التي تؤمنه من قصف الطيران الإسرائيلي، ومع أن القادة العسكريون رفضوا قرار السادات إلا أنه أصرَّ عليه، وما إن توغل الجيش حتى فقد أكثر من نصف دباباته (٢٥٠ من ٤٠٠ دبابة هي مجموع ما يملكه الجيش) فيما عرف بمذبحة الدبابات. والأخطر من هذا أن هذا التوغل قد أدى إلى حصول ثغرة في صفوف القوات الإسرائيلية تمكنت فرقة إسرائيلية من استغلالها والعبور إلى غرب قناة السويس وتطويق قسم من الجيش المصري (الجيش الثالث)، وبهذا صار الطريق مفتوحا أمام الإسرائيليين إلى القاهرة أيضا.

واستحال النصر الذي تحقق في الأيام الأولى إلى هزيمة، وعند هذه اللحظة ألقت أمريكا بثقلها لتقرر وقفا لإطلاق النار، وبهذا ينتهي مشهد الحرب على الجبهة المصرية، فيمكن أن يقال في أحسن الأحوال إنه تعادل، ويمكن أن يقال بلا مبالغة إن النهاية كانت هزيمة للجيش المصري، وأن إسرائيل امتصت المفاجأة واستعادت زمام المبادرة.

ما جرى بعد الحرب من أحداث كثيرة دفع كثيرين للتشكيك في

أهداف السادات وخططه؛ ترى هل كان يشن حربا حقيقية لتحرير الأرض إلا أنه انهزم وفوجئ بالقوة الإسرائيلية وبالدعم الأمريكي اللا محدود لها فقرر أن يتراجع ويطلب السلام، أم أنه كان من البداية يريد حربا لتحريك الموقف، ويكتسب من خلالها شرعية تجعله يطلب السلام من موقف قوة؟

ما تزال الدلائل تتكاثر عن أن السادات أرادها حرب تحريك، ليتخذها وسيلة ومدخلا إلى السلام مع إسرائيل، ومن أبرز هذه الأدلة:

١. ما ذكره العديد من قادة حرب أكتوبر، من أن السادات كان يقول لهم قبل الحرب: أريد فقط أن تحرروا لي ١٠ سنتيمترات شرق القناة[١]، ثم اتركوا الباقي لي. وهو ما يشير إلى نية مبيتة، وربما خطة مدبرة لتحريك الموقف ثم المبادرة إلى السلام. وقد ذكر هذا أيضا بعض الشخصيات الأخرى التي قابلت السادات قبيل الحرب من غير قادة أكتوبر[٢].

٢. أن السادات ذكر المبادرة إلى السلام واستعداده لزيارة إسرائيل قبل أن تنقلب الكفة في ميدان المعركة، ففي ذلك الوقت كان سائر الناس والمتابعون يترقبون تقدم الجيش المصري، حتى لقد كان المتشائم يترقب تحرير سيناء بينما كان المتفائل يترقب تحرير القدس! وبينما الأمر كذلك إذ فوجئ الجميع بخطابه الذي يبادر إلى السلام وإلى زيارة إسرائيل.

٣. سلوك السادات في مراحل مفاوضات السلام، وتنازلاته غير المعقولة، والتي أدت إلى استقالة وزيرين للخارجية ومسؤولين آخرين، كانت تدل على إصرار غير مفهوم على تتميم اتفاقية السلام ومعاهدة التطبيع بأي ثمن ومهما حدث. بل لقد كان يقول بوضوح وإصرار، يكزُّ بذلك على أسنانه: «حرب أكتوبر هي آخر الحروب»، وهو إعلان يضر بموقفه السياسي حتى في المفاوضات نفسها!!

---

(١) محمد فوزي، حرب أكتوبر دراسة ودروس، ط مكتبة الأسرة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م)، ص١٢٤.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٩٥، ١٩٦، ٢٠٠.

٤. برود السادات تجاه الخروقات الإسرائيلية السياسية والعسكرية في أثناء مراحل المفاوضات، وبعدها: كقصف العراق وإعلان القدس عاصمة موحدة لإسرائيل، وكلها أمور محرجة للغاية سياسيا. وفي المقابل: كان السادات يتعامل بتعالٍ واستخفاف وغطرسة ظاهرة مع الدول العربية الأخرى.

٥. التحول الذي دشنه السادات نحو التغريب سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وحرصه التام على البقاء في المعسكر الغربي بزعامة أمريكا.

كل هذه الأمور وغيرها، حمل كثيرين على القول بأن حرب أكتوبر لم تكن سوى وسيلة وذريعة لإدخال إسرائيل إلى العالم العربي ولكن بطريقة تبدو مُشَرِّفَة غيرَ مُهينة[١]، وهو الأمر الذي أدركه من البداية بعض من وهبهم الله البصيرة[٢]، لتكون النتيجة النهائية لحرب أكتوبر في أحسن أحوالها أنها نصف نصر عسكري حوَّلته السياسة إلى هزيمة كاملة! وبه خرجت إسرائيل صوريا من سيناء لتدخل إلى القاهرة عبر بوابة «السلام»!

وفي ذلك الوقت كان الوجدان الشعبي المصري يحسب أنها معركة تحرير فلسطين، بل لم يكن يشعر بأن سيناء محتلة قدر ما يشعر بأن فلسطين محتلة[٣]!

والعادة أن يُنسى نصيب المقاومة الفلسطينية إبان حرب أكتوبر، ولئن كانت مشاركة الفدائيين لا تظهر في ضجيج حرب الجيوش إلا أنها كانت مهمة أيضا، وقد حرص السادات والأسد على الاستفادة من الفدائيين

---

(١) موشيه ساسون، ٧ سنوات في بلاد المصريين، ط١ (القاهرة ـ دمشق: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤م)، ص٢٣٤؛ إيرا م. لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، ترجمة: فاضل جتكر، ط ٢ (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١١م)، ٨٥٩/٢.

(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٩٧؛ رفاعي طه، والآن أتذكر، ص٨٠.

(٣) رفاعي طه، والآن أتذكر، تحرير: محمد إلهامي، هدية العدد ٣٤ من مجلة كلمة حق (نسخة إلكترونية، مايو ٢٠٢٠م)، ص٧٠.

المنضوين تحت «جيش التحرير الفلسطيني»، وكان بين السادات وقيادة منظمة التحرير تنسيق، ونفذ الفدائيون نحو مائة عملية سواء على جبهة الجولان أو الجليل الأعلى، وذهبت كل المحاولات عبثا أمام محاولات التفاهم مع الأردن، فقد أصرَّ الملك حسين أن تبقى حدوده هادئة[١]! وما هذا بغريب عليه!

الانقلاب المفاجئ نحو «السلام»

إذا استعرضنا جذور محاولات السلام مع إسرائيل، فلن تبدو محاولة السادات مفاجئة؛ وقد أشرنا فيما مضى إلى محاولة حسني الزعيم في سوريا إبرام سلام مع إسرائيل وترسيم الحدود بينها وبين سوريا، إلا أن بن جوريون لم يرض بذلك إذ كان طامعا في الاستيلاء على كل مياه بحيرة طبرية. وقد سبقت تلك المحاولةَ محاولةٌ أخرى قام بها النظام المصري في عهد الملك فاروق[٢].

ومع أن حديث السلام في ذلك الوقت كان بمثابة ارتكاب الخيانة العظمى إلا أن الأجواء كانت مشبعة بهذا الشعور، ولهذا نرى نذيرا مبكرا (منذ ١٩٥٣م) من شخصيات إسلامية، مثل سيد قطب الذي قال في محاضرة أقيمت في القدس الشرقية: لا نريد من الجيوش العربية أن تحرر فلسطين، وكذلك محمود الصواف قال في نفس المحاضرة: اليد التي ستمتد بالسلام إلى إسرائيل ستُقطع[٣].

في هذا السياق، إذن، لم يكن السادات هو أول من سعى إلى السلام العلني مع إسرائيل، لكنه سيكون أول من «نجح» في هذا المسار.

ويجب ألا ننسى أن العلاقات السرية الناشئة بين إسرائيل وعدد من القيادات كانت قديمة، منذ الملك عبد الله ملك الأردن، ثم حفيده الملك

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٠٢.

(٢) موشيه ساسون، ٧ سنوات في بلاد المصريين، ص٣٢ وما بعدها.

(٣) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٤٨.

حسين، وكذلك الملك المغربي الحسن الثاني[١] ورجله القوي الجنرال محمد أو فقير[٢]، وآخرين.

أما إذا نظرنا عبر سياق آخر، فسنرى أن السادات قد انقلب انقلابا مفاجئا في سعيه نحو «السلام»، فإذا رأينا أن سائر الذين عرضوا السلام على إسرائيل قد أخفقوا في الحصول عليه بسبب التعنت الإسرائيلي، بل زادت إسرائيل الطين بلة بتوسعها واجتياحها الدول العربية ١٩٦٧، ثم الرفض العارم لها واعتبارها عدوا أبديا تتوق الشعوب إلى حربها، ثم الإنجاز الذي تحقق في أيام أكتوبر فثبت أن الحق لا يُسترد إلا بالقوة.. في ظل هذا السياق، كان خطاب السادات الذي بادر فيه إلى السلام وأعلن استعداده الذهاب إلى إسرائيل بمثابة قنبلة مفاجئة وصدمة قاسية للجميع.

برر السادات هذا الموقف بأنه لا يطيق حرب أمريكا، بل أعلن أن أمريكا تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة، وأكمل طريقه في هذا السعي دون أن يأبه بمعارضة داخلية أو عربية، بل وعزل من المناصب العسكرية سائر القيادات التي شاركت في حرب أكتوبر!

وبدأت سلسلة من الجلسات والمفاوضات، انتهت إلى اتفاقية كامب ديفيد (١٩٧٨م) وإلى توقيع معاهدة السلام (١٩٧٩م)، وخلاصة الوضع الذي تفرضه هذه الاتفاقية والمعاهدة فيما يؤثر على قضية فلسطين، كالآتي:

١. تجريد سيناء تقريبا من التواجد العسكري المسلح الذي قد يُمَكِّن

(١) يروي صلاح خلف أن الملك المغربي الحسن الثاني كان أول من اقترح على عرفات لقاء سريا مع ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودي العالمي. صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٣٠٩.

(٢) بلغت العلاقة بين أوفقير والإسرائيليين حدًّا أُسَريًّا، فقد روت ابنته مليكة أوفقير في كتابها «السجينة» أن ابن موشى ديان كان من أصدقائها، وذكرت أن أباها كان سعيدا بهذه الصداقة. ينظر: مليكة أوفقير، السجينة، ترجمة: غادة الحسيني، ط١ (بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٦م)، ص٨٨، وينظر أيضا: ص٢٨٤، ٢٨٩، ٣١٤.

من شنّ هجوم على إسرائيل، والاحتفاظ بقوات محدودة وبتسليح خفيف. ومن ينظر إلى خريطة انتشار القوات على جانبي الحدود يرى بوضوح أن قدرة إسرائيل على إعادة احتلال سيناء تفوق بكثير قدرة المصريين على الدفاع عنها. بل قد صارت سيناء على الحقيقة منطقة عازلة تحتمي خلفها إسرائيل.

٢. تمكين الإسرائيليين من الدخول إلى سيناء بغير الحاجة إلى إذن وتصريح من السلطات المصرية، وهو الأمر الذي لا يتمتع به أكثر المصريين في الوصول السهل إلى سيناء.

٣. تبادل السفراء وإنشاء علاقات طبيعية بين البلدين، وهو ما يفتح الباب لعلاقات اقتصادية وثقافية بل ولتعاون أمني وعسكري، وقد حصل هذا بالفعل وتطور حتى بلغ ذروته في لحظة كتابة هذه السطور (مع حكم عبد الفتاح السيسي).

ولما قُتِل السادات بعد عامين من توقيع معاهدة السلام (١٩٧٩م) استمر خَلَفه حسني مبارك على سياسته في تثبيت السلام رغم كل الخروقات الإسرائيلية للمعاهدة، ورغم عربدتها الواسعة في المنطقة، وقد حكم حسني مبارك مصر لثلاثين سنة، تحول فيها السلام مع مصر إلى سياسة راسخة وثابتة.

كان أخطر ما ترتب على هذا التطبيع المصري الإسرائيلي أن انسحبت مصر من معركة فلسطين، وخلعت عن نفسها ثوب العروبة وشعارات القومية، وارتدت ثوب الوطنية الضيقة، لتصير قضية فلسطين مجرد «قضية وطنية» يحمل عبئها الفلسطينيون وحدهم.

وهنا يمكن أن نفرق بين ثلاث مسارات لإنشاء التطبيع بين الدول العربية وبين إسرائيل، وهي:

١. التطبيع العلني كما هو في حالة مصر.

٢. العلاقات السرية غير المعلنة بين الأنظمة العربية وبين إسرائيل.

٣. الدعوات العلنية إلى سلام دائم وشامل مع إسرائيل مشروط بانسحابها إلى حدود ١٩٦٧.

فأما مسار التطبيع العلني الذي افتتحه السادات فقد سار بطيئا ومترددا بفضل مقتل السادات في (٦ أكتوبر ١٩٨١م)، حيث كان اغتياله على يد بعض الإسلاميين في الجيش المصري مفزعا ومفجعا لكل من يفكر في إبرام سلام مع إسرائيل، مما عطل قطار التطبيع العلني لأربعين سنة تقريبا، بل كان لهذا الاغتيال فضلٌ في أن يسير التطبيع المصري على مهل وأن يظل في المستوى الرسمي والسياسي دون المستوى الشعبي، بل لقد تأخر التطبيع والتعاون العسكري والأمني والاقتصادي بين مصر وإسرائيل[(١)]، والاستثناء الوحيد من هذا هو الأردن التي دخلت في اعتراف ومعاهدة مع إسرائيل في منتصف التسعينات (١٩٩٤م) أي بعد ثلاث عشرة سنة من اغتيال السادات، وظل تطبيع الأردن أيضا مرتعشا ومترددا وخفيا في مستوى السياسة وأجهزة الأمن دون المستوى الإعلامي العلني، بل على العكس: ظل هذا المستوى الإعلامي والعلني مؤيدا بقوة للحقوق الفلسطينية ومنددا بقوة بالجرائم الإسرائيلية.

وبعد هذه الأربعين سنة، جاءت موجة تطبيع جديدة مع انكسار ثورات الربيع العربي، افتتحته الإمارات في مطلع العقد الثالث من الألفية الجديدة، ثم تبعتها البحرين والمغرب والسودان.

وفي لحظة كتابة هذه السطور لا يزال الحديث جاريا حول التطبيع العلني بين إسرائيل والسعودية، ولكون السعودية دولة غنية ومؤثرة وذات نفوذ وعندها الحرمان الشريفان فإن التطبيع معها سيعني جرَّ بقية البلاد العربية وعددا من البلاد الإسلامية التي لم تُطَبِّع العلاقات مع إسرائيل حتى الآن.

---

(١) ينظر في تفصيل هذا: موشيه ساسون، ٧ سنوات في بلاد المصريين، ص١١٤ وما بعدها، ١٢٤، ١٥٩، ٢٧٥، ٢٧٦.

وأما مسار العلاقات السرية غير المعلنة، فقد استمر في دهاليز السياسة، ولقد كانت العلاقات مستمرة ومفتوحة بين إسرائيل وبين الأردن والمغرب.

وأما مسار المبادرة والدعوات العلنية إلى سلام دائم مشروط بالانسحاب الإسرائيلي فقد جاء سريعا بعد التطبيع المصري، وافتتحه ولي العهد السعودي الأمير فهد بن عبد العزيز في عام (١٩٨١م) بإطلاق هذه الدعوة، ومع أنها كانت دعوة صادمة أيضا لكونها تفتح باب الاعتراف بإسرائيل والتسليم بما استولت عليه في ١٩٤٨م، إلا أن فهدا سار فيها، بل لقد عُرضت هذه المبادرة في القمتين العربيتيْن المنعقدتيْن بفاس المغربية (١٩٨١، ١٩٨٢م) وحصلت على أغلبية التأييد، فصارت بهذا مبادرة عربية، إلا أن إسرائيل لم تأبه لذلك ولم تستجب له!

ثم أعاد الملك عبد الله، ملك السعودية، ذات المبادرة بعد عشرين سنة، وعرضت مبادرته على القمة العربية في بيروت (٢٠٠٣م)، وحصلت على التأييد مرة أخرى، ولكن إسرائيل كررت موقفها ولم تحفل بذلك.

وضع فلسطين بعد انسحاب مصر من المعركة

من جهة حسابية عمياء، تمثل مصر دولة من بين ثلاث وعشرين دولة عربية، لكنها من جهة الواقع تمثل ربع العرب من حيث العدد، فهي أقوى دولة عربية، فانسحابها من معركة عربية لا يساوي انسحاب دولة من بين ثلاث وعشرين دولة، بل يساوي انسحاب ربع القوة العربية. وفضلا عن ذلك فإن موقعها الملاصق لفلسطين وإسرائيل يجعل قيمتها في هذه المعركة ترتفع لتبلغ ثلاثة أرباع القوة العربية أو أكثر، فإن مصر وحدها، أكبر من بقية دول الطوق مجتمعة، وحتى بالمنطق الوطني الضيق بل وبالمنطق العلماني الخالي من كل معاني الدين والعروبة، تظل فلسطين قضية أمن قومي حساسة وخطيرة بالنسبة إلى مصر.

لذلك كان انفراد السادات بإبرام السلام مع إسرائيل صدمة عنيفة لكل العالم العربي، لا سيما للفلسطينيين، فقبل كامب ديفيد لم يكن أحد منهم يتصور شيئا مثل هذا، بل قال الرجل الثاني في منظمة التحرير: «لا يمكن لأية دولة عربية أن توافق على تسوية بدوننا، ولا يمكنها أكثر من ذلك أن تقر بتسوية ضدنا»[١]، ولكنه عاد ليقول بعدها: «لم تكن حرب تشرين (أكتوبر) بالنسبة إلينا نحن الفلسطينيين، كما بالنسبة لمجمل الأمة العربية، إلا انقشاعة قصيرة الدوام. وبدلا من أن تشق طريق تحرير الأراضي المحتلة فإنها عززت النفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط ويسَّرت مؤامرات تصفية المقاومة الفلسطينية»[٢].

كذلك كان انفراد السادت بإبرام السلام مع إسرائيل انتعاشة قوية للدولة الصهيونية، منحتها الفرصة للعربدة في المنطقة بأكثر مما كانت عليه قبلها، فجرت محاولة لنسف المسجد الأقصى (١ مايو ١٩٨٠م)، ثم أعلنت إسرائيل أن القدس هي العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل وجعلت هذا بمثابة المادة الدستورية غير القابلة للتعديل (٣٠ يوليو ١٩٨٠م)، وقصفت المفاعل النووي العراقي (يونيو ١٩٨١م) بعد ثلاثة أيام من لقاء لمناحم بيجين مع السادات في شرم الشيخ، ثم اجتاحت لبنان (١٩٨٢م) حتى بيروت، ونفَّذت بنفسها أو عبر حلفائها من نصارى لبنان عددا من المذابح كان أضخمها مذبحة مخيم صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين (١٦ ـ ١٨ سبتمبر ١٩٨٢م) راح ضحيتها ما بين ألف وثلاثة آلاف فلسطيني، وكما يقول الوزير السعودي غازي القصيبي في مذكراته: «أثبتت أزمة لبنان أن الأمة العربية بدون مصر لا تستطيع أن تدخل أي مجابهة عسكرية مع إسرائيل. كان «تحييد» مصر في النزاع العربي الإسرائيلي بمثابة الضوء الأخضر الذي ترك إسرائيل تصول وتجول في المنطقة»[٣].

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٣.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢١١، وينظر ص٣٢٦.

(٣) غازي القصيبي، الوزير المرافق، ص٢٠٢.

وأخطر من هذا أن النظام المصري لم يفعل شيئا لردع هذا الإجرام، بل تفاجأ السفير الإسرائيلي في مصر بأن أقصى ما فعله المصريون بعد مذبحة صبرا وشاتيلا أنهم سحبوا السفير المصري من إسرائيل، مع إرسالهم رسالة إلى الأمريكان تطمئنهم أنهم لن يصعدوا أكثر من ذلك، وكان هذا الإجراء هو أدنى ما يتوقعه الإسرائيليون من مصر[١].

وحتى قطاع غزة، الذي احتله الصهاينة من مصر، لم يعد النظام في مصر ترى أنه مسؤول عن تحريره كما كان السبب في احتلاله، بل تركه ليكون قضية فلسطينية.

وبهذا صارت فلسطين على الحقيقة في حالة من اليُتْم، إذ تجردت وسُلِخت عن أمتها العربية والإسلامية منذ الاحتلال الإنجليزي، ثم جاء مصطفى كمال فألغى الخلافة وخلع انتماء الإسلام فانسلخ من مسؤولية تحرير فلسطين، وتشتت هذه المسؤولية بين دول لا ترى إحداها أنها مسؤولة عن ذلك. ثم جاءت أنظمة القومية العربية فلم تُعْطِ لفلسطين إلا شعارات وخطبا حتى سلَّمت بقيتها للصهاينة، ثم جاءت أنظمة السلام والتطبيع فتركتها تحت الاحتلال ونفضت يدها من مسؤولية التحرير!

تلك هي النتيجة التي يخلص إليها من يقرأ صفحات التاريخ العلني، أما إذا توغل إلى التفاصيل، واستحضر ما تكشف عنه الوثائق ومذكرات شهود العيان، فإن النتيجة الواضحة أن فلسطين لم تسقط بمجرد الخيانة التي هي بمعنى الخذلان والتخلي وإسلامها للعدو، بل سقطت بالخيانة التي هي بمعنى مشاركة العدو ومواطأته والتآمر معه على فلسطين، بل على البلدان نفسها في مقابل الاحتفاظ بالعرش والتمكن منه!

وقد شرع الإسرائيليون في بناء المستوطنات وتكثير الوجود اليهودي في غزة وفي الضفة الغربية، وبدأت موجة محمومة من استيلاء الإسرائيليين على الأرض والمياه والموارد، ولم يجد الفلسطينيون سبيلا

(١) موشيه ساسون، ٧ سنوات في بلاد المصريين، ص١٦٠، ١٦٦.

إلا أن يعملوا لدى الإسرائيليين، بل شرع الإسرائيليون في تطبيع وجودهم ضمن برامج متعددة المستويات تمكنهم من تبديل النسيج الاجتماعي وغزو أفكاره!

لم يعد أمام الفلسطينيين سوى أن يعملوا بأنفسهم على استعادة بلادهم مع أنها معركة مستحيلة، ذات ميزان قوة منهار تماما أمام قوة العدو الكاسحة ودعمه اللا محدود من القوى الدولية، ومع خيانات الأنظمة العربية التي أقلها: خيانة الخذلان والتخلي. ومع أن الفلسطينيين لم يتركوا المقاومة يوما، إلا أنهم بعد عهد السلام والتطبيع افتتحوا موجتهم الأقوى في المقاومة.

عصر المقاومة

شهد تاريخ البشر العديد من الفصول التي استطاع فيها الغالب المتفوق إبادة الشعوب التي احتلها أو إخضاعها تماما حتى الذوبان، مثلما هو الحال في الشعوب الأصلية في أستراليا والأمريكتين، التي أبيدت شعوبها أو أذيبت في حضارة المحتل حتى انقرضت واختفت، ومثلما وقع أيضا من إبادة المسلمين وتنصيرهم في الأندلس وبعض مناطق أوروبا الشرقية. حين يتسلح العدو بفارق ضخم في القوة ويكون هدفه الإحلال والاستيطان ـ ليس مجرد الاستعمار والاستعباد للشعوب ـ فإنه قد ينجح في إنهاء المقاومة وحسم المصائر.

ولربما كان بالإمكان أن يتكرر هذا في فلسطين، لولا أنها تحتوي على بيت المقدس والمسجد الأقصى الذي هو آيات في كتاب الله، وجزء من عقيدة المسلمين، ومقدَّس لا يمكن إزالته ولا استئصاله من نفوس المسلمين، ولهذا كانت المقاومة لهذا الوجود الصهيوني تستند إلى أصل عميق وركن شديد، وقد نفعها هذا في ظروف قاسية كانت جديرة أن تؤدي إلى الإبادة والإخضاع التام.

وقد حمل لواءَ المقاومة في فلسطين فصائلُ إسلامية وفصائلُ غير إسلامية، وغلب عليها غيرُ الإسلاميين في حقبةٍ، ولكن هذا العمق الإسلامي لقضية بيت المقدس هو ما جعل المقاومة في فلسطين تؤول وتفضي إلى الحركات الإسلامية، من بعد ما ذبلت وضعفت سائر

الاتجاهات الأخرى، وبعض هذه الاتجاهات تراجع ونكص على عقبيه وعمل في خدمة الاحتلال كما سنرى. كما كان هذا العمق الإسلامي هو السند القائم للمقاومة الإسلامية في كل أوقاتها حتى في العهد الذي غلبت فيه حركات المقاومة غير الإسلامية.

حركات المقاومة غير الإسلامية

أشرنا فيما سبق إلى أن المقاومة الفلسطينية بعد النكبة استمرت كخط صغير متقطع يقوم به متطوعون، حتى انتهى بعد حرب (١٩٥٦م)، وقد برز الإسلاميون من أبناء الإخوان المسلمين في هذه المقاومة، وبرز منهم كمال الشريف، وشارك فيها العديد من أبناء قطاع غزة وسيناء.

وذكرنا أن العام التالي (١٩٥٧م) قد شهد تأسيس حركة فتح في الكويت، وتزعمها: ياسر عرفات، إلا أن الحركة التي بدأت إسلامية تعتمد على شباب الإخوان المسلمين قد انتهت إلى الانفتاح على بقية الاتجاهات حتى صارت علمانية تماما، وأنها قامت بأول عملياتها العسكرية في آخر العام (١٩٦٤م).

قبل أن تأخذنا القصة، ينبغي أن نرى عددا من الأسباب والروافد قد عملت على أن يسعى الفلسطينيون إلى تشكيل مقاومة فلسطينية تستقل عن الأنظمة العربية، من أهمها:

١. تحقق اليأس من الأنظمة العربية التي بدا أنها لن تفعل شيئا لفلسطين، لا سيما مصر التي هوجمت من إسرائيل بالفعل في (١٩٥٦م)، ولم تتحرك خطوة باتجاه التحرير.

٢. ألهم نجاح الثورة الجزائرية في التحرر من فرنسا الساحة الفلسطينية، فقد ضرب هذا نموذجًا لقدرة شعبٍ منفردٍ بنفسه على تحقيق استقلاله دون أن تدخل إليه الجيوش العربية، ودون أن ينتظر هو تحقق الوحدة العربية التي رفع القوميون شعارها: الوحدة طريق التحرير، فقد

ظهر بالمثال الجزائري إمكانية حصول التحرير قبل الوحدة[١].

٣. حصول القناعة بأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة الباقية لإعادة جمع الشعب على القضية، وفرضها على الواقع الدولي كله.

٤. اشتعال الحاجة وتحقق الشعور بضرورة الحركة والانتقال من الكلام والخطب والشعارات التي تكاثرت وتكدست على ألسنة الأنظمة والأحزاب بمختلف توجهاتها، والتي لم تتحول بعد ولا يوجد أفق أن تتحول إلى حركة وعمل[٢].

وأما بقية القصة فتبدأ من ياسر عرفات، زعيم حركة فتح، والذي كان واحدا من الطلاب الفلسطينيين المقيمين في مصر، وكان مقربا من الإخوان المسلمين، وكان يتزعم رابطة طلبة فلسطين التي كان يفوز بزعامتها الإسلاميون أو من يدعمونه حتى (١٩٥٧م) قبل أن تُنْكَب الحركة الإسلامية في مصر وتنتهي بفعل الضربة الناصرية القاصمة. وكان خليل الوزير ـ الذي صار الرجل الثاني في فتح لثلاثين عاما تالية ـ من شباب الإخوان في قطاع غزة، وممن خاض عمليات مقاومة تحت زعامة كمال الشريف، إلا أن النظام الناصري اعتقله مرتين، ونفاه من غزة إلى القاهرة، فأغلق عليه السبيل، فانتقل من القاهرة إلى السعودية ومنها إلى الكويت ليكون أحد مؤسسي حركة فتح.

وبالنظر في مؤسسي فتح، يظهر واضحا أنهم كانوا من الإخوان المسلمين، مثل: سعيد المزين وغالب الوزير وسليم الزعنون وصلاح خلف

---

(١) عن تأثير ثورة الجزائر في شباب الحراك الفلسطيني في ذلك الوقت، ينظر: صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٧؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة الفلسطينية المعاصرة، ط١ (دمشق: دار دلمون، ٢٠٢٢م)، ص٣٦، ٤٠ وما بعدها، ٥٣، ٥٧. على أننا سنعود لمناقشة مسألة المشابهة بين وضع الجزائر ووضع فلسطين في الخلاصات التي وضعناها آخر هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٥٣، ٦٧ وما بعدها؛ إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص١٠٧.

وأسعد الصفطاوي ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان ورفيق النتشة، وغيرهم. بل إن حركة فتح ظلت تضم إلى نفسها عناصر الإخوان المسلمين حتى (١٩٦٣م) قبل أن تنفتح على غيرهم من التيارات والتوجهات[١].

إذا كان ياسر عرفات مقربا من الإخوان المسلمين، وكان الرجل الثاني من شبابهم، وكان المؤسسون والأعضاء من الإخوان، فلماذا لم تكن فتح حركة إسلامية إخوانية؟ بل كيف انتهت إلى أن تكون حركة علمانية؟!

ثم كيف غاب الإسلاميون عن صفحة تاريخ المقاومة في ذلك الوقت حتى انبعثوا في نهاية الثمانينات مع الانتفاضة الفلسطينية الأولى؟!

والجواب عن ذلك أن الضربات الساحقة التي نزلت بالحركات الإسلامية كانت قد قضت عليها تماما، لا سيما في المعقليْن العظيميْن: مصر والشام؛ ففي مصر تعرضت الحركة الإسلامية لضربة قاتلة في عصر عبد الناصر في ١٩٥٤، ثم أخرى أشد في ١٩٦٥ وانتهت بإعدام الشهيد الكبير: سيد قطب (١٩٦٦م)[٢]، وتكرر الأمر في سوريا حتى لقد صدر قانون يقضي بالإعدام على كل من ينتمي إلى الإخوان، واستمرت موجات المحنة في سوريا لعشرين سنة حتى منتصف الثمانينات تقريبا[٣]، وبعد استيلاء إسرائيل على الضفة والقطاع جرى ترحيل الكثيرين من الشخصيات الإسلامية التي خشوا أن يمثل وجودهم بذرة مقاومة[٤]. وعلى الجانب الآخر: اتخذ الأردن موقفا مغايرا، وهو موقف الاحتواء، ويرجع ذلك لهشاشة استقرار النظام الأردني داخليا، ثم لخوفه من الابتلاع والهيمنة القومية التي تعيش ذروتها في مصر والعراق وسوريا. كذلك وجد

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٥، ٧٦؛ إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٦٨؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٧٨.

(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٦٦، ٧٧.

(٣) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٥٠.

(٤) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧١، ٧٢.

الإسلاميون في الأردن ملجأ لهم من هذه العواصف الهائجة، فلم يكونوا يملكون ترف التمرد على النظام والجنوح إلى حركة مقاومة منظمة، فضلا عما أصابهم من شتات وتمزق داخلي كبير.

وفي ظل هذا الضعف العام الناتج عن هذه الأوضاع الطاغية وجد الإسلاميون طريقة يُسَكِّنون بها أنفسهم ويختطون بها طريقا يوافق طبيعة المحنة والنفوس المهزومة، فقد اعتنقوا فكرة تقول بأن تحرير فلسطين لن يكون عبر قدرة أهلها وحدهم لأنهم أضعف وأعجز عن مواجهة الصهاينة وحلفاءهم، وإنما يكون التحرير عبر إقامة الدولة الإسلامية، وهي التي تستطيع أن تقوم بهذا العبء. وليس ها هنا مقام نقاش هذه الفكرة ومحلها من الصواب والخطأ، ولكن المهم هنا أن هذه الفكرة كانت تعني عمليا: عدم التفكير في مقاومة الصهاينة ولا في تحرير فلسطين، وإنما استمرار العمل الدعوي بأشكاله التربوية والعلمية والإعلامية وما تيسر بُغية إقامة الدولة الإسلامية، وبهذا أصَّلت الحركة الإسلامية لخروجها من المعركة القائمة، بل واتخذت مواقف صلبة من أعضائها الذين قرروا المقاومة ففَصَلَتْهم، وأَعْرَضَتْ عن الحركات الأخرى التي نظمت مجهودها للمقاومة، باختصار: كانت الهزيمة وهولها تسيطر على عقول الإسلاميين ونفوسهم، وتدفعهم دائما إلى الاختباء.

وبطبيعة الحال لم يمر هذا الخيار بسهولة، فقد انشق كثير من أبناء الحركات الإسلامية والتحق بالفصائل الأخرى: اليسارية والقومية والوطنية، كذلك حاولت بعض الأجنحة داخل الحركة تصحيح مسارها أو الانقلاب عليها أو تكوين جيوب داخلية، إلا أنها جميعا أخفقت في النتيجة النهائية، على أن هذه الإخفاقات كانت هي التمهيد لولادة: حركة المقاومة الإسلامية حماس في أوائل الثمانينات[١].

---

(١) ينظر في هذا: مذكرات إبراهيم غوشة «المئذنة الحمراء»، ومذكرات عدنان مسودي «إلى المواجهة»، وكلاهما قاد محاولة لتصحيح مسار الحركة الإسلامية ودفعها إلى الانخراط في تيار المقاومة، لكنه لم ينجح، وكلاهما صار قياديا ومؤسسا بحركة حماس فيما بعد.

وبهذا كان الوضع في أواخر الخمسينات أن جيلا تاليا من الفلسطينيين يعمل على المقاومة، والجيل القديم من الحركات الإسلامية يرى هذا محاولة انتحار ويتترس خلف فكرة وتأصيلات ومقولات تجعله الآن في فترة إعداد إيماني وتربوي ودعوي وعلمي لإقامة الدولة الإسلامية التي ستتولى بعد قيامها تحرير فلسطين، وبهذا انفلت الشباب الذين لم يقتنعوا بهذا أو لم يصبروا عليه ليذهبوا نحو الحركات الأخرى غير الإسلامية!

يجب القول أيضا إن هذه الفكرة التي اعتنقها الإسلاميون لم تكن قاصرةً عليهم، وأقصد هنا فكرة: إقامة الدولة لتخوض معركة التحرير، بل إن أكثر الأحزاب التي تشكلت في فترة ما بعد النكبة كانت قومية عروبية، واعتنقت بدورها ذات الفكرة القائلة بأن تحرير فلسطين أمر لا يقدر عليه الفلسطينيون وحدهم، وأن فلسطين قضية قومية عربية وليست قضية وطنية محلية، وبهذا فقد عملت الأحزاب القومية العربية على صناعة التغيير في الدول العربية بُغية الوصول إلى الوحدة العربية، تلك الوحدة التي ستستطيع أن تخوض معركة تحرير فلسطين[١]. وكان هذا أيضا شعور الفلسطينيين أنفسهم في ذلك الوقت[٢].

لئن اتفق الإسلاميون والقوميون على عجز الفلسطينيين وحدهم عن خوض معركة تحرير فلسطين، فلقد افترقوا في أمر مهم، فالإسلاميون دخلوا عصرا كاسحًا سُحِقوا فيه سحقا لا سيما في مصر وسوريا، بينما كان القوميون يستقبلون عصر ازدهار القومية التي عاشت عصرها الذهبي في مصر وسوريا، فلئن كان يُغفر للإسلاميين عجزُهم لضعفهم وقلة حيلتهم وقوة الموجة الطغيانية البشعة التي مزقتهم، فلا يكاد يوجد للقوميين عذر، وهم الذين لم ينفعوا القضية إلا بالشعارات وحدها!

وبهذا يمكن القول بأن الذين تولوا عبء خوض المعركة لم يكونوا

---

(١) منير شفيق، من جمر إلى جمر، ص٨٤ وما بعدها.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٤٧، ٦٦، ١٠٠؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٥٣، ٨٧.

الإسلاميين ولا القوميين، بل كانوا «الوطنيين» الذين اعتنقوا فكرة تقول بأن الفلسطينيين قادرين وحدهم، أو على الأقل، قادرين لأن يبدؤوا وحدهم معركة التحرير[1].

ومن هاهنا ستبدأ الهوية الوطنية الفلسطينية في التكوُّن والتشكُّل والترسُّخ والتجذُّر، سيكون لهذا الوضع مزاياه وعيوبه، إذ ستحاول حركة فتح نزع ورقة فلسطين من يد الأنظمة العربية لتتصرف بما وسعها من الاستقلال في ظروف صعبة[2]، وستحاول تقديم موازنة دقيقة بين الاستقلال بالقرار وبين دول عربية متنازعة ومتشاكسة كل منها أقوى وأكثر أموالا ونفوذا، وكل منها يريد السيطرة على ورقة القضية الفلسطينية. ومن جهة أخرى ستذهب السياسة العربية والإقليمية إلى الاستفادة من هذا الوضع بما يوافق مصالحها، فهي تحاول أحيانا وضع القضية وأصحابها تحت جناحها باسم العروبة، أو تلقيها أحيانا أخرى عن كاهلها متذرعة بأن الفلسطينيين أصحاب قرار مستقل وهم أصحاب القضية وهم أولى بها!

بدأت المقاومة الفلسطينية بأن شكلت حركة فتح جناحها العسكري باسم «العاصفة»، وبدأ الجناح عملياته العسكرية مطلع (ديسمبر ١٩٦٤م)، ونفذوا نحو مائتي عملية عبر عام ونصف العام حتى (١٩٦٧م)، وتشكلت مع الوقت هويتها العلمانية الوطنية، حتى كأن جذورها وبدايتها الإسلامية قد مُحيت تماما!

لم تكن فتح هي الحركة الوحيدة، فقد نشأت حركة القوميين العرب بين طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت، وكانت تتبنى الفكرة القومية وتؤيد السياسات الناصرية، وبرز فيها: جورج حبش، ثم اعتنقت الفكر الماركسي، ثم تحالفت مع قوى أخرى صغيرة (١٩٦٧م) لتُكَوِّن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين».

وقد أثار هذا الوضع القلق، كما أثار الشهية، لدى عبد الناصر،

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٤٧، ٤٨.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٥.

الذي كان قد حطَّم بنفسه الكيان السياسي الفلسطيني، حكومة عموم فلسطين، وظل مضيقا على الزعيم الفلسطيني: أمين الحسيني، وعلى رئيس حكومته، حتى اضمحلت وانتهت. فلما شعر عبد الناصر بهذه التحركات أحيا الحديث عن كيان سياسي فلسطيني، واستخرج قرارا مهملا من الجامعة العربية كان قد صدر (١٩٥٩م)، فنشأت منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٦٤م) وتولى رئاستها: أحمد الشقيري المدعوم من عبد الناصر، وجرى ترتيب عقد مجلس وطني فلسطيني في القدس (٢٨ مايو ١٩٦٤م) حضره أكثر من أربعمائة ممثل عن الشعب الفلسطيني، وخرجت نتائج المجلس بانتخاب الشقيري رئيسا للمنظمة، والتأكيد على تحرير فلسطين كلها، وتقرر إنشاء جيش التحرير الفلسطيني!

فيما استقبل الفلسطينيون هذا الوضع بفرح غامر، كان الذين تشككوا فيه هم الحركات التي بدأت العمل، ففي ذلك الوقت لم تتحمس حركة فتح ولا الفصائل اليسارية التي انخرطت في مسار المقاومة للانضمام إلى هذه المنظمة باعتبارها محاولة عربية جديدة للسيطرة على الشأن الفلسطيني دون استعداد حقيقي للعمل على تحرير فلسطين[١]. ومن الجهة الأخرى فلم تكن حركة فتح في ذلك الوقت قد برزت باعتبارها حركة كفاح فلم يكن النظام الناصري والعربي يأبه لها كثيرا.

ولما وقعت الصاعقة الكبرى في النكبة الثانية في (١٩٦٧م)، كان من آثارها المفيدة أنه أمكن بناء قواعد للمقاومة الفلسطينية في دولتيْ الطوق اللتين يحكمهما نظام ضعيف حيث «تراخي سلطة الدولة»[٢]، بينما ظلت عاجزة عن العمل في أرض النظاميْن القوييْن: مصر وسوريا[٣]، بل أكثر

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٧٨ وما بعدها؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٨٣، ٩١، ٩٢.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٩٦.

(٣) وهذه ملاحظة يجب التأكيد عليها: إن الأنظمة القوية في عالمنا المعاصر، لم تكن قوتها أبدا في صالح أمتنا ولا شعوبها، بل على العكس، كلما قوي النظام ازداد=

الدول العربية صدَّ ممثلي «العاصفة» (جناح فتح العسكري) وقابلهم بجفاء وتخوف من أعمال المقاومة[1].

تعد السنوات الثلاث (بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠م) بمثابة الفترة الذهبية للمقاومة الفلسطينية[2]، لا سيما في الأردن التي اضطر ملكها بعد الصفعة المدوية التي سلخت الضفة الغربية من مملكته أن يُفرج عن فلسطينيين ومقاومين وأن يغض طرفه عن إقامة نقاط إسناد للمقاومة على طول نهر الأردن[3]. ويمكن القول بأن ذروة هذه الفترة الذهبية تمثلت في معركة الكرامة (٢١ مارس ١٩٦٨م) حيث تصدت المقاومة الفلسطينية والقوات الأردنية لتوغل القوات الإسرائيلية، فكبّدوها أكثر من ثلاثين قتيلا ومائة جريح، فاضطرت للانسحاب بعدها، فكان ذلك نصرا ثمينا تشوقت له النفوس، وثبت به أن الفلسطينيين والعرب قادرون على هزيمة الإسرائيليين الذين ظهروا بعد النكبة الثانية (١٩٦٧م) كجيش أسطوري لا يُقهر[4]. وعندئذ تدفق عشرات آلاف المتطوعين للانضمام إلى حركة فتح التي سطع نجمها، وهيمنت عمليا على الحالة الفلسطينية، واشتد في هذا الوقت ضغط الشباب الإسلامي على قياداتهم للانخراط في حركة المقاومة، فتشكلت في الأردن «معسكرات الشيوخ» التي ضمت الشباب الإسلامي وقياداته الدينية لكنها كانت محسوبة في النهاية على حركة فتح العلمانية[5]! وقد تصاعد العمل الفدائي من ١٢ عملية شهريا (١٩٦٧م) إلى ٥٢ شهريا (١٩٦٨م) إلى ١٩٩ شهريا (١٩٦٩م) إلى ٢٧٩ شهريا في الشهور الأولى من (١٩٧٠م)[6].

= بطشه بالأمة وازداد تخاذله أمام العدو، بينما كلما ضعف النظام كان هذا في صالح الأمة وضد مصلحة العدو.

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٩٧ وما بعدها.

(٢) أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢١٤؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٨٩.

(٣) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٠٢.

(٤) عن معركة الكرامة، ينظر: صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٠٢ وما بعدها.

(٥) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص١٠٨.

(٦) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٠٦.

وكان مما نتج عن النكبة وعن معركة الكرامة أن صار اسم حركة فتح لامعا، وتغير وضعها على الساحة الفلسطينية والعربية، فعندئذ دخلت الحركة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت هي الفصيل الأكبر الذي ما لبث أن هيمن على المنظمة منذ صيف (١٩٦٨م)، وفي فبراير (١٩٦٩م) أصبح ياسر عرفات رئيسُ فتح رئيسًا للمنظمة[١]، وكان هذا من مكاسب الفلسطينيين السياسية إذ صار رئيس المنظمة رئيسا لها لا بدعم زعيم بل ثمرة لعمل المقاومة الميداني. ومن جهة أخرى فقد صار عرفات مسؤولا عن منظمة تنضوي فيها فصائل فلسطينية أخرى، ترتبط بهذه الدولة أو ذاك، لا يستطيع السيطرة عليها ولا تنظيم توجهاتها وفي الوقت نفسه لا يستطيع التبرؤ منها تماما أو طردها من المنظمة إن خرقت السياسة العامة للمنظمة!

لقد تضافرت هذه المكاسب والمسؤوليات معا لتسوق حركة فتح إلى كارثة أخرى، فإن الحركة التي صعدت فجأة صعودا صاروخيا، واستفادت من ضعف النظام الأردني، أصاب كثيرًا من أفرادها زهوٌ قاتل، رأوْا معه أنهم قوة مقاتلة على الأرض، وأنهم قادرون لو شاءوا حتى على خلع الملك وتغيير نظام الملكية وجعلها جمهورية[٢]، ونشرهم شعار «كل السلطة للمقاومة»، ثم تنفيذ عمليات خطف طائرات وإنزالها بمطار عمَّان وتسميته «مطار الثورة»، وهذا كله ضربٌ قويٌّ في سيادة الملك وسلطته[٣]، إضافة إلى تلك النزعة العلمانية اليسارية التي جعلت كثيرا منهم لا يتورعون عن إهانة الله والدين، وهذه النزعة اليسارية الثورية الإلحادية[٤] التي تفجرت في

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١١٢ وما بعدها.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٤٠/١؛ أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٨٦، ٨٧ وما بعدها؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) الملك حسين، مهنتي كملك، ص٢١٢ وما بعدها، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢١٩، ٢٣٨.

(٤) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٤٩/١، ٨٥٠، ٥١/٤؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢١٩.

مواقف عديدة لتصنع صدامات مع جنود الجيش الأردني ومع أعيان البلد ووجهائها ومع كثير من المتدينين داخل البلد وفي صفوف الفلسطينيين أنفسهم. وفوق ذلك فإن الانقسامات الضاربة بعمقها في المنظمات الفلسطينية صنعت ثغرات لاختراق بعضها وتكييفه، بل صنعت فرصة لاختلاق بعضها وتوظيفه!

ومن جهة أخرى، فإن النظام الأردني وإن كان تلقى صفعة مدوية في (١٩٦٧م) إلا أنه لم يخرج من النفوذ الأمريكي ولم يتحول إلى نظام ثوري مقاوم، وهو نظام مُؤَسَّسٌ من البداية على التعلق بالأجنبي ـ البريطاني ثم الأمريكي ـ فلا يقع في خاطره ولا تفكيره أن يتحول إلى نظام منخرط في حرب إسرائيل! ثم إنه ـ بغريزة المُلْك ـ لا يقبل بهذا الانفلات العسكري الذي صار يتهدد نظامه ويُظهر ضعفه وينتقص من سلطته، ثم هو في النهاية نظامٌ يتمتع بالدعم الأمريكي والإنجليزي[١] وأولئك لن يفرطوا فيه أمام حركات تستهدف إسرائيل! وأخيرا فإن النظام الأردني الذي هو ابن المخابرات الإنجليزية وسليل عبد اللّه الأول يميل دائما إلى المراوغة والمناورة واستعمال الأساليب الأمنية المخابراتية والاستفادة القصوى من العملاء ليمزق خصومه ويخترقهم قبل أن يضربهم، فكان عملاؤه المجندون من الفلسطينيين، أو العناصر الغبية المندفعة التي يُفسح لها المجال وتفتح لها الأبواب، يثيرون الغبار وينفخون النار ويزيدون في الاستفزاز لتسميم الأجواء والعلاقات بأقوالهم وأفعالهم بما يخدم غرض الوصول إلى الصدام.

وثمة سبب خارجي يمكن أن يُضاف إلى جملة الأسباب الداخلية؛ ذلك أن عبد الناصر كان قد وافق على مبادرة وزير الخارجية الأمريكي روجرز بشأن وقف إطلاق النار، وبهذا توقفت حرب الاستنزاف المصرية الإسرائيلية، وهو الأمر الذي رفضته فتح والمنظمات الفلسطينية، فالتقى الغريمان: عبد الناصر وحسين في مبدأ الاستسلام، والتقيا أيضا على

---

(١) الملك حسين، مهنتي كملك، ص٢٠٧.

تصفية هذه المنظمات الفلسطينية التي بدت مزعجة، واستقبل عبد الناصر حسينا في الإسكندرية استقبالا حافلا بعد زمن من القطيعة والعداوة المشتعلة، فكان من المفهوم أن اللقاء لن يمضي دون الاتفاق على إنهاء هذه المنظمات[١].

لهذا كله ما لبثت الأحداث أن تصاعدت إلى ما عُرِفَ بأحداث «أيلول الأسود» (١٩٧٠م)، حيث نشبت معارك طاحنة بين الجيش الأردني وبين حركة فتح، دارت بين المدن والبيوت ووقع فيها «ما تشيب له نواصي الولدان، حتى ظهرت الأمراض النفسية والعقلية بين الأطفال لكثرة الفزع الذي يهز كيانهم»[٢]، فلقد كان الملك «مستعدا لكي ينقذ عرشه لأن يدفن عاصمته تحت القذائف»[٣]، حتى تم «سحق العمل الفدائي نهائيا في أحراش جرش من الدبابات الأردنية»[٤]، ثم انتهت بعد فصول عديدة ومريرة إلى إخراج فتح ومقاتليها من الأردن، أو بالأحرى من بقي منهم بعد مقتل المئات وأسر الآلاف، وبذلك «انتهى عصر زهو الحركة الفلسطينية»[٥].

وبهذا خسرت المقاومة الفلسطينية أهم ساحة عمل لها على الإطلاق، فهي أطول مساحة للاشتباك مع إسرائيل، وفيها أقوى حاضنة شعبية يمكن أن تمدها بسبب كثافة الفلسطينيين في الأردن، وفيها أقل الأنظمة الحاكمة قوة وتمكنا، كما أنه نظام جريح بعد سلب الضفة الغربية منه ولا يزال ملكها صغيرا في الخامسة والثلاثين من عمره[٦].

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٣٣ وما بعدها، ١٥٠؛ وقارن برواية: الملك حسين، مهنتي كملك، ص٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨.

(٢) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٤٠.

(٣) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٧.

(٤) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ١/٨٤٠.

(٥) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٢٧.

(٦) من الروايات المتزنة عن هذه الأحداث، مع أن صاحبها من مؤسسي فتح، رواية أبو إياد صلاح خلف في مذكراته. صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٢٧ وما =

هل هُزِمت المقاومة الفلسطينية لأنها أضعف عسكريا، ولم يكن لها فرصة انتصار أمام الجيش الأردني؟ أم كان سبب الهزيمة هو ما كانت فيه من تفرق وتمزق واضطراب، وما كان في صفوفها من اختراقات أمنية وخيانات واتفاقات ثنائية مع النظام الأردني أو غيره، ولولا ذلك لاستطاعوا الانتصار؟.. روايات مختلفة وتفاصيل عديدة ووجهات نظر متنوعة!

وأمر آخر: هذه الأنظمة العربية «المؤيدة» للمقاومة، والمعادية للملك حسين، والتي كانت حمايتها السابغة جزءا من حسابات المقاومة الفلسطينية، كيف انتقلت جميعها فجأة إلى المواقف المتخاذلة: الصمت ـ بل تحريض مقنع ـ حتى وقوع الاشتباك كما فعل عبد الناصر والقذافي، السكون والامتناع عن التدخل كما فعل الجيش العراقي وكان مرابطا في الأردن، الدخول المتأخر والخروج السريع كما فعل الجيش السوري.. هل كان هذا كله محض مصادفات؟ أم كانت لحظة تواطؤ على المقاومة الفلسطينية التي يفترض أنها صديقة وحليفة لهم، تواطؤوا عليها مع الملك حسين: العدو المبين الذي طالما أهلكوه سبا وشتما وسخرية!.. أيضا: روايات مختلفة وتفاصيل عديدة وتحليلات كثيرة!

لكن النتيجة النهائية أفضت إلى خلاصات مريرة: المقاومة الفلسطينية في عصرها الذهبي أضعف من أن تواجه جيشا ضعيفا لنظام غير مستقر! وحلفاء هذه المقاومة الكبار خذلوها في أعسر لحظة احتاجت إليهم فيها.. هذه النتيجة النهائية شكَّلت عقول الجيل القائم والجيل القادم من قادة المقاومة ورجالها، ولا ريب أن الدرس الذي يستفيده المهزوم لا يكون درسا موضوعيا، بل يكون درسا مصبوغا بمرارة الهزيمة وضعف العزيمة..

لقد كانت أخطر نتائج أحداث أيلول الأسود: أنها كانت فاتحة

= بعدها. وينظر رواية الملك حسين في مذكراته. الملك حسين، مهنتي كملك، ص٢٣٣ وما بعدها. وينظر رواية أحمد جبريل في مذكراته: أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢١٩ وما بعدها.

الضعف والتراجعات، وبداية شهود حركة المقاومة الفلسطينية على نفسها أنها أعجز من أن تنتصر على نظام عربي ضعيف، فكيف بالدولة الصهيونية المدججة بأقوى أنواع السلاح، والمدعومة غربيا؟!.. منذ هذه الهزيمة سيبدأ التفكير المقاوِم يُشاب بمعاني الضعف ويتقبل أساليب أخرى في المقاومة والنضال. وحتى أولئك الذين لم يدخلوا ساحة النضال بعد، سيأخذون من هذه الأحداث عبرة تجعلهم يقتصرون في اعتمادهم على الفلسطينيين وحدهم، داخل الأرض الفلسطينية وحدها، متجنبين أي نوع من التصادم والاحتكاك مع أي نظام عربي مهما فعل ومهما أظهر خيانته!

على أن عقد السبعينات وإن بدأ بهذه الكارثة، إلا أنه شهد أفضل النتائج السياسية لحركة المقاومة الفلسطينية، فقد اعترفت الدول العربية في القمة العربية المنعقدة بالمغرب (أكتوبر ١٩٧٤م) بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني، وقد كان هذا القرار قد اتخذ في العام الماضي لكن الملك حسين اعترض عليه فبقي سرًّا، فقد كان الملك طامحا أن يعيد إليه الأمريكان الضفة الغربية مرة أخرى!! وإنما استعملته السياسة الأمريكية في مناكفة المقاومة الفلسطينية[١].

دائما ما يُصَوَّر هذا القرار على أنه مناصرة عربية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وفي الواقع فإن رواية أبي إياد صلاح خلف، القيادي بفتح والمنظمة ورئيس مخابراتها، قد كشف عن أن هذا القرار إنما اتخذه القادة العرب تحت ضغط التهديد بالاغتيال، إذ جرت عدة ترتيبات لاغتيال الملك حسين في المغرب، بحسب رواية أبي إياد، ولاغتيال زعماء التسوية جميعا بحسب المشهور، واكتشفت المخابرات المغربية بعض العناصر وعجزت عن اكتشاف البقية مما جعل الخطر قائما، وهو ما جعل الموافقة على هذا القرار وإعلانه متحققا[٢].

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٢٧ وما بعدها.

كان هذا القرار نجاحا للفلسطينيين في الاستقلال بقرارهم من جهة، لا سيما عن الملك حسين الذي كان يمثل شبحًا دائما ـ مثل جده عبد الله ـ للسيطرة على فلسطين واحتكار تمثيل قضيتها، وهو الذي ـ مثل جدِّه أيضا ـ يضع كل أوراقه في يد الإنجليز والأمريكان ولا يُرجى منه خير ولا نفع بل ولا يُتَّقى شره ولا تؤتمن خياناته[1]!

ولكن القرار أيضا، هو من جهة أخرى: تخفف الدول العربية من المسؤولية الفلسطينية بإلقائها على مجموعة من الفلسطينيين لا حول لهم ولا قوة، إلا ما يمدهم به الملوك والرؤساء العرب من فتات يجودون به حينا ولا يجودون به أحيانا!

وفي الشهر التالي (نوفمبر ١٩٧٤م) دُعِي ياسر عرفات لإلقاء خطاب في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، فكان هذا قفزة أخرى في الوضع السياسي والدولي للقضية الفلسطينية، فقد صارت أمام المؤسسة الدولية قضية شعب تحت الاحتلال ولم تعد مجرد قضية إنسانية تتعلق باللاجئين. لم يكن هذا ثمرة العمل الفلسطيني أو ما وجده من دعم عربي فحسب، بل كان في الواقع ثمرة التوازن الذي كان قائما في السياسة العالمية آنذاك بين المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والغربي بزعامة أمريكا، لقد أتاح هذا التنافس القطبي مساحات لعمل الفاعلين الصغار والضعفاء، وأتاح ثغرات في عدد من القضايا، ولهذا فقد شهدت هذه الفترة صدور عدد من القرارات الدولية لصالح الفلسطينيين، منها مثلا: اعتبار الصهيونية من أشكال التفرقة العنصرية (١٩٧٥م)، وتأييد حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير واستعادة حقه بكافة الوسائل (١٩٧٥م)، غير أن هذه القرارات لم تنفع كثيرا بوجود الدعم الأمريكي لإسرائيل، وبخفوت الإرادة العربية في دعم القضية الفلسطينية.

وعلى المستوى العسكري والميداني، فلئن كان الفلسطينيون قد

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢١٦، ٢٢٦؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٨٨، ٨٩.

خسروا ساحة الأردن التي لا تعوض، فقد استطاعوا أن يتحولوا منها إلى لبنان، وهو وإن كان منفذا وضيقا (٧٩ كم بين لبنان وإسرائيل مقارنة مع ٣٦٠ كم بين الأردن وإسرائيل) إلا أنه الوحيد الباقي الذي لا تسيطر عليه حكومة قوية، ويمكن العمل منه.

يتشابه الوضع في لبنان مع الوضع في الأردن من وجوه، ويفارقه من وجوه أخرى؛ يتشابه معه في وجود عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين الذين ازدادوا عددا مع الوقت، والذين تحولت مخيماتهم إلى كتلة سكانية تعيش حالة عصيبة من الفقر والقهر، وتعيش شعورا مريرا بالغربة، وتعمل القوانين والإجراءات على إبقائهم في الدرجة الثانية أو الثالثة، وفي أن حركات المقاومة الفلسطينية كانت تنتخب منهم من ينضم إليها للعمل الفدائي، وتمدهم بالسلاح، ثم في الفسحة الواسعة التي حصلت بعد نكبة (١٩٦٧م) حيث تراخت يد الدول كلها عن المقاومة الفلسطينية، ثم في الانتعاشة القوية التي حصلت بعد معركة الكرامة (١٩٦٨م)، وفي الآمال العريضة والزهو القاتل الذي أصاب المقاتلين وجعلهم لا يقصرون في استعراض قوتهم ولا يترددون في مصادمة قوات الجيش إذا وقع شيء. ويختلف الوضع بين لبنان والأردن في الانقسامات الحادة اللبنانية بين السنة والشيعة، وبين المسلمين والنصارى، وبين العروبيين والمتغربين، وهو ما يجعل القرار مفرقا وممزقا، ولئن كان هذا ينخر في قوة الدولة ويوهن ساعدها، فإنه من جهة أخرى يُمَكِّن طرفا واحدا إذا شاء وغامر من إشعال الأمور!

بدأت الصدامات بين المقاتلين الفلسطينيين وقوات الجيش في آخر (١٩٦٩م)، لكن سرعان ما تدخل عبد الناصر للوساطة بين الطرفين فرعى اتفاقية القاهرة (١٩٦٩م) التي تسمح للمقاومة بحرية العمل في الجنوب، واستطاعت المقاومة تنفيذ عمليات بعضها جريء للغاية مثل عملية فندق سافوي (٦ مارس ١٩٧٥م) التي استطاع المقاومون فيها التسلل بحرا إلى تل أبيب ثم السيطرة على فندق سافوي واحتجاز رهائن مقابل الإفراج عن أسرى فلسطينيين، فاندلعت معركة غير متكافئة بين ثمانية من المقاومين

والقوات الخاصة الإسرائيلية وانتهت بنفاد الذخيرة واستشهاد سبعة مقابل مقتل حوالي ١٠٠ إسرائيلي!

وبالموازاة مع عمليات فتح، فقد برز اسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» ومعها «الجبهة الديمقراطية» وفصائل أخرى أصغر أو مستقلة، في نوعيات أخرى من العمليات، وهي اختطاف الطائرات، لمبادلة المختطفين بأسرى فلسطينيين، أو الهجوم على مناطق حساسة مثل مطار اللد (١٩٧٢م)، أو احتجاز رهائن بالخارج مثل عملية ميونيخ (١٩٧٢م)، أو اقتحام مستوطنات واحتجاز رهائن لمبادلتهم مثل عملية الخالصة (١٩٧٤م)، أو اقتحام مدرسة عسكرية إسرائيلية مثل عملية ترشيحا (١٩٧٤م).. وغيرها[(١)].

ومن جانبها نفذت إسرائيل عمليات قصف للقواعد الفدائية وعمليات تفجير واستهداف للمنشآت وللبنية التحتية اللبنانية، بل وصل الأمر للقيام باغتيالات قوية بحق القادة الفلسطينيين، سواءٌ أكانوا مدنيين سياسيين أم قادة عسكريين، من أبرزهم: غسان كنفاني ووائل زعيتر (١٩٧٢) ومحمود الهمشري وحسين أبو الخير ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر (١٩٧٣م).

انطلاق العمليات الفدائية من لبنان، وقدرة الإسرائيليين على تنفيذ اغتيالات قوية في لبنان، كانتا بداية الشرارة التي ستفاقم الأحداث من جديد! فرجال منظمة التحرير التي تجمع فتح وبقية الفصائل يرون في هذه الحوادث يد التواطؤ وربما التورط من قبل الجيش اللبناني ويسخطون لذلك ويطالبون بقيام هذه القوات بواجباتها، والحكومة اللبنانية وجيشها يرون في المخيمات والمنظمات والمقاتلين مراكز قوة خطيرة خارجة عن السيطرة، وهي بعملياتها الخارجية أو بنفوذها الداخلي تُدخل البلد في صراعات خارجية وفي اضطرابات داخلية ويطالبون بالسيطرة على المخيمات. وهو

---

(١) ينظر: أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢٦٦ وما بعدها.

الأمر الذي لن يسمح به الفلسطينيون الذين يذوقون الآن انتعاشة القوة ولذتها بعد أزمنة استضعاف وإذلال لم تنتهِ بعد كل مظاهرها. وكان النصارى المارونيون أكثر هذه الطوائف اللبنانية سخطا على الفلسطينين وتلمظا لقتالهم، وهو ما أوصل الحبال الودية بينهم وبين الإسرائيليين، الذين أمدوهم بنهر من الأسلحة والخبرات والتدريب(١). وسائر هذه الأمور تتحول في الميدان العملي إلى استفزازات وصدامات متوالية.

ودخل على هذا كله خطٌّ ثالث، فإن تعدد المنظمات الفلسطينية، سواءٌ أكانت منضوية تحت جناح منظمة التحرير أو غير منضوية، جعل من بعضها مرتزقة تعمل لحساب المُمَوِّل، فصار بإمكان النظام العراقي أو السوري أو غيرهما أن يوعز للمنظمة التابعة له ـ أو يدفع لمنظمة ما أو لعناصر منها ـ بتنفيذ اغتيال أو تفجير ضد شخصية أو جهة لبنانية، فإذا وقع ذلك كان صبًّا لمزيد من الزيت على النار ضد عموم الفلسطينيين وعموم المقاومة الفلسطينية(٢).

حتى انتهى ذلك كله إلى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥م).

كانت شرارة الحرب الأهلية مذبحة نفذتها قوات مسيحية مارونية نصرانية في حافلة من الفلسطينيين فغدرت بهم وفتحت عليهم النار فقتلتهم بمن فيهم النساء والأطفال. لقد كان الفلسطينيون في لبنان ـ سواء أهل المخيمات المهجرون، أو المقاومون الفدائيون ـ واحدة من القضايا الساخنة التي وُضِعت في أتون الحرب، وتنازعتها الأطراف المختلفة، ومن

---

(١) من قرأ تاريخ الشام عرف بالبديهة حجم الغدرات والخيانات التي نفذها نصارى الشام في أزمان الحروب الصليبية والمغول، ثم في أزمان الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، لكن النزعة العلمانية المعاصرة وانهزام كثير من المسلمين أمامها، وسيطرة هذه النزعة على منافذ الثقافة والإعلام والتعليم جعل تاريخ الفترة الحديثة يكتب عادة بما يخفي ويغطي هذه الخيانات. وقد سجَّل بعض الذين دفعوا ثمن غفلتهم غاليا بعض هذه الوقائع سواءٌ أقروا بذلك نادمين أو لم يقروا ولم يندموا. ينظر مثلا: صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢٦٧، ٢٦٨.

ثم فقد كان المقاتلون الفلسطينيون جزءا من الحرب وأحلافها، وكانوا ضحيتها الأولى، وقد كانت الحرب الأهلية فرصة لتجنيد الجواسيس ونقل السلاح وتنفيذ تفجيرات قوية في مناطق مختلفة. ثم بدأت القوات المسيحية في محاصرة مخيمات الفلسطينيين وتنفيذ مذابح واسعة فيها، فانخرطت منظمة التحرير في الحرب الأهلية دفاعا عن نفسها ومكتسباتها، وعن الفلسطينيين، وعن المسلمين الموالين لها في لبنان.

ليس المقام ها هنا للحديث عن الحرب الأهلية اللبنانية الفائضة بالتفاصيل والتحالفات والانقلابات والتبدلات، والخلاصة أن المقاومة الفلسطينية اصطفت إلى جانب الدروز واجتمعا بذلك تحت شعار العروبة واليسار ـ وبعدهما بكثير: الإسلام ـ ضد النصارى المارونيين المدعومين من الصهاينة والأمريكان والأنظمة العربية ذات الصلة، وكانت الأمور سجالا إلى أن بدأ انهيار القوات النصرانية فدخل الجيش السوري إلى لبنان (يناير ١٩٧٦م)، بضوء أخضر أمريكي وموافقة إسرائيلية[(١)]، داعما ومواليا للأحزاب النصرانية المارونية، ومنقلبا على منظمة التحرير وحركة فتح، ومثَّل الجيش السوري غطاء للقوات النصرانية التي كانت تحاصر المخيمات الفلسطينية، ثم غدرت ـ بعد اتفاق ـ بالمحاصرين الفلسطينيين في مخيم تل الزعتر فقتلت منهم نحو ثلاثة آلاف (١٢ أغسطس ١٩٧٦م). وبعد فصول دامية أليمة مريرة خاض فيها النصارى والجيش السوري في دماء الفلسطينيين واللبنانيين، انتهى الأمر باتفاق الرياض الذي رعته السعودية، والذي يسمح بنزول قوات عربية لضبط الوضع في لبنان، لكن الأنظمة امتنعت عن إرسال قوات، بما يعني عمليا أنهم سلَّموا لبنان إلى الجيش السوري، وأن وجود الجيش السوري صار شرعيا وبغطاء عربي وفق هذا الاتفاق.

(١) ما كان لحافظ الأسد أن يتجرأ على دخول لبنان إلا بإذن أخضر من أمريكا وبموافقة من إسرائيل. هذا أمر يتوقعه حتى من لا يعرف الدهاليز والكواليس، ولكنه الآن صار مذكورا في مصادر عدة، وقد ووجه الأسد بهذا في حياته ولم يقدّم ردا مقعنا. صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٣٠٠، ٣٠١. وقارن برواية أحمد جبريل التابع المنحاز للنظام السوري، ينظر: أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٢٨٠ وما بعدها.

وعلى الجبهة الإسرائيلية فإن إسرائيل استطاعت أن تتخذ لها عميلا من الضباط النصارى اللبنانيين، هو سعد حداد، حيث صارت قواته على الحدود الجنوبية بمثابة حزام أمني لصالح إسرائيل. وبقي الهاجس الإسرائيلي في القضاء التام على المقاتلين الفلسطينيين في لبنان الذين بقيت لهم مراكزهم في الجنوب، والفدائيون من ناحيتهم استأنفوا عملياتهم ضد إسرائيل، فنفذ الجيش الإسرائيلي اجتياحا لجنوب لبنان (مارس ١٩٧٨م)، لم يحقق أهدافه في القضاء على الفدائيين لكنه ثبَّت وقوَّى الحزام الأمني والجيش العميل التابع لهم بقيادة سعد حداد.

ثم لم تلبث ثلاث سنوات أخرى، استمرت فيها العمليات الفلسطينية والتي تتبعها ردود إسرائيلية وحشية ضد المدنيين، ومع خروج مصر من المعركة بتوقيع اتفاقية السلام، حتى ذهبت إسرائيل إلى اجتياح جنوب لبنان بكل جيشها تقريبا (بين ١٢٠ ـ ١٥٠ ألفا من مجمل الجيش الإسرائيلي العامل البالغ ١٧٠ ألفا) حتى وصلت إلى بيروت في خمسة أيام فقط (٤ ـ ٩ يونيو ١٩٨٢م)، وعندها دارت معركة شرسة بين الجيش الإسرائيلي وبين المقاومة الفلسطينية واللبنانية، فعجزت عن اقتحام بيروت لأكثر من شهرين بفعل المقاومة الباسلة، ثم تدخل الوسطاء وانتزعوا اتفاقا يقضي بخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وما إن خرج المقاتلون حتى نفذ الصهاينة وحلفاؤهم من القوات المسيحية المارونية اللبنانية أشنع مذبحة في تاريخ القضية الفلسطينية، وهي مذبحة صبرا وشاتيلا (١٦ ـ ١٨ سبتمبر ١٩٨٢م)، حيث قتلوا حوالي ٣٥٠٠ فلسطيني بمن فيهم النساء والشيوخ والأطفال.

كان الإخراج من لبنان ضربة قاسية وفارقة في مسار المقاومة الفلسطينية، فبهذا قد أغلق عليها منافذ المقاومة بانسداد كل دول الطوق أمامها، وكان تشتت الفدائيين (حوالي ١٢ ألفا) في أماكن بعيدة مثل تونس والسودان واليمن وغيرها قد أضعف كثيرا من قوتهم وقدرتهم، وانتقلت قيادة المنظمة إلى العاصمة تونس. ومن جهتها واصلت المخابرات الإسرائيلية تعقب الشخصيات الفعالة واغتيالها، فجرى اغتيال أبي جهاد، وهو الرجل الثاني في حركة فتح، في تونس (١٦ إبريل ١٩٨٨م).

لئن كانت هذه العمليات قد أثبتت صلابة وبسالة وجرأة لدى المقاتل الفلسطيني، فإن موازين القوى النهائية كانت في غير صالحه، لقد كان يواجه وحيدا دولة عسكرية صاعدة، في ظل جفاف وتصحر من الأنظمة العربية المحيطة، لا سيما دول الطوق التي دخل بعضها في سلام معلن مثل مصر، وبعضها في سلام عملي مثل الأردن وسوريا، ومن لم يكن كذلك كان له تعاون أمني واستخباري مثل لبنان والمغرب وغيرها، فضلا عن الدول الغربية التي تقف إلى جانب إسرائيل، ليس بالمال والسلاح والموقف السياسي فحسب، بل حتى بالدعم العملياتي، فإن كثيرا من السفارات والبيوت الآمنة مثَّلت ملاذات ومقرات انطلاق لعناصر النخبة الإسرائيلية، كما أن الدعم اليهودي في مختلف بلاد العالم كان متواصلا بكافة أشكاله.

كذلك إن بعض العمليات الخارجية ـ لاسيما اختطاف الطائرات والهجوم على المطارات ـ أدَّت إلى أن تتخذ الدول العربية والغربية موقفا معاديا للمنظمات الفلسطينية، فتعرضت المنظمة لاستنزاف واسع، وتساقُطٍ متتابع لقياداتها السياسية والعسكرية من خلال عمليات الاغتيال، فأخذ الصوت الذي ينادي بالحلول السياسية والتسوية والسلام يتصاعد ويقوى داخل المنظمة! وساعده على ذلك اغتيال القادة الأقوياء.

من جهة أخرى فإن هذه السلسلة المتواصلة من النضال العسكري المقاوم، كانت ترتد إلى مرجعية علمانية، وتُتَرْجَم في أهداف سياسية ترفعها منظمة التحرير وتعبر عنها في شعاراتها، وهذا الهدف السياسي الكبير هو أن تكون فلسطين دولة واحدة، لا يهودية ولا إسلامية، دولة علمانية يستوي فيها جميع المواطنين في الحقوق والواجبات، والأغلبية هي للفلسطينيين والعرب لا سيما مع إعادة اللاجئين ووقف حركة الاستيطان[١].

كانت علمانية المنظمة سببا من جهة ومحاولةً للحل من جهة أخرى؛

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦٤، ١١٣، ٢٢٠، ٢٢١، ٣١٤.

فهي سببٌ من جهة أن الهيمنة العلمانية العالمية في الخمسينات والستينات والسبعينات قد انبثق عنها موجة فكرية كاسحة جعلت كثيرا من الشباب آنذاك ينصرفون عن الدين بل ويعادونه، وفوق الموجة الفكرية فقد عبرت هذه العلمانية ـ بجناحيها الليبرالي والشيوعي ـ عن حضورها بموجة مذابح ساحقة للحركات الإسلامية مما يحول دون التفكير في استلهام الإسلام كسبيلٍ إلى الحل، فهو أمرٌ موصودة أمامه الأبواب، وهنا فإن الإهاب العلماني قد يكون حلا في تجنب عداوة الأنظمة العربية والقوى الدولية كذلك.

وهكذا حقق شعار الدولة العلمانية الواحدة توفيقا بين أمور عديدة؛ بين المرجعية العلمانية لفصائل المقاومة الفلسطينية، وبين الرفض العروبي والوطني للكيان الصهيوني الذي يتمسك بدولة يهودية، وبين الهيمنة العلمانية العالمية ـ ليبرالية وشيوعية ـ في ذلك الزمن، والتي تقوم على فكرة الدولة الوطنية الواحدة التي لا تفرق بين المواطنين بحسب الدين، وهو ما يجعل للفلسطينيين سبيلا لمغازلة هذا الهوى العلماني لدى القوى الكبرى الشرقية والغربية، والاستناد إلى ذات الفكرة وذات الشرعية التي قامت عليها منظومة القانون الدولي والمؤسسات الدولية منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولو أن هذه القوى الكبرى كانت صادقة في علمانيتها لكانت وقفت حقا إلى جانب الفلسطينيين ضد الصهاينة المعبرين بفكرتهم ودولتهم عن عنصرية دينية لا تتقبلها العلمانية! ولكن مشروع إسرائيل لم يكن مجرد مشروع علماني استعماري فحسب، بل كان مع ذلك مشروعا صليبيا يستند إلى مُكَوِّنٍ ديني قوي لم تنفك عنه الحضارة الغربية.

مَثَّل القبول بدولة علمانية واحدة تجمع العرب واليهود على قدم المساواة أولَ خطوات التنازل التي بدأت تظهر في خطاب منظمة التحرير الفلسطينية، وكان ذلك في أواخر الستينات، إذ هو تنازل عن عودة اليهود الغزاة إلى بلادهم[١]. ثم جاءت حرب أكتوبر وأحداثها الصادمة لتحمل

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٩٤.

منظمة التحرير على «اتخاذ قرارات جريئة (!) تضع حدا نهائيا لسياسة: كل شيء أو لا شيء»[1]، فوُلِد تنازل آخر في المؤتمر الوطني الثاني عشر (١٩٧٤م) الذي اعتبر أن العمل السياسي هو أحد وسائل تحرير فلسطين، لينسخ بذلك شعار أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد للتحرير، ويفتح الباب لحلول انتقالية ومرحلية في سبيل إقامة الدولة الفلسطينية على أي أجزاء يمكن تحريرها[2]. ثم جاء تنازل آخر يمكن أن يُقال أجبرت عليه المنظمة حين طرح الأمير فهد (ولي العهد السعودي آنذاك) مبادرة بانسحاب إسرائيل إلى حدود (١٩٦٧م) مقابل الاعتراف بها، وتبنت القمة العربية المنعقدة في المغرب (١٩٨٢م) هذا المشروع، وهو اعتراف بما جرى احتلاله في (١٩٤٨م)[3].

وهكذا ترافق التراجع العسكري الميداني القتالي مع تراجع آخر سياسي، وكان عقد الثمانينات بهذا الحال هو عقد الأفول والغروب لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولم ينفعها مطلب: الدولة العلمانية الواحدة التي يستوي فيها العرب واليهود، لكن الأمر ما سيلبث أن يتغير، بعدما هبت ريح أوسع انتفاضة شعبية منذ نصف قرن: منذ الثورة الفلسطينية الكبرى!

---

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢١١، وينظر: ص٢١٦ وما بعدها.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص٩٤.

(٣) عن هذه المبادرة وظروف تبنيها، ينظر: غازي القصيبي، الوزير المرافق، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٠م)، ص١٧٩ وما بعدها.

الانتفاضة الأولى ١٩٨٧
وبزوغ المقاومة الإسلامية

عند نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن العشرين كانت قد اجتمعت عدد من الروافد الداخلية في الحركة الإسلامية، وفي فلسطين، وكذلك في خارج فلسطين، صنعت الأجواء المواتية لانبعاث المقاومة الإسلامية، ويمكن اختصارها كالآتي:

(١) التطبيع والتخاذل العربي

أثبت دخول النظام المصري في مسار السلام والتطبيع، أن الأمل في الأنظمة العربية قد انتهى وانقضى، وأنه إن كان ثمة من يريد تحرير بيت المقدس وفلسطين فعليه من الآن أن يعتمد على نفسه، فما حك جلدك مثل ظفرك.

ومن لم يُطَبِّع فإنه قد سكت عن حرب إسرائيل (مثل: سوريا)، أو انخرط في علاقات سرية (مثل: الأردن والمغرب)، أو اكتفى بالدعم الاقتصادي والسياسي المتناقص (مثل: دول الخليج)، أو دخل على خط توظيف بعض الفصائل الفلسطينية لصالحه بما يفتت الحالة الفلسطينية (مثل: العراق وليبيا)!

☼ ☼ ☼

(٢) الصحوة الإسلامية

عند مطلع السبعينات من القرن العشرين كان التيار اليساري يأخذ في الأفول، وكانت الصحوة الإسلامية تشرق في كثير من البلاد، وبصرف النظر الآن عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى ذلك، فإن المهم في سياقنا الآن أن هذه الصحوة الإسلامية قد أخذت تتصاعد وتنتشر بقوة، لا سيما في مصر وبلاد الخليج. وكان لا بد أن يتأثر العرب جميعها بهذا؛ فمصر وحدها تحتوي على ربع العرب، وهي أعلى هذه البلاد في نسب التعليم، وتخرج كل عام كثيرا من الناس ليتولوا شغل مناصب التعليم والقضاء والمهن المختلفة في بلاد أخرى كثيرة مما يجعل التأثير المصري واسعا في هذه البلاد. ثم إن بلاد الخليج كانت تشهد طفرة نفطية وقفزة مالية كبيرة فكانت الصحوة الإسلامية فيها مدعومة بأموال كثيرة ترتب عليها انتشار الكتب الإسلامية والمعاهد الشرعية وكثيرا من فعاليات الصحوة الإسلامية.

وقد خُتِم عقد السبعينات بثلاثة أحداث ضخمة زادت في قوة الصحوة الإسلامية وصعودها، وهي: الثورة الإيرانية، حادثة جهيمان، الغزو السوفيتي لأفغانستان. وهذه الأحداث الثلاثة وقعت في عام واحد (١٩٧٩م)، فضلا عن حدث رابع كاد يتم ولكن جرى إخماده وإجهاضه، وهو صعود الإسلاميين في تركيا بزعامة نجم الدين أربكان لولا أن عاجله انقلاب عسكري دموي عنيف في (١٩٨٠م).

فأما الثورة الإيرانية، فقد كانت ثورة إسلامية شيعية استطاعت خلع الشاه وهو أحد أهم عملاء الأمريكان في المنطقة، ولأول مرة في التاريخ الحديث يصعد علماء متدينون لموقع الحكم والسلطة ويستطيعون امتلاكه ويقهرون كل محاولات خلعهم منه أو الانقلاب عليهم فيه. وبه سَرَت صعقة كهربية في سائر الإقليم، فقد بدا للأمريكان أنهم يفقدون نفوذهم في المنطقة، وبدا للإسلاميين أنهم قد المسلمين قد بدؤوا يستعيدون زمام الأمور ويتحررون من حقب الاحتلال. وقد سلكت الثورة الإيرانية في

بدايتها نهجا حرصت فيه ألا تصطدم بأهل السنة وأن تتجنب الخلافات العميقة والتي كانت ساكنة لزمن طويل في الحقبة العلمانية، وقطعت العلاقة مع إسرائيل واحتفت بفلسطين وممثليها[١]. وكان أهم تأثير لهذه الثورة فيما يخص تاريخ فلسطين أن بدأ الإسلاميون يتساءلون: لماذا لا نقاوم؟ ولماذا لا نثور؟ فها هي الثورة قد أثبتت أن النجاح الإسلامي ممكن. ولم يتوقف الأمر عند التساؤل، بل دارت عجلة العمل.. العمل الإسلامي المقاوم[٢].

وأما حادثة جهيمان، فهو تمرد صغير محدود نفذته مجموعة سعودية في الحرم المكي، لتعلن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري أنه قد ظهر المهدي، ومع أن الأمر جرى إخماده في وقت قصير على يد الأمن السعودي مستعينا بقوات فرنسية وأجنبية، إلا أن الأثر الخطير الذي أحدثته تلك الحادثة هي كشفها عن أن المسلمين تعاطفوا بقوة، بمن في ذلك كثير ممن كان في الحرم، مع هذه الحركة، وظهر واضحا أن المسلمين يشعرون بحاجة ماسة إلى الخروج من عصر الهزائم والذل، فسرعان ما تفاعلوا مؤيدين بل ومقاتلين معها، وقد انكشف أيضا أن أهل بلاد الحرمين لا يرضون عن السياسة السعودية (وقد كانت في ذلك الوقت تنحو وتذهب نحو العلمانية ويشيع فيها الانحلال الأخلاقي الظاهر) وهم مترقبون للتمرد عليها، فمن ثَمَّ كانت تلك الحادثة نقطة مفصلية استدارت بعدها السياسة السعودية وانقلبت على توجهاتها التغريبية لتعيد سربلة نفسها بالإسلام والسلفية ظاهريا، ثم تمضي باطنا على ما هي عليه من العلمنة والتغريب والتبعية للأجانب، ولتكرر من جديد نمط المؤسس عبد العزيز الذي كان أشد ما يكون تدينا في الظاهر، بينما سياساته وبناء نظامه كان على هوى الأجانب ورغباتهم.. وقد استمر هذا الحال نحو أربعين سنة أخرى حتى

---

(١) يراجع في هذه التفاصيل: فهمي هويدي، إيران من الداخل، ط١ (القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٨٧م).

(٢) لمطالعة تأثير الثورة الإيرانية على قائد من المقاومة الفلسطينية، وهو فتحي الشقاقي، ينظر: فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ١٩٠ وما بعدها، ٢١٨ وما بعدها، ٢٥٨ وما بعدها.

عهد الملك سلمان بن عبد العزيز وابنه محمد بن سلمان ففتح أبواب الفجور والانحلال بأوسع وأفجر ما يكون.

وأما الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، فقد أوقد نار الجهاد في البلاد الإسلامية، لا سيما بعدما أثبت الأفغان صلابة وصمودا مدهشا ومفاجئا، جعل الأمريكان يأخذون في دعم هذا الجهاد من خلال السماح بانتقال المسلمين للجهاد، وبتسريب بعض الأسلحة والمعدات عبر هذه البلاد العربية، لا سيما مصر والسعودية وبلاد الخليج. وهو الأمر الذي جدد سؤال الجهاد في فلسطين، بل وأتاح الفرصة أن يقيم بعض الناس في باكستان وأفغانستان معسكرات للتدريب بغرض إعداد الشباب للجهاد في فلسطين. وإذا كان الأفغان على قلتهم وضعفهم وفقرهم استطاعوا الصمود أمام الوحش السوفيتي الهائل، فلماذا لا يستطيع ذلك الفلسطينيون أمام إسرائيل؟!

لقد صنعت هذه الأحداث الثلاثة، مع زخم الصحوة الإسلامية الذي شهدته السبعينات والثمانينات، تطورا فارقا في قضية فلسطين وبيت المقدس.

☼ ☼ ☼

(٣) أفول حركات المقاومة العلمانية

عند منتصف الثمانينات كان واضحا أن حركات المقاومة غير الإسلامية قد غربت شمسها، أو هي توشك على الغروب، وقد بلغ ذلك ذروته حين خرجت حركة فتح من لبنان، بعد الاجتياح الإسرائيلي في (١٩٨٢م)، وتشردت عناصر هذه الحركات بين اليمن وليبيا والجزائر، ثم رحلت مجموعة القيادة الفتحاوية إلى تونس وهي بلد بعيد عن فلسطين ولا يمكن أن يمثل أرضا للمقاومة، وهو ما كان يعني عمليا أن المقاومة قد طُردت من فلسطين، ثم طُردت من دول الطوق: الأردن أولا (١٩٧٠م) ثم لبنان (١٩٨٢م). وبالنظر إلى النتائج التي حققتها هذه الحركات عبر عشرين سنة (١٩٦٥ ـ ١٩٨٥م) فإنها تبدو هزيلة على رغم ما توفر لها من أرض

وأموال ومعسكرات تدريب وبعض الدعم العربي والدولي أحيانا[1].

وفضلا عن ذلك: فإن ما ظهر في صفوف هذه الحركات من الفضائح المالية والأخلاقية والنزاعات الداخلية كان يهيئ النفوس والأجواء للانصراف عنها والزهد فيها وترك تعليق الآمال عليها.

كذلك فقد عاشت هذه الحركات حالة نضالية يسارية جعلتها تنحو نحو الاصطدام بالنظم القائمة في الأردن ولبنان، وتكوين مناطق نفوذ مسلحة، وهو ما أدخلها في صدامات مع كثير من الناس بمن في ذلك المتضامنون مع فلسطين، فضلا عن الصدام مع الأنظمة. ولئن كانت الأنظمة ليست وطنية ولا هي مخلصة للعروبة وفلسطين إلا أن هذه الحالة الصدامية والمغرورة التي أسست لها تلك الحركات مثَّلت ذريعة ممتازة وتبريرا مقبولا لضربها وتصفيتها بمساعدة الساخطين عليها من أبناء تلك البلاد.

ثم إن هذه النزعة العلمانية: اليسارية والقومية التي مثلت المرجعية الفكرية لهذه الحركات كانت قد تعرضت لضربات فكرية خلعت عنها جاذبيتها التي كانت لها في الخمسينات والستينات، فقد تلقى المشروع القومي ضربة قاضية بنكبة ١٩٦٧م، ثم تراجع المد اليساري والشيوعي في السبعينات والثمانينات مع بزوغ الصحوة الإسلامية لا سيما في مصر والجزيرة العربية. مما زاد الفجوة والابتعاد والنفور بين الناس وبين هذه الحركات التي غلا بعضها في العلمانية والكفر وأمور مثل الرقص والخمر والقتل وغيره.

وأخيرا، فها هي التنازلات السياسية قد أخذت في التتالي والتتابع

---

(١) ما توفر لحركة فتح والجبهة الشعبية والديمقراطية ونحوها من الإمكانيات والدعم المالي والسياسي هو كثير نسبيا، أي بالنسبة لما بعد ذلك، فإن هذا الذي توفر لن تحصل عليه الحركات الإسلامية فيما بعد، ولا حتى على عشر معشاره. ولكنه لا ريب أقل من أن ينهض بحركة مقاومة تواجه دولة عسكرية يتدفق عليها الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري.

لدى منظمة التحرير، من دولة فلسطينية واحدة وإعادة اليهود إلى بلادهم، إلى دولة واحدة علمانية يستوي فيها الفلسطيني واليهودي في الحقوق والواجبات، إلى القبول بحل الدولتين على جزء من الأرض، ومن كون الكفاح المسلح هو الحل الوحيد إلى كونه واحدا من الحلول المطروحة.. لقد بدا واضحا حتى لمن لا زال يحسن الظن بمنظمة التحرير إلى الغاية، أن المنظمة وحركاتها قد أرهقت وتعبت واستنفدت طاقتها[1]!

وقد حملت تجربة المقاومة العلمانية نوعا من الألم والمؤاخذة داخل صفوف الحركة الإسلامية، فلسان الحال يقول: إن كان المؤسسون الكبار في حركة فتح إنما كانوا من الإخوان المسلمين وأنهم لم يتركوها إلا لرغبتهم في المقاومة، وقد أنجزوا ما أنجزوا في حركة فتح، فلو كانت الجماعة قد تجاوبت مع رغبتهم لكانت النتائج ستكون أفضل، ولكانت الحركة قد تجنبت ما دخل إلى هؤلاء من الفساد العلماني والأخلاقي ومن التجارب الفاشلة المؤلمة. لقد كان إخفاق فتح وتسيد العلمانيين لحركة المقاومة يحمل ضغطا دائما ومستمرا ومؤلما لمن ينظر إلى التجربة إذا نظر إليها من باب أن هؤلاء كانوا من الراحلين عن الحركة الإسلامية التي لم تعرف واجب الوقت ولم تقدر الأمر حق قدره، وأفلتت فرصة ذهبية كانت بين يديها.

عملت هذه العوامل معا: التطبيع العربي والصحوة الإسلامية وأفول حركات المقاومة العلمانية على تهيئة الأجواء والنفوس لصعود وبروز حركات المقاومة الإسلامية.

ظهرت أولى التنظيمات الإسلامية على يد د. فتحي الشقاقي، الذي

---

(١) لقراءة طرف من المراجعات في فتح ومنظمة التحرير، ينظر: صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٢١٥ وما بعدها. ومن اللافت للنظر أن هذا القائد الصلب يذكر في أواخر مذكراته أن «الفلسطينيين والإسرائيليين وُجِدا ليتفاهما؛ إلا أنه ينبغي لهما قبل ذلك توعي الحقائق والاعتراف ببعضيهما والتسليم بوجوب التعايش على ذات الأرض». ينظر ص٣١٢.

قدَّر أن الإسلاميين الآن صاروا قادرين على الانخراط في المقاومة، وأنه لا يليق بهم ولا يجوز لهم ألا ينخرطوا، وقد ساءه هذا الانقسام القائم الذي عبر عنه بعبارة: «وطنيون بلا إسلام، وإسلاميون بلا فلسطين»[١]، فأسس حركة الجهاد الإسلامي (١٩٨٠م) منشقا عن الإخوان بعدما لاحظ أنهم ما زالوا على قرارهم القديم، وبدأ تشكيل الجناح المسلح (صيف ١٩٨١م)، وكانت أول عملياته في (١٩٨٦م)، وهي عملية باب المغاربة التي أصابوا فيها نحو ثمانين جنديا إسرائيليا، ثم توالت العمليات[٢].

كان انشقاق الشقاقي عن الإخوان آخر الانشقاقات تقريبا، فلقد وُلِد في رحم الجماعة أو قريبا منها ـ على اختلاف الروايات ـ المجموعة التي ستأخذها إلى المقاومة، والواقع أنه لا تزال المعلومات قليلة وغير وافية عن تفاصيل تأسيس حركة حماس، وطبيعة العلاقة بينها وبين جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين، لا سيما في غزة التي تمثل مركز ثقل الحركة الإسلامية، لكن هذا المتوفر يكشف عن أن حماس كان بمثابة الانقلاب الناعم أو الاستيلاء الهادئ على جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين، ذلك أن الفكرة التي جاء بها الشيخ أحمد ياسين كانت تنافي المنهج الذي سار عليه الإخوان في فلسطين، وقد رضوا بذلك واستقروا عليه. ومن ثم فقد استطاع بعض هؤلاء القادة المؤسسون لحماس ببراعة وبذكاء تنفيذ هذا الاستيلاء الهادئ، مع الاحتفاظ بوجود لافتة الإخوان المسلمين، ومع العزل التكريمي الهادئ للقيادات الرافضة لنهج المقاومة، ولا ريب أيضا أن بعض هذه القيادات كان لديه من الإخلاص والتجرد ما آثر به الانسحاب والتخلي عن موقعه[٣] دون أن يثير إشكالات كبيرة كان يمكن أن تؤدي إلى انشقاقات علنية، فلهم بهذا فضل كبير على الحركة الإسلامية في فلسطين، وعلى العموم، فقصص التخلي عن مواقع القيادة

(١) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ٣٤٧/١.

(٢) كتب الشقاقي نفسه عن نشأة الحركة وفكرتها، ينظر: الأعمال الكاملة، ٣٤٦/١ وما بعدها.

(٣) يذكر هنا اسم الشيخ: عبد الفتاح دخان.

والمسؤولية هي من الأمور النادرة التي لا تستطيعها إلا النفوس الكبيرة، فإن أكثر أسباب الانشقاق والتمزق في الحركات الإسلامية عائد إلى هذا النزاع على مواقع القيادة.

ومع أن الشيخ أحمد ياسين هو الذي مثَّل تمردًا على موقف الإخوان فيما بعد، إلا أنه هو نفسه لم ينضم إلى فتح في بدايتها، بل ورفض فكرة العمل التي قامت عليها، وفسَّر ذلك بأن هذه الطريقة لن توصل إلى شيء، لأن انطلاق العمل الفدائي من الدول العربية التي تعيش حالة من الضعف، سيسمح لإسرائيل بالتوسع واقتضام مساحات أخرى من دول أخرى، كما سيجعل هذه الأنظمة تسلط قوتها على عمل المقاومة، ومن ثَمَّ فقد كان يفضِّل أن يكون العمل حصرا من داخل الأراضي المحتلة، وإذا لم يكن هذا متاحًا الآن فليبدأ العمل لتحقيقه[1].

على أن الزمن الذي توقف فيه الإسلاميون عن المقاومة وإن كان قد فوَّت فُرَصًا نفيسة لا تقدر بثمن، إلا أنه لم يضع هباءً كله، فإن طبيعة الإسلام وفاعليته وما يثيره في أبنائه من الحركة والنشاط، قد استخرج طاقتهم في الأعمال الخيرية والدعوية والتربوية وفي النشاط الطلابي، ومع الموجة العامة الإسلامية التي استغرقت السبعينات والثمانينات كان الإسلاميون قد انتشروا ووضعوا كثيرا من البذور الاجتماعية والمؤسسات الدعوية والخيرية والتعليمية والتربوية في فلسطين وخارجها بين الفلسطينيين، وصارت اتحادات الطلاب الفلسطينيين يكتسحها الإسلاميون[2]، وأخذ المجتمع الفلسطيني رويدا رويدا يُخرج إلى نخبته قادة إسلاميين، يخالفون حركة فتح ومنظمة التحرير في توجهاتها العلمانية. وإذ بحركة المقاومة الإسلامية التي ستنطلق ستكون مستندة بالفعل إلى جذور وحواضن اجتماعية

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٧٦ وما بعدها، ٨٨؛ وينظر أيضا في ذات التفسير: أحمد جبريل، ذاكرة الثورة الفلسطينية، ص١٠٠، ١٠٢.

(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٨٤ وما بعدها.

كثيرة ومنتشرة[١]، مما سيجعل انطلاقتها المفاجئة انطلاقة قوية وكبيرة.

أول ما يمكن التقاطه من مظاهر البداية هو إرسال بعض الشباب للتدريب العسكري في الخارج (١٩٨٠م)، ثم بدأ عمل حركة حماس بتكوين الجهاز الأمني (١٩٨١م) الذي يجمع المعلومات ويتتبع عملاء الصهاينة ممن يعملون لصالحهم ويجندون من الفلسطينيين عملاء لصالح الصهاينة، واستطاع أن يكشف بعض العملاء ويحاكمهم دون إعلان عن الأمر[٢]. ثم بدأ تكوين الجهاز العسكري الذي كان يحمل عبء تجنيد الشباب والبحث عن السلاح، وكلاهما أمرٌ شديد الخطورة في بيئة الاحتلال، فكيف إن كان احتلالا مؤسسا على نظرية الأمن؟! ثم كيف إن كانت البداية بالخبرة الذاتية المحدودة وبمنطق التجربة والخطأ؟! غير أن الأمور سارت سيرا حثيثا ومتخفيا قدر الطاقة، واستطاع الجهاز العسكري تنفيذ عدد من العمليات قتل فيها وأسر بعضا من جنود الاحتلال، وانكشفت بذلك بعض الخلايا العسكرية التي جرى تكوينها، واعتقل الشيخ أحمد ياسين (١٩٨٤م)[٣].

تورد بعض المصادر[٤] أن النصف الأول من الثمانينات كان يشهد حالة خطيرة من تراجع عمل المقاومة لا سيما في داخل فلسطين، وأخطر منه ما نشأ من التطبع والتكيف بين قطاعات واسعة من المجتمع الفلسطيني واليهود، حتى ربما نشأت علاقات طبيعية بين الجانبين، وكان كثير من الفلسطينيين يعمل في المناطق الإسرائيلية وربما يغيب أسبوعا أو أكثر عن مدينته ويقيم في مكان عمله في الأرض المحتلة منذ (١٩٤٨م)، كما كان

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٢٥.

(٢) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٢٧ وما بعدها.

(٣) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١١٩ وما بعدها.

(٤) وسمعت هذا بنفسي من بعض قيادات حركة حماس ضمن لقاءات عامة متعددة، ومن شهود عيان في هذه المرحلة. وترد إشارات إليه في مصادر أخرى، ينظر مثلا: عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٥٢٤، ٥٢٥.

التجار الإسرائيليون يغشون الأسواق في غزة والضفة الغربية، ومع كثرة الإلف وطول الأمد وتضاؤل التهديد تمدد الوجود اليهودي إلى داخل المجتمع الفلسطيني تجاريا في البداية ثم اجتماعيا، وهذا كله مما جعل عمل المقاومة نفسه يعاني من النبذ الاجتماعي في بعض الأحيان وفي بعض القطاعات الاجتماعية.

ولا يُستغرب هذا الحال، فإنه من طبائع الاجتماع، وينبغي أن نتذكر الوضع العصيب الذي كان قائما في هذه الفترة بعدما استطاعت إسرائيل بالتعاون مع الحكومات العربية تنفيذ ضربات قاضية لحركات المقاومة، وأكبر هذه الضربات ما جرى في الأردن (١٩٧٠م) ثم في لبنان (١٩٨٢م)، فضلا عن سلسلة الاغتيالات الطويلة التي قضت على قادة هذه الحركات في أوروبا ولبنان وتونس وغيرها، مما بدا معه أن المقاومة خيار مستحيل لا نفع فيه، بل فيه ضرر لا يُحتمل، لا سيما وقد بدأت الدول العربية تدخل في السلم والتطبيع مع الصهاينة!

وقد شجَّعت هذه الحالة الفلسطينية التي بدأت تتطبع وتألف الوجود اليهودي إسرائيلَ على أن تفكر لأول مرة في الاستعانة ببعض الشخصيات وتشكيل كيانات إدارية صغيرة في القرى لتتحمل عبء الإدارة اليومية للمجتمع الفلسطيني، بعدما أمكنه تدمير وتصفية قيادة منظمة التحرير في الخارج.

لهذا كله، كان من أولى أولويات عمل الشيخ ياسين وإخوانه، هي مكافحة هذا التطبُّع والتكيُّف الذي بدأ يسري داخل المجتمع الفلسطيني، لا سيما بين الشباب اليهودي والشباب الفلسطيني. وأخذ العمل الدعوي والحركي يبذل جهده وطاقته في تثبيت أن هؤلاء يهود، وأنهم محتلون، وأنه لا يمكن التعايش معهم بحال!

ولم يخلُ هذا الصعود الإسلامي من معوقات وعراقيل متنوعة؛ لكن أشدها أمران:

الأول: ما يعانيه المجتمع من طول بعد عن العمل الإسلامي

والسمت الإسلامي، وشيوع الأفكار اليسارية، حتى يذكر أحد القادة المؤسسين لكتائب القسام أن قريته «سلفيت» كانت تسمى «موسكو الصغرى» لما يشيع فيها من الشيوعية والإلحاد واختفاء الحجاب وغياب الشباب عن المساجد وكراهية الإسلاميين وغير ذلك(١).

والثاني: ما أحدثته حركة فتح التي رأت أن زعامتها تتهدد وتتهاوى، وقد وصل الأمر إلى القتل والاغتيال وإلقاء القنابل على بيوت قيادات إسلامية، فضلا عن الاشتباكات الطلابية وغيرها، بل كانت الاشتباكات والاضطهادات تجري داخل السجون الإسرائيلية تجاه المعتقلين من حماس، وكانت للشيخ أحمد ياسين موازنة دقيقة بين ألا تتدهور الأمور نحو اقتتال داخلي، وبين ألا تسكت الحركة وتمتص كل المواقف بحيث تصير مُهانة مُسْتباحة لا هيبة لها، وقد نجح في ذلك، فخرجت الحركة الإسلامية من هذه الفترة دون أن تنخرط في اقتتال، ودون أن تنكسر هيبتها أو تُسْتَلب قدراتها(٢).

أعيد ترميم الجهاز العسكري بعد ضربه (١٩٨٤م)، وكان من حسن الحظ أن استطاعت الجبهة الشعبية أسر ثلاثة جنود إسرائيليين في حرب لبنان فبادلتهم بألف ومائتي أسير من بينهم الشيخ ياسين الذي لم يقض سوى أحد عشر شهرا من الحكم القاضي بثلاث عشرة سنة(٣)، وبدأ في العمل منذ (١٩٨٦م)، لكن لم تعلن حماس عن نفسها إلا مع اندلاع الانتفاضة الأولى (ديسمبر ١٩٨٧م).

أقدم صهيوني يقود شاحنة على دهس مجموعة من العمال الفلسطينيين عامدا، فكانت تلك الشرارة التي أطلقت موجة غضب داخل المجتمع

---

(١) زاهر جبارين، حكاية الدم: من شرايين القسام، ط١ (دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، ٢٠١٢م)، ص٢٥ وما بعدها.

(٢) أحمد منصور، الشيخ أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٠٤ وما بعدها، ١٥٦ وما بعدها؛ إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص١٦٧، ١٦٨.

(٣) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٤٧ وما بعدها.

الفلسطيني، ولكن المجتمع الأعزل الذي لم يكن يملك سلاحا لم يجد بيده إلا إلقاء الحجارة، ومن ها هنا عرفت هذه الموجة بـ «انتفاضة الحجارة»، وتولى قيادتها في أيامها الأولى طلاب الجامعة الإسلامية بغزة، ثم قررت الحركة الإسلامية ـ التي ما تزال تعد لمثل هذه الحال منذ سنوات ـ أن تدخل على الخط لإشعال الموقف، ونقل الانتفاضة من الجامعة ـ التي أصدر الإسرائيليون قرارا بإغلاقها ـ إلى الشوارع والميادين والمساجد[١]!

سرعان ما سرت هذه الانتفاضة بين أنحاء فلسطين، وإذا بالشعب الذي بدا وكأنما قد استكان وضعف وأرهق، وبدا وكأنما قد قضت إسرائيل على بذور المقاومة وقياداتها، ينتفض من جديد في وجه الاحتلال، بل ينتفض بشكل عصي على التصديق أثار ذهول الإسرائيليين ومعهم القيادات الفلسطينية أيضا[٢]، وظهرت سريعا حالات ثورية من تنظيم سائر فئات المجتمع، لتعظيم هذا التمرد الواسع، بما في ذلك الإضرابات والامتناع عن دفع الضرائب والرسوم، ومقاطعة السلطة المدنية الإسرائيلية. ولأول مرة بدا أن الداخل المستكين الذي جرى إضعافه وتطبيعه قد استلم زمام المبادرة بعدما غربت شمس المقاومة التي كانت تنطلق من الخارج.

على أن هذه الانتفاضة قد حملت ـ بالنسبة للإسرائيليين وأوليائهم ـ جديدا وخطيرا أيضا، التنظيمات الإسلامية، وقد حملت هذه التنظيمات فكرة جديدة عن المعركة، فإذا كانت منظمة التحرير قد صارت ترجو حل الدولة الواحدة التي يتجاور فيها اليهود والعرب، فإن هذه التنظيمات أعادت من جديد فكرة: تحرير فلسطين من البحر إلى النهر، بل وجعلت هذه الفكرة فكرة مقدسة نابعة من الدين نفسه، بحيث أن التنازل عنها ليس سهلا ولا ممكنا كما هو الحال لدى المنظمات العلمانية التي تعمل وفق فن الممكن!

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٦٩ وما بعدها.

(٢) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ٣٥٨/١ وما بعدها.

لجأ الاحتلال إلى سياسات العقاب المختلفة، بداية من تكسير العظام، إذ كان يُمسك بالشاب الفلسطيني فيُكسر ذراعه أو تُكسر يده! ومرورا بالاعتقال والسجن والتعذيب، والضرب بقنابل الغاز المسيل للدموع، وانتهاء بالقتل بالرصاص! وقد بلغت حصيلة الانتفاضة في سنواتها الست: أكثر من ألف وخمسمائة شهيد، وحوالي مائة وثلاثين ألف جريح، وحوالي مائة وعشرين ألف معتقل!

رافق مظاهر الاحتجاج الجماهيرية عمليات نوعية أخرى، مثل خطف جنود إسرائيليين، وكذلك زادت وتيرة تصفية العملاء، ووقعت بعض الهجمات المسلحة على مستوطنات ومواقع يهودية، فكان هذا تطورا مربكا للإسرائيليين، وزاد من غموض الموقف أنه لم تعلن أية جهة عن تبني هذه العمليات، بمن في ذلك حماس نفسها(١).

ومع إعلان حركة المقاومة الإسلامية (حماس) عن نفسها، بدأت إسرائيل حملة شرسة لتعقب أعضائها والمشتبه في كونهم يقودونها ويديرونها، وقد استطاعت في الفترة الأولى اعتقال العديد من القيادات بين غزة والضفة ضمن آخرين، لكن العمل الميداني في متابعة الانتفاضة وإصدار البيانات ظل مستمرا.

من جهته نفذ النظام الأردني خطوة خطيرة بإعلانه التخلي عن الضفة الغربية (٣١ يوليو ١٩٨٨م)، وترك أمرها إلى الفلسطينيين(٢)، وهو ما معناه ترك أمرها إلى الإسرائيليين الذين يسيطرون عليها منذ ١٩٦٧م، كما أن من آثاره إثارة الفوضى والنزاع بين الفلسطينيين حول من يحكمهم، وكيف سيحكمهم تحت الاحتلال، لقد كان ذلك تمكينا إضافيا للاحتلال في ذلك الوقت العصيب.

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) كانت الضفة الغربية، بنص الدستور الأردني، جزءا من المملكة. وكان الملك حسين نفسه في الستينات يخطب بأن «وحدة الضفتين هي وحدة باركها الله وأيدها الشعب وهي نواة طليعية للوحدة الكبرى». ينظر نص خطاب الملك حسين بمدينة عجلون بتاريخ ١٤ يونيو ١٩٦٦م عند: أحمد الشقيري، الأعمال الكاملة، ١٣٧٩/٥.

تذهب بعض التحليلات إلى أن الملك حسين إنما فعل ذلك ليتخلص من ضغطيْن متناقضيْن لم يعد يقوى على مواجهتهما معا، فثمة شعب عربي أردني وفيه كتلة كبيرة من الفلسطينيين ـ الذين نزحوا إلى الأردن في النكبات المختلفة ـ يضغط باتجاه دعم الانتفاضة ومساندتها والقيام بدور أكبر في مواجهة الاحتلال، لا سيما والضفة الغربية انتُزِعت من الأردن، فهي ـ حتى وفقا للدستور الأردني المعمول به ـ أَرض أردنية! وهذا هو الضغط الأول، وأما الضغط الثاني فهو الضغط الإسرائيلي الذي يطلب من ملك الأردن خطوات أكبر وأوسع في التعاون السياسي والأمني وربما العسكري، وهو ما يهدد وجود نظام الأردن نفسه الذي ما زال رغم كل انسجامه مع الصهاينة يتغطى بخطاب عروبي قوي أمام شعبه.

لكن تسلسل الأمور كما وقع يشير إلى غرض خبيث جديد، ذلك أن قرار فك الارتباط هذا أنعش الوضع السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، إذ أخلى لها الساحة لتكون هي المتولية لتمثيل شعب الضفة الغربية، وهو الأمر الذي لم تتوانَ فيه المنظمة، بل سارعت بعد ثلاثة أشهر من هذا الإعلان لتقيم المؤتمر الوطني التاسع عشر، وهو المؤتمر الذي شهد تحولا واسعا في مواقف فتح ومنظمة التحرير، بل شهد انقلابا على مواقفها السابقة، وفيه بدأت تهيئة فتح ومنظمة التحرير لتكون الخائن القادم الذي سيضرب الانتفاضة الفلسطينية!

في هذا المؤتمر اعترفت المنظمة بقرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧م)، ودعت إلى تسوية سياسية للقضية، وهو الأمر الذي يعني اعترافا بإسرائيل وتخليا عن الأرض المحتلة في (١٩٤٨م)، ولكي لا يبدو المؤتمر مجرد تنازلات، فقد أعلن المؤتمر ما أسماه «استقلال فلسطين»، دون أي قدرة عملية على أي استقلال، لكنها كانت فرصة لكثير من الدول والأنظمة لتعترف بفلسطين، أو بشكل أدق: تعترف بهذه القيادة الفلسطينية التي تنحرف عن الطريق وتدخل في عملية الاستسلام والتسوية، بينما ظلت

الدول الغربية غير معترفة بفلسطين ولا بالمنظمة[١]!

وهكذا طُعِنت قضية فلسطين طعنتيْن، في مرحلتين مختلفتيْن، بشعاريْن متناقضيْن؛ فهي قد طعنت بشعار العروبة والقومية لمنع أهل فلسطين من أن تكون لهم قيادة وممثل مستقل، وقيل حينئذ بأنها قضية جيوش لا قضية عصابات ليُحال دون الفلسطينيين والمقاومة المسلحة الشعبية وحرب العصابات، فلما أن سَلَّمت الأنظمةُ فلسطينَ كلَّها للصهاينة، عادت الآن تطعنها بشعار الوطنية وأن الفلسطينيين أولى بحمل قضيتهم وأولى بالمنافحة عن استقلال أرضهم، ولم يفعلوا ذلك إلا بعد أن ضمنوا المسارَ الذي ستسلكه قيادة منظمة التحرير التي أرهقت وأنهكت وذهبت قوتها وصارت تتسول أية حلول[٢]!

بينما كان يجري هذا كله على صعيد السياسة، كانت الانتفاضة مشتعلة على الأرض، وفي قلب هذه الانتفاضة بدأت المقاومة المسلحة تعرف طريقها وتبني خبرتها؛ فقد بدأت عمليات الجناح العسكري لحماس بخطف جنديين إسرائيليين (١٩٨٩م)، ثم ضُرب هذا الجناح وأعيد تأسيسه من جديد باسم «كتائب عز الدين القسام» (١٩٩٠م)، وأخذ الجهاز الجديد في التماسك حتى بلغت حصيلة عملياته (١٩٩٣م) نحو مائة وأربعين عملية قتل فيها ثمانين إسرائيليا وجرح أكثر من مائتين[٣]، غير أن ما يثير الإعجاب حقا أن هذا العمل كان معظمه يجري على قاعدة التجربة والخطأ، والتعلم من الأخطاء وبالضحايا كذلك، فما أسرع ما بين البداية وهذه النتائج في بيئة خانقة وبخبرة تبدأ من الصفر[٤]!

---

(١) عبد الله عزام، الذخائر العظام، ٨٥٣/١؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) ينظر هنا، بيان حركة حماس رقم ٢٨، الصادر بتاريخ ١٨ أغسطس ١٩٨٨م، تعليقا على قرار فك الارتباط وتحذيرا من مغباته ومآلاته!

(٣) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٠٦، ١٠٧.

(٤) ينظر مثلا: زاهر جبارين، حكاية الدم، ص٣٦ وما بعدها.

ومثلما سُمِّيت هذه الانتفاضة: انتفاضة الحجارة، فقد سُمِّيت كذلك «انتفاضة المساجد» لكونها تخرج من المساجد[1]، وتأخذ انطلاقتها الأسبوعية عقب صلاة الجمعة، ثم إن اصطباغ قادتها بالصبغة الإسلامية، ورفعها الشعارات الإسلامية، وكثرة خطبائها الإسلاميين، وما انبثق خلالها من حركات إسلامية، كل هذا وغيره جعلها انتفاضة إسلامية لا شك في ذلك، ولا يمنع هذا أن يشارك في فعالياتها أو عملياتها آخرون من الحركات اليسارية والوطنية، فإن ذلك لا يخدش فيها ولا يسحب عنها الهوية الإسلامية العامة والغالبة.

وفي ضربة واسعة وشاملة، اعتقلت إسرائيل أكثر من أربعمائة من القيادات الإسلامية في الضفة والغزة، ثم قررت نفيهم إلى خارج فلسطين إلى لبنان.

غير أن هذه القيادات المنفية التي حُمِلت من الاعتقال إلى الحدود اللبنانية سطرت أسلوبا جديدا في التعامل مع الموقف، لم تستسلم لقرار النفي، بل اعتصمت حيث أُنْزِلَتْ قَسْرًا، في منطقة «مرج الزهور» في جنوبي لبنان، وأقامت لنفسها هناك مُخَيَّمًا في البرد والثلج وحيث لا تصلح الحياة، فتحقق لهم بهذا جملةٌ من المكاسب الثمينة:

١. إثبات مفارقة هذه القيادات الإسلامية الجديدة لقيادات فصائل المنظمة الذين توغلوا في البلدان وانخرطوا في سياساتها الداخلية، وبحثوا عن المكاسب والمغانم في منافيهم خارج فلسطين.

٢. إثبات التعلق الشديد لهذه القيادات بفلسطين حيث يرابطون على الحدود في ظروف مأساوية يحاولون العودة، حتى مع الخطر الذي يحيق بهم، وهو مشهد بطولي مثير للإعجاب.

٣. أدى اجتماع القيادات جميعا في مكان واحد إلى فرصة عزيزة لم تكن متاحة لهم داخل فلسطين، إذ صاروا يلتقون ويجتمعون وينظمون

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص١٧٤، ١٧٥.

أفكارهم وخططهم، فكأنما جمعهم الاحتلال معًا في اجتماع لم يكن لهم أن يحصلوا عليه مهما بذلوا من احتياطات أمنية وجسارة فدائية.

٤. مثَّل هذا الاعتصام في مرج الزهور محطة سعت إليها وسائل الإعلام العربية والدولية، لدراسة هذه الظاهرة الجديدة (ظاهرة الاعتصام على الحدود) لهذه القيادات الإسلامية الجديدة (المفارقة لنمط قيادات منظمة التحرير)، فكانت فرصة ثمينة أخرى للترويج لهذه القيادات.

٥. وأفضى هذا كله إلى صعود مفاجئ وكبير في شعبية حركة حماس وفي تشكل رمزية هذه القيادات الإسلامية الجديدة وتألقها[١].

من أهم نتائج الانتفاضة أنها نقلت المعركة ومركز المقاومة الفلسطينية إلى الداخل، فمن بعد ما كان مركز المقاومة في الخارج: الأردن حينا ثم لبنان حينا، انتقل هذا المركز إلى الداخل، وهو ما يعني تصاعدا في خطورة المقاومة إذ هي أعرف بالأرض وأقدر «على إدارة دفة المعركة وتحديد متطلبات العمل، فجندي واحد داخل الوطن خير من مائة خارجه، وبندقية واحدة داخله خير من مائة خارجه»[٢]، ثم إن المقاومة تتحرك في حاضنتها الشعبية الفلسطينية، وهي تتحرك بلا سقوف سياسية مثلما هو حال الأنظمة وحساباتها، كما أنه ليست لديها مكاسب تخشى عليها الزوال كما هو حال المنظمة في الخارج. وأخطر من هذا كله أنها حركة سائلة لم تنتظم بعدُ في مؤسسات علنية وهياكل يمكن الإمساك بها وتعطيلها، وأنها سرية تختفي بين أمواج حاضنة شعبية ساخطة ومؤيدة.. وهذا الوضع هو أعسر ما يمكن مواجهته.

اتفاقية أوسلو وتكوين السلطة الفلسطينية

لقد تكرر في تاريخنا المعاصر أن المحتل الأجنبي إذا عجز عن كتم الثورة وإخمادها اتخذ لذلك طريقا أخرى ماكرة، ومنها: تصنيع أو توسيع

(١) في تجربة مرج الزهور، ينظر: عدنان مسودي، إلى المواجهة، ص١١١ وما بعدها.
(٢) زاهر جبارين، حكاية الدم، ص١٢١.

الطريق لقيادة تابعة له، أو لقيادة يعلم منها الضعف أو الفساد، لتكون هي القيادة المعبرة والممثلة عن هذه الثورة، فإذا ما حدث ذلك فما هو إلا أن تفقد الثورة معناها، فإما تمزقت أو تشتت أو غُلِبت بأهون الأسباب[1].

في ذلك الوقت كان ياسر عرفات، الذي صار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، في أسوأ حالاته، وكانت حياته سلسلة من الفشل الذريع، وهذا إذا أحسنا به الظن وغضضنا الطرف عما يثار حوله من شبهات، فلقد أُخْرج مهزوما من الأردن (١٩٧٠م)، ثم من لبنان (١٩٨٢م)، ثم اغتيل القادة الأقوياء من حوله جميعا، واغتيل أهم كوادر المنظمة وحركة فتح، وتراجعت بشدة وتيرة العمليات التي تنفذها حركته أو المنظمة، وتخلت الدول العربية عن القضية، بداية بمصر (١٩٧٩م) ثم مبادرة الأمير فهد (١٩٨٢) والتي تبنتها القمة العربية في فاس المغربية. وحتى الدول التي رفضت التطبيع والسلام لم تسعفه ولم تنقذه ولم يجد منها التمويل المطلوب، فلقد تخلى عنه نظام الأسد وهو في لبنان، وتخلى عنه القذافي، وحاولت جميع هذه الأنظمة أن يكون رجلا تابعا لها، وأن تكون قضية فلسطين ورقة بيدها لتساوم بها على قضايا أخرى خاصة. ثم إنه اقترف خطأ فظيعا جديدا حين أيَّد موقف صدام حسين في غزوه الكويت مما أثار عليه غضب الكويت وبقية دول الخليج، وتلك هي الدول التي كانت تنفق المال بسخاء، فلما هُزِم صدام حسين وتدخلت القوات الأمريكية في الخليج، كان وضع عرفات مزريا وبائسا في الحالة العربية وفي الحالة الفلسطينية الداخلية.

(١) وقع هذا في مصر منذ ثورة ١٩١٩ على الإنجليز، فمهَّد الإنجليز قيادة هذه الثورة لواحد من رجالهم المخلصين: سعد زغلول، فذهب بالثورة القوية في طريق المفاوضات التي لم تنتهِ ولم تصل إلى حل لمدة ثلاثين عاما، واستمر الاحتلال يحكم مصر. ثم تكرر هذا النموذج في كثير من الحركات التحررية حتى كاد القرن العشرين كله يكون على هذه الشاكلة: أهل البلد والإسلاميون يضحون ويدفعون الثمن، ثم يذهب الحكم والثمرة لأتباع المحتلين ورجالهم.

لم ينكشف حتى الآن، على حد علمي، من ذلك الذي فكَّر في استعمال ياسر عرفات لضرب الانتفاضة الفلسطينية، وذلك بأن يتولى قيادتها، فتلك هي المرة الأولى منذ بدأت قضية فلسطين التي يسمح فيها المحتلون بأن تتشكل قيادة للمجتمع الفلسطيني، وقد كان ذلك محظورا وممنوعا منذ بدأ الاحتلال الإنجليزي!! وكافة المحاولات السابقة التي أخفقت إنما كانت تصعيد قيادات صغيرة تدير البلديات والمرافق لا قيادة تمثل الشعب سياسيا!

لقد أظهرت الانتفاضة الإسلامية الواسعة أن شعبًا لا قيادة له قد يكون خطرا، وأن سيولته هذه قد تشكل قلقا وإزعاجا مستمرا، وأنه كلما جرى التخلص من خلية ظهرت أخرى، فمن هنا خرجت فكرة أن قيادة فلسطينية تابعة وموالية للاحتلال ستكون أفضل للمحتل من أن يتولى أمور الفلسطينيين بنفسه[١]. وما من شك في أن سلوك الأنظمة العربية وقدرتها على السيطرة على شعوبها قد جعل هذه الفكرة أقوى وأكثر إغراءًا، فإن النظر فيما حققته أنظمة دول الطوق من حماية إسرائيل وتكبيل الشعوب سيفضي إلى الاعتقاد بأن وجود سلطة فلسطينية على هذا النمط سيكون الحل المناسب.

كانت المعادلة المستقرة التي حكمت الأنظمة العربية منذ تأسيس إسرائيل هي القيام بدورهم في حمايتها مقابل الدعم الدولي في تمكينهم من عروش الحكم. وهو ما صنع مسابقة بين الطامعين في الحكم على الرضا الإسرائيلي ليحوز طالب الحكم الدعم الأمريكي.

وفي تلك اللحظة: جاء دور ياسر عرفات ليكون هو الزعيم

(١) يروي زاهر جبارين، وهو من مؤسسي كتائب القسام في الضفة الغربية، وهو الآن من قيادات حماس، في مذكراته أن ضابط التحقيق الإسرائيلي قال له أن هذه العمليات العسكرية التي شنتها المقاومة هي السبب وراء الإتيان بمنظمة التحرير إلى فلسطين، وأضاف: «ولولاكم ما أعطيناهم شيئا، ولو لم نفعل لأصبح عندنا لبنان ثانية». زاهر جبارين، حكاية الدم، ص٥٥.

الفلسطيني الذي يتولى هذه المهمة.. وكان هذا بالنسبة له طوق نجاة وإنقاذ لا يمكن التفريط فيه بعد مسيرة من الفشل والإخفاق الطويل الذي يوشك معه أن يكون واحدا من زعماء فلسطين الذين انزووا في بيوتهم وتجاوزهم التاريخ والواقع!!

ولقد كشف عرفات عبر مسيرته عن شخصية متلونة ومراوغة وزئبقية، حتى وصفه مدير المخابرات الأمريكية فيما بعد بأنه «أعقد إنسان تعاملت معه دون منازع»[(١)]، مع نزعة طغيانية تهتم بالسيطرة على السلاح والمال في داخل الحركة الفلسطينية، ولا تزال في سيرة هذا الرجل مناطق غامضة وملغزة لم ينكشف الستار عنها بعد، ولا يتسع المقام هنا لتناول ذلك، ولكن القصد الآن أن عرفات كان يمثل شخصا مناسبا لتقديم التنازلات في هذه اللحظة من مسيرته[(٢)].

يمكن أن يضاف أيضا إلى هذا الواقع المحلي تلك التغيرات الخطيرة التي جاء بها الواقع الدولي؛ فقد انهار الاتحاد السوفيتي وانفردت أمريكا بالهيمنة على المنطقة، ثم إنها حطمت قوة العراق بعد المحاولة الفاشلة لصدام حسين في احتلال الكويت والهيمنة على الخليج، وقد أثار هذا كله عددا من النتائج الحاسمة، من أهمها فيما يخص موضوعنا هنا:

---

(١) جورج تينيت، في قلب العاصفة: السنوات التي قضيتها في السي آي إيه، ترجمة: عمر الأيوبي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧م)، ص١١٠.

(٢) من المثير للنظر أن عرفات هو الوحيد الذي لم يجر اغتياله بين رجال فتح الأقوياء، وأن منافسيه كانوا يزاحون عن الطريق بالاغتيال أو الإبعاد إذا هددُّوا موقعه القيادي، ولئن كان بعض ما قيل عنه قد انطلق من دافع الخصومة كما تنطق بذلك مذكرات اليساريين والإسلاميين، فإن بعض هذا قد قيل على لسان أكاديميين مستقلين معروفين بالنزاهة، مثل أنيس صايغ (وهو مؤرخ قومي مسيحي مرموق) عن فساده المالي والإداري وكذبه، أو ما ذكره د. وليد سيف (وهو مفكر لغوي وروائي مستقل) في مذكراته من قِدم التواصلات بين عرفات وإسرائيل. ينظر: أنيس صايغ، عن أنيس صايغ، ط١ (بيروت: رياض الريس للنشر، مايو ٢٠٠٦م)، ص٢٨٩ وما بعدها. وليد سيف، الشاهد المشهود، ط١ (عمان: الأهلية، ٢٠١٦م)، ص.

١. تفسخ في الأنظمة العربية التي بدا لمرة أخرى أنها هزيلة، فهي بين أنظمة لا تقوى على الدفع عن نفسها من أحد فتهرول إلى الأمريكان، أو أنظمة لا تقوى على الدفع عن نفسها إذا جاء الأمريكان!!

٢. ارتفاع الغطاء القوي عن الدول المنخرطة في نفوذ الاتحاد السوفيتي مثل سوريا والعراق وليبيا وغيرها، وهذا إن لم يجعلها تبادر إلى الاستسلام فسيجعلها أضعف من التفكير في مواجهة إسرائيل أو في دعم الفلسطينيين دعما ذا بال.

٣. وقوع التهجير الثاني لمئات آلاف الفلسطينيين ممن كانوا يقيمون في الكويت (وهي واحدة من أهم دول الخليج التي شهدت كثافة فلسطينية) وفي العراق في خضم اجتياح صدام حسين للكويت، ثم في إخراجه منها على يد القوات الدولية، مما زاد الحال بؤسا وأوقف كثيرا من الأموال وحطم كثيرا من الإمكانيات الفلسطينية نفسها، فضلا عن دول الخليج التي اعتبرت وقفة عرفات مع صدام خطيئة لا تغتفر.

٤. تدفق الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي المنهار، حتى بلغوا مليونا في خلال عشر سنوات بعد سقوطه، وفيهم كثير من العناصر والكوادر العلمية والعسكرية.

٥. وهذا يفضي في النهاية إلى نتيجة أشد: صارت القضية الفلسطينية أكثر يُتْمًا. وصار النفوذ الإسرائيلي أشد قوة وصعودا[1].

لقد كان ياسر عرفات في جانب الخاسرين، حيث وقف مع صدام حسين، فزاد هذا من حاجته إلى أية فرصة إنقاذ. وفي المقابل: كان الانتصار الأمريكي وانهيار الاتحاد السوفيتي مما شجع الأمريكان والإسرائيليين على التفكير في هذا المقترح: مقترح السلطة الضعيفة والتابعة التي تعمل كعلاج لصداع الرأس الذي يثيره الفلسطينيون.

---

(١) فتحي الشقاقي، الأعمال الكاملة، ٣٣٩/١ وما بعدها؛ محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١١١، ١١٢.

وفي خضم هذه الأحداث، كان عرفات قد تنازل قبل ذلك خطوة أخرى خطيرة، كما ذكرنا سلفا، ففي عام (١٩٨٨م) تخلى عن الشعار المستقر المرفوع وهو النضال في سبيل دولة واحدة علمانية لا يهودية ولا إسلامية إلى القبول بحل الدولتين: دولة فلسطينية إلى جوار دولة يهودية، وأن تقوم الدولة الفلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة، أي على حدود ما قبل ١٩٦٧م. فكان هذا أول تخلٍّ عن فلسطين التاريخية، وأول خطوة تجاه الاعتراف بالدولة اليهودية الصهيونية.

لقد أثبتت القوى الدولية خيانتها لمبدأ العلمانية الذي ترفعه وقامت عليه، فساندت الدولة اليهودية وخذلت المنظمة الفلسطينية العلمانية التي تنادي بدولة واحدة علمانية! حتى ضغطت على المطالبين بدولة علمانية ليقبلوا بوجود دولة يهودية إلى جوارهم! وقد أسلفنا القول أنه لو كانت إسرائيل مجرد مشروع استعماري علماني لكانت إقامة دولة علمانية واحدة هي الغاية، ولكن إسرائيل مشروع لا ينفك عن العقيدة الصليبية التي لا تنفك هي عن الغرب والتي تمثل واحدا من أعمدة حضارته[١].

وهكذا صارت الصورة الآن: عرفات، الزعيم الفلسطيني المهزوم عسكريا، والمخذول سياسيا، والمتنازل عن مبادئه القديمة، والذي قطع خطوة كبرى نحو الاعتراف بإسرائيل.. قد صار جاهزا ليكون حصان طروادة الذي تُخَادَع به الانتفاضة الفلسطينية!

بدأت مرحلة من الاتصالات والمفاوضات، التي يريد فيها الإسرائيلي عدة أمور: الاطمئنان التام إلى أن هذه السلطة الفلسطينية ستكون تابعة، وأنها لن تمثل عليه أدنى خطر، وأنها ستقوم بمهماتها في السيطرة على الفلسطينيين وفي ضرب حركات المقاومة، وأنها ستسحب هذه الانتفاضة إلى دهاليز المفاوضات لتبريد الانتفاضة. وفي المقابل، أراد عرفات أن

---

(١) كتب ريتشارد كوك وكريس سميث كتابا بعنوان «انتحار الغرب»، خلاصته أن الحضارة الغربية تقوم على سبعة أعمدة، منها المسيحية، وأخذ الكتاب في التحذير من مظاهر تآكل هذه الأعمدة السبعة التي قامت عليها الحضارة الغربية.

يتسلح بأكبر قدر من السلطة الحقيقية التي تجعل له مكانا حقيقيا إن في فلسطين أو في مجاله الإقليمي العربي، وأن يأخذ أقصى ما يستطيع من مكاسب يرفع عن نفسه بها عار الخزي والتنازل حين اعترف بإسرائيل وحقها في الوجود على أكثر من ثلاثة أرباع أرض فلسطين، وينفي بها عن نفسه أنه سيكون حارس أمن لحماية إسرائيل وإخماد مقاومة شعبه الفلسطيني.

جرى هذا كله في عدد من اللقاءات السرية والعلنية، كانت أهم محطاتها اتفاق أوسلو (١٩٩٣م).

بمراجعة موازين القوى، وطبيعة الشخصيات من الطرفيْن، والجهات الداعمة لكل طرف، فليس عسيرا أن تكون النتيجة في غاية البؤس: لقد أسفر هذا كله عن إنشاء سلطة فلسطينية تعترف بحق إسرائيل في الوجود، وتتعهد بالمحافظة على أمنها فتحارب المقاومة وتطاردها، وتتنازل عن كل الأرض المحتلة قبل (١٩٦٧م)، ولم تكسب في المقابل سوى الاعتراف بهذه السلطة، ووعود بانسحاب متدرج وعلى مراحل من قطاع غزة ونحو خُمس مناطق الضفة الغربية[١]، مع تأجيل للقضايا المهمة إلى جولات مفاوضات أخرى، والقضايا المهمة هي: وضع القدس، عودة اللاجئين، حدود الدولة الفلسطينية، موارد المياه، المستوطنات اليهودية المبنية على الأراضي المحتلة ١٩٦٧م.

وهذا فضلا عن قضية الأسرى التي لم يكن لها مكان في هذه الاتفاقيات مما كانت له آثار بعيدة على الأسرى أنفسهم، وعلى سائر القيم التي اعتنقها أبناء حركة فتح[٢].

---

(١) قُسِّمت الضفة الغربية إلى مناطق أ، ب، جـ، فمنطقة جـ (وهي النسبة الأكبر التي تمثل ٦٠٪ من الضفة) خاضعة للسيادة والإدارة والسيطرة الأمنية لإسرائيل، ومناطق ب تخضع لسيطرة مشتركة (بطبيعة الحال: اليد العليا فيها للإسرائيليين)، ومناطق أ خاضعة للسلطة الفلسطينية.

(٢) ينظر مثلا: زاهر جبارين، حكاية الدم، ص١٦٧ وما بعدها.

وهكذا، لم تُعْطِ إسرائيلُ عرفات سوى سلطة محدودة تسمح له بأن يتولى من فوره المهمات الإدارية والأمنية التي تتيح له السيطرة على المجتمع الفلسطيني وإخماد مقاومته، ولم يأخذ منها سوى وعود باستمرار جولات المفاوضات مستقبليا فيما سوى هذا. وهذا هو أكبر تنازل شهده مسار القضية الفلسطينية، جرى انتزاعه على يد «زعيم فلسطيني» جيئ به ليمتصّ الانتفاضة القوية!!

وفي المقابل استمرت إسرائيل في نهجها الاحتلالي وترسيخ وجودها على الأرض وزيادة بناء المستوطنات وتهويد القدس، إذ ليس ثمة اتفاق نهائي بعد في أيٍّ من هذه الملفات المهمة، ومن ثَمَّ فلا التزام عليها. فكأنما منحت السلطة الفلسطينية واتفاق أوسلو للاحتلال غطاءً يُشَرِّع له ومدخلا يُسَهِّل عليه عمل الاحتلال ليتحول من كونه غيرَ شرعيٍّ ولا قانونيٍّ إلى كونه غير مخالف لأي اتفاقيات مبرمة بين الطرفين!! وبعبارة أخرى: كسبت إسرائيل بهذا الاتفاق احتلالا مجاني التكاليف!

لئن وُصِف وعد بلفور بأن «من لا يملك أعطى من لا يستحق»، فليس هذا بأصدق مما يوصف به عرفات أيضا في اتفاق أوسلو، فلقد أعطى ما لا يملكه لمن لا يستحقه، فأرض فلسطين ليست ملكا له بأي معنى من المعاني، لا بمعنى الإسلام الذي يجعلها وقفا للمسلمين جميعا، ولا بمعنى الديمقراطية العلمانية إذ هو ليس زعيما منتخبا من الشعب الفلسطيني، وغاية ما يقال فيه أنه إنما يستمد الاعتراف به كرئيس منظمة اعتبرتها أنظمة عربية رسمية، وهذه الأنظمة كلها لم تأتِ إلى السلطة لا وفق بيعة شرعية إسلامية، ولا حتى وفق منظومة انتخاب ديمقراطية نزيهة، وهكذا اعترفت أنظمة غير شرعية، بمنظمة غير شرعية، لتأتي وتوقع اتفاقا غير شرعي، وتؤسس بناء عليه سلطة أخرى غير شرعية في هذه المنطقة العربية المنكوبة.

وذلك القول هو من جهة المبدأ، فضلا عما في المضمون من

كوارث أخرى، فاتفاق أوسلو ليس فيه مكسب للشعب والقضية، فقد أُجِّلت القضايا الأساسية (الدولة الفلسطينية مساحتها وسيادتها، القدس، اللاجئون، المستوطنات، المياه)، وبقيت السيطرة الإسرائيلية الأمنية والعسكرية على كل المناطق، ومُنِحت إسرائيل الحق في الاعتراض على التشريعات التي تصدرها السلطة، ونُزِعت عن أرض الضفة وغزة وصف «المحتلة»!

وقد أفضى هذا إلى نتيجة في غاية الخطورة أحدثتها السلطة الفلسطينية، تلك هي هذا الانشقاق الواسع في صف الفلسطينيين، فقد صار بعضهم يُسَوِّق لحل المفاوضات والسلام والتطبيع والتعايش والاكتفاء بما أمكن الحصول عليه، فيما بقي البعض يرى أن هذا ليس حلا ولا يمكن أن يكون حلا، وإنما هو تخدير وخدعة ومكر جديد!

ولم يكن الأمر مجرد خلاف في المبادئ والأفكار، بل لقد شكَّل عرفات وسلطته طرفا فيه الكثير من الأموال، وفيه الكثير من المناصب المرتقبة، وفيه فرص للصعود الاجتماعي، مما أطمع العديدين في الانحياز إلى جانبه، وليس هذا بالمستغرب على مجتمع يشتد إنهاكه وإضعافه منذ عقود، ويعيش الكثيرون فيه ضمن مخيمات بائسة.. لم يكن عرفات وسلطته مجرد رأي مطروح من شاء أخذ به ومن شاء تركه، كما هو حال الحزب السياسي، لا، بل كان ذلك بذرة نظام يعيد تشكيل المجتمع الفلسطيني، ويمارس التقريب والإبعاد على أساس فكري وفصائلي، بحيث يتحول أنصار المقاومة والجهاد والانتفاضة إلى مجرمين مُطارَدين خارجين عن القانون، قانون السلطة «الوطنية» هذه المرة لا قانون الاحتلال الصهيوني! فتضاعف الكرب على المجاهدين، وصاروا في حالٍ تشبه حال إخوانهم في بقية الدول العربية من قهر السلطة الوطنية.

كذلك مثَّلت هذه السلطة الوطنية الفلسطينية بؤرة للتعامل مع الإسرائيليين، فهذه السلطة المحدودة الضعيفة التي تعتمد على إسرائيل في كل شيء: بداية من تنقلات المسؤولين الإسرائيليين بين الحواجز العسكرية

الإسرائيلية، ومرورا بالتحويلات المالية والتنسيق اليومي لإدخال وإخراج البضائع والبشر، وانتهاءا بما يسمى «التنسيق والتعاون الأمني»، وما هو إلا عمالة صريحة.. لقد كانت السلطة فرصة ممتازة للإسرائيليين لمدَّ جسور علاقات وصلت إلى إسقاط العديد من مسؤولي هذه السلطة، فصاروا تابعين على الحقيقة لإسرائيل ومعبرين عن مصالحها أكثر من تبعيتهم وولائهم لعرفات وللسلطة الفلسطينية.

إن الرجل الثاني في هذه السلطة، محمود عباس، وهو مهندس أوسلو، هو نموذج قوي لأعضاء هذه السلطة التي كانت بمثابة «الاختراع العبقري» لخدمة إسرائيل، فلقد كان محمود عباس في كل مراحله واحدا من أخطر رجال إسرائيل في القضية الفلسطينية، وقد انقلب على عرفات نفسه في النهاية، ثم جيئ به بعد قتل عرفات ليكمل المسيرة ويتنازل عما لم يستطع عرفات التنازل عنه، وقد ذاقت منه قضية فلسطين وشعبها ما لم يكن ممكنا أن يذوقوه من ويلات لو لم يكن هو رئيسهم(١). ومثله في ذلك قادة الأجهزة الأمنية الذين كانوا كأخطر ما يكون العملاء، فجبريل الرجوب قائد جهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية، ونظيره: محمد دحلان قائد جهاز الأمن الوقائي في غزة، ثم فرق مساعديهم.. لقد قدَّم هؤلاء من الخدمات الأمنية والمعلوماتية للصهاينة ما لم يكن ممكنا أن يحصلوا عليه بأنفسهم مهما اجتهدوا، وفي أقبية هؤلاء مات كثيرون من المجاهدين تحت التعذيب، واسْتُخلص منهم بهذا التعذيب من المعلومات ما كشف كثيرا من المجاهدين، وما أبطل كثيرا من العمليات الفدائية والاستشهادية، وما ضيَّع كثيرا من الأرواح والأموال والإعداد الكثير.

ومن المثير للتأمل أن هذه السلطة الضعيفة المحدودة التي لا يملك

---

(١) ينظر مثلا عن عباس: هيلاري كلينتون، خيارات صعبة: مذكرات هيلاري رودهام كلينتون، ترجمة: ميراي يونس وآخران، ط١ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠١٥م)، ص٣٠٨.

رئيسها ولا وزراؤها أن ينتقلوا بلا وثيقة إسرائيلية تسمح لهم بالمرور بين الحواجز، قد تكاثرت فيها الأجهزة الأمنية: الداخلية والأمن العام والشرطة والمخابرات والأمن الوقائي ومخابرات الرئاسة.. حتى ليختلف الباحثون في عدد الأجهزة الأمنية التابعة لهذه السلطة(١). وهو ما يؤكد طبيعة هذه السلطة وأغراضها. لقد بلغت أعداد عناصر الشرطة في هذه السلطة ٤٠ ألفا لتكون أعلى نسبة عالمية قياسا إلى عدد السكان، وبلغت ميزانية أجهزة الأمن ومكتب عرفات سبعين بالمائة من ميزانية السلطة(٢)!!

وبالرغم من معالم الفساد والانحلال والعمالة والكوارث الكثيرة التي أنزلتها هذه السلطة بوضع المجتمع الفلسطيني الذي ازداد بؤسا وفاقة وقهرا(٣)، فقد كان عرفات يراهن على بقائه واستمراره من وجه آخر، لقد عرف عرفات أن مهمته الأولى التي يثبت بها جدارته كرئيس لهذه السلطة هي إخماد المقاومة الفلسطينية، وفي أول خطبة ألقاها بعد نزوله إلى غزة ذكر أنه: إن كان نيلسون مانديلا لم يطلق الرصاص على قبائل الزولو، فإنه (عرفات) سيطلق الرصاص (أي على حماس)(٤).

لئن نجح عرفات في إيقاف المظاهر الجماهيرية الاحتجاجية الواسعة والفعاليات المدنية، فإنه لم ينجح تماما في إيقاف المقاومة المسلحة التي كانت قد تطورت أثناء سنوات الانتفاضة وما بعدها، فمن بعد ما كان الأمر مقتصرا على إلقاء الحجارة، ظهرت عمليات الطعن بالسكاكين للجنود الإسرائيليين، مما اضطرهم إلى الابتعاد عن المناطق السكانية المزدحمة، واضطرهم إلى سحب مراكزهم إلى مراكز عسكرية مؤمنة بعدد من الحواجز، والزيادة في تأمين المستوطنات اليهودية.

---

(١) تذكر كونداليزا رايس أنهم بلغوا ١٢ جهازا أمنيا بحد أدنى. كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف: ذكريات من سني حياتي في واشنطن، ترجمة: وليد شحادة، (بيروت: دار الكتاب العربي، مايو ٢٠١٢م)، ص١٦٧.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١١٧.

(٣) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١١٧، ١١٨.

(٤) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢١٤.

ثم بدأ يظهر استعمال السلاح الناري كالمسدسات والبنادق، وتنشط عمليات تهريبه وشرائه. ثم ظهر مهندسون فلسطينيون استطاعوا أن يصنعوا المواد المتفجرة من مواد متاحة في البيئة الفلسطينية، وهو ما مكنهم من إعداد الكمائن وتفجير السيارات العسكرية واستهداف بعض المسؤولين، ثم مَكَّنهم فيما بعد من الوسيلة الخطيرة التي مثَّلت نقلة قوية في الصراع: العمليات الاستشهادية، حيث يلف الفدائي نفسه بالحزام المتفجر ثم يتقصد أماكن تجمع الإسرائيليين ويفجر نفسه! وبهذه الوسيلة استطاعت المقاومة الفلسطينية الرد على بعض المذابح والاعتداءات، كما فعلوا ردا على مذبحة الحرم الإبراهيمي[١] بخمس عمليات أوقعت نحو أربعين قتيلا إسرائيليا وجرح نحو مائة وستين آخرين[٢].

كان رائد هذه النقلة مهندس شاب لا يكاد يُلتفت إليه، يحيى عياش[٣]، الذي لُقِّب بالمهندس الأول، وقد كان ماهرا في التنكر، فضلا عن عبقرية في التصنيع والتجهيز، وقدرات شخصية عالية في الحركة والتأمين، فضلا عن مهارة في التنكر جعلته يتمكن من الانتقال من الضفة إلى غزة دون أن يُكتشف أمره، ولكنه كان ضحية التعاون الأمني بين هذه السلطة وبين الإسرائيليين، فقُتِل في تفجير هاتفه الجوال الذي سربه إليه عميل فلسطيني تابع للصهاينة (يناير ١٩٩٦م).

وقد ردَّت المقاومة على اغتيال المهندس عياش بسلسلة من العمليات الاستشهادية المؤثرة[٤]، بدا معه أن الأمر متصاعد الخطورة، فانعقد مؤتمر

---

(١) في صلاة الفجر من يوم ٢٥ فبراير ١٩٩٤م، وهو يوافق منتصف شهر رمضان ١٤١٤هـ، اقتحم يهودي الحرم الإبراهيمي في الخليل وفتح النار على المصلين فقتل ثلاثين وأصاب ١٥٠ آخرين.

(٢) ينظر: زاهر جبارين، حكاية الدم، ص١٠٣ وما بعدها.

(٣) عن انضمام عياش للمقاومة وبداياته، ينظر: زاهر جبارين، حكاية الدم، ص٤٥ وما بعدها؛ وينظر في سجله الجهادي ومزاياه وبسالته: ص١٨٢ وما بعدها.

(٤) ينظر: زاهر جبارين، حكاية الدم، ص١١٥ وما بعدها. وعنده تقييم متزن للعمليات التي نفذتها القسام في الضفة.

دولي لمكافحة «الإرهاب» في مدينة شرم الشيخ المصرية (١٣ مارس ١٩٩٦م)، كان الغرض منه تعاون سائر هذه الدول في إخماد المقاومة الفلسطينية، وتلك واحدة من أهم المشاهد المعلنة التي يظهر فيها تواطؤ الأنظمة العربية على المقاومة الفلسطينية، ويظهر دورها في حماية إسرائيل. وفي هذا المؤتمر قيل لعرفات صراحة: «ستنتهي عملية السلام ما لم تفعل شيئا في القضية الأمنية. ولا يمكنك تزوير الأمر، بل يجب أن يكون حقيقيا»[١].

عاد عرفات من شرح الشيخ أكثر شراسة وإصرارا على إخماد المقاومة الفلسطينية، وعاد مدعوما بالمساندة الإسرائيلية وبالتقنيات الأمريكية وبالدعم العربي الرسمي، فشنَّ حملة أمنية غاية في القسوة نتج عنها ضربة قاصمة لعمل المقاومة[٢]، استطاعت بالفعل أن تقتل عددا من رموز المقاومة وقادتها مثل: محيي الدين الشريف وهو الملقب بالمهندس الثاني، وقد قتل تحت التعذيب لدى أجهزة الأمن الوقائي الفلسطيني (٢٩ مارس ١٩٩٨م)، والأخوين عماد وعادل عوض الله وهما قياديان في كتائب القسام، وقد استشهدا باغتيال بعد اعتقال عادل وتعذيبه لدى أجهزة السلطة ثم تنسيق اغتياله مع الإسرائيليين (١٠ سبتمبر ١٩٩٨م). وشملت الحملة آلاف المعتقلين الذين نزل بهم تعذيب شنيع كُسِّرت فيه العظام ونُتِفت فيه اللحى وارتقى فيه البعض شهيدا[٣].

وفي الخارج اغتالت إسرائيل فتحي الشقاقي (٢٦ أكتوبر ١٩٩٥م)، وحاولت اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في الأردن (٢٥ سبتمبر ١٩٩٧م)، وأغلق مكتب حماس في الأردن (أغسطس ١٩٩٧م)، وسجن قادتها لشهرين قبل إبعادهم إلى قطر.

لقد تطورت السلطة الفلسطينية بسرعة صاروخية في وسائل القمع

---

(١) جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص٨٠.

(٢) جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص٧٨ وما بعدها.

(٣) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢٢٨.

والتعذيب والتعقب، فاستطاعت كشف عملية أسر جندي صهيوني بعد ثلاثة أشهر من قيامها (أكتوبر ١٩٩٤م) مما أدى إلى مداهمة الإسرائيليين للمكان وقتله مع آسريه، وأطلق عناصرها النار على مظاهرة خرجت من مسجد فأوقعت ١٨ شهيدا ومئات الجرحى حتى حاصرت الجماهير مقر أجهزة أمن السلطة في غزة وكادوا يفتكون بهم[١]، وأقامت السلطة في غزة وحدها ٢٤ مقر احتجاز واعتقال، واقتحمت في شهر واحد في منتصف (١٩٩٥م) ٥٧ مسجدا ١٣٨ مرة، وكان لديها في مطلع العام (١٩٩٧م) ألف وستمائة معتقل فلسطيني نصفهم بدون تهمة ولا محاكمة[٢]! ولم يكن غريبا أن يكون اثنان من عائلة واحدة مسجونيْن بنفس التهمة «الانتماء لحماس» لكن أحدهما لدى الإسرائيليين والآخر لدى السلطة الفلسطينية[٣]، كذلك لم يكن غريبا أن يلقى أسرى حماس وعائلاتهم إهمالا وإهانة من وزير الأسرى في هذه السلطة[٤]!

لقد أثمر هذا كله تراجعا كبيرا في حركة المقاومة الفلسطينية بين (١٩٩٦ ـ ٢٠٠٠م)، وهو الأمر الذي طرب له مدير المخابرات الأمريكية، ولم يُخْفِ دور جهازه في هذا النجاح الذي نفذه لهم عرفات وأجهزة السلطة. لقد تكللت جهوده بالفعل بإقامة مراكز عمليات مشتركة بين أجهزة الأمن الإسرائيلية والفلسطينية قبل أن يحصل الفلسطينيون على أي مقابل سياسي[٥]!

وبالتوازي مع هذا، فقد شنَّت الأردن حملاتها أيضا على أعضاء حماس، وكان مكتبهم السياسي في عَمَّان، فاعتقلت ستين من شبابهم وعُذِّبوا، وصودرت أموال الحركة، وطرد عدد من قياداتها ورموزها إلى

---

(١) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢١٨ وما بعدها.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١١٨.

(٣) عبد الله البرغوثي، أمير الظل، ص٤٤.

(٤) ينظر مثلا: حسن سلامة، خمسة آلاف يوم في عالم البرزخ، ط١ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠٢٢م)، ص٥٥.

(٥) جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص٩٦، ٩٨.

الخارج[1].

وبالرغم من كل النجاحات التي حققها عرفات في عرقلة المقاومة، إلا أن هذا لم ينفعه في المسار السياسي، وهذا المسار قد تعرض لانتكاسة قوية على يد الإسرائيليين، الذين حصل فيهم انقسام آخر بين جناحين:

أولهما يمثله شخصيات مثل إسحاق رابين وشيمون بيريز ثم إيهود باراك وقد تولى هؤلاء رئاسة الحكومة عن حزب العمل، وهؤلاء يرون أن وجود اتفاقات سلام مفتوحة الزمن والمفاوضات مع سلطة منزوعة السلاح والإمكانيات وفي ظل ميزان قوى متفوق لصالح إسرائيل هو في النهاية عمل يؤمن إسرائيل ويعزز وجودها ويرفع عنها أعباء كثيرة: سياسية ومالية وأمنية وإدارية[2]، ويوفر لها الفرصة للتفرغ إلى أنظمة أخرى لم تخضع بعد ولم تنخرط في عمليات سلام مثل العراق وسوريا وإيران. كما أن حل الدولتيْن يجنب إسرائيل الخطر الذي تمثله خصوبة الفلسطينيين وكثرة معدلات المواليد عندهم، فإنها إن كانت دولة واحدة فلا يلبث ميزان السكان أن ينقلب لصالحهم طال الوقت أم قصر[3].

والآخر يمثله شخصيات مثل بنيامين نتنياهو وإرييل شارون[4] وقد

---

(١) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢٢٤، ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) استفادت إسرائيل من عمليات السلام والتسوية ونشأة السلطة الفلسطينية استقرارا ورخاء؛ فقد تضاعف الناتج المحلي سبع مرات بين (١٩٨٣ ـ ٢٠٠٠م)، ولم تعد المنح والمساعدات تشكل سوى ٣٪ من الميزانية من بعد ما كانت تشكل ربعها، وارتفع معدل الدخل للفرد الإسرائيلي ليتجاوز ١٨ ألف دولار، ويكون واحدا من أعلى معدلات الدخل العالمية. انظر: محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١١٩.

(٣) هيلاري كلينتون، خيارات صعبة، ص٣٠٧، ٣٠٨.

(٤) يعد نتنياهو أبرز سياسي إسرائيلي في تاريخها بعد جيل المؤسسين، وهو الرجل الأطول في رئاسة وزراء إسرائيل (١٧ عاما حتى الآن ـ منها ١١ عاما متصلة)، وهو أصغر من تولى رئاسة وزرائها عام ١٩٩٦م إذ كان في السابعة والأربعين من عمره! وكان نائبا لوزير الخارجية وهو في التاسعة والثلاثين، وكان مندوبا لإسرائيل في الأمم المتحدة وهو في الخامسة والثلاثين. ومن المثير في حياته أن والده كان مؤرخا =

تولى هؤلاء رئاسة الحكومة عن حزب الليكود أو مسميات أخرى، وهؤلاء يرون أنه لا يجوز أن يُسمح بدولة فلسطينية في أي حال وعلى أية صورة، بل ويرون أن السماح بسلطة فلسطينية على النحو القائم ليس شيئا جيدا، وأن هذه السلطة قد تكون خديعة وفخا، وهي بالتأكيد ستمثل كيانا يستعمله الفلسطينيون للتسلح والتدريب ولاستقبال التمويل، وربما تعمل بعض الأنظمة مثل العراق وسوريا وإيران وغيرها على استعمال ورقة السلطة في تهديد أمن إسرائيل، فضلا عن أن فكرة دولة فلسطينية بالأساس هي بالنسبة لهم ارتداد وانتكاس عن المشروع الصهيوني اليهودي الذي يطمح إلى دولة من النيل إلى الفرات! وتحت هذا الأساس جرى اغتيال إسحاق رابين (١٩٩٤م)، وفاز الليكود بانتخابات (١٩٩٦م) فتوقف مسار المفاوضات لثلاث سنوات (حتى ١٩٩٩م) شهدت توسيع المستوطنات المحيطة بالقدس وتغيير الواقع على الأرض، وفي العام (١٩٩٩م) فاز حزب العمل مرة أخرى وترأس الحكومة إيهود باراك.

أثبتت هذه السنوات الثلاث أثبتت أن سائر الوعود المبذولة في أوسلو ليست إلا وهما، لا يلتزم به الساسة الإسرائيليون جميعا، وليس بيد السلطة أية ضمانات ولا وسائل ضغط تحمل بها إسرائيل على تنفيذ التزاماتها. بينما كانت السلطة عبر هذه السنوات قد استطاعت بالفعل إخماد الانتفاضة الشعبية العارمة، ولم يبق في الميدان إلا حركات المقاومة الإسلامية الأصيلة، وقد تضررت هذه الحركات بخمود الانتفاضة وانحسار الحاضنة الشعبية، كما تضررت أكثر بأجهزة السلطة الأمنية الشرسة! لقد

= صهيونيا بارزا، وكان مساعدا لجابوتنسكي المنظر الأشد تعصبا في تاريخ إسرائيل وصاحب نظرية الردع الإسرائيلية المشهورة.

كذلك يعد شارون أبرز عسكري إسرائيلي في تاريخها بعد جيل المؤسسين، فقد خاض كل حروبها، وهو واحد من أشرس المقاتلين وأشدهم دموية، وهو بالنسبة إلى الإسرائيليين واحد من كبار أبطالهم، وأبلى في كل ذلك بلاءا مشهودا. وهو وإن كان أكبر من نتنياهو سنا وخبرة وممارسة فإنهما من الجناح المتعصب ذاته!

كانت هذه السنوات دليلا على الفشل الذريع ـ إن لم نقل: الخيانة الواضحة الفاضحة ـ لهذه السلطة الفلسطينية. فإسرائيل بعدما نجحت في التخلص من الانتفاضة عادت تتملص من اتفاق أوسلو الذي خلصها من الانتفاضة!!

كانت فترة باراك، التي ترافقت مع رئاسة بيل كلينتون في أمريكا، كاشفة لما يمكن أن ينتهي إليه مسار التسوية واتفاقيات السلام، باراك الذي يمكن القول إنه كان أكثر المتساهلين من الساسة الإسرائيليين[١]، وكلينتون الذي يمكن القول إنه كان أكثر الجادين في إيجاد حل نهائي لهذه القضية، وياسر عرفات الذي سلَّم بالفعل بحق إسرائيل في الوجود وعمل على إخماد المقاومة بالفعل.

انتهى هؤلاء جميعا إلى مفاوضاتٍ فاشلة أخرى (يوليو ٢٠٠٠م)، فإسرائيل لم توافق أبدا على أي عودة للاجئين ولا على أي سيادة عربية على القدس ولا على أي عودة إلى حدود ١٩٦٧م، وهي القضايا الرئيسية الجوهرية، ولم يستطع عرفات أن يتنازل عن هذا كله، وقال إنه «سيقتل»[٢] لو قبل بالاتفاق المطروح، وفشلت عروضه التي حاول فيها أن يخرج بماء الوجه، مثل أن تكون السيادة على الأقصى لمنظمة المؤتمر الإسلامية (وهي هيئة رسمية لأنظمة الدول الرسمية ولا فعالية لها)، كما فشل في استخلاص قطعة أرض مكتملة لا تقطعها مستوطنات إسرائيلية. وفشلت المفاوضات!! إن أكثر الإسرائيليين تساهلا لم يسمح بأدنى مقومات إقامة دولة فلسطينية، وإن أكثر الفلسطينيين تنازلا لم يخرج بأي مكسب يمكنه تسويقه للشعب الفلسطيني!!

(١) وصفه هنا بأنه «أكثر المتساهلين» إنما هو بالنسبة إلى غيره، وإلا فإنه كان صاحب اللاءات الخمسة التي أعلنها قبل أن يدخل في المفاوضات، وهي: لا لتقسيم القدس، لا انسحاب إلى حدود ١٩٦٧، لا عودة للاجئين، لا تفكيك لمستوطنات الضفة وغزة، لا قبول لقوات عربية في الضفة.

(٢) كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص٧٧.

وطوال هذه الفترات التي رُفِع فيها شعار التسوية لم يتوقف الاعتداء على المسجد الأقصى، وفي عهد باراك نفسه (سبتمبر ١٩٩٦م)، افتتح اليهود نفقا تحت الجدار الغربي للمسجد الأقصى، واندلعت اشتباكات ارتقى فيها أكثر من ستين شهيدا وأصيب فيها أكثر من مائة وستين.

انتفاضة الأقصى

اتضح بجلاء أن أقصى ما قد يقدمه زعيم فلسطيني مثل عرفات لا يرضي ولا يناسب أقصى ما يقدمه زعيم إسرائيلي من تنازلات، وفشلت المفاوضات من جديد.

في تلك الأثناء كان الجنرال الإسرائيلي المتقاعد أريل شارون قد تزعم حزب الليكود المعارض، وهو واحد من أهم العسكريين الإسرائيليين وأكثرهم تشددا وشراسة، في الحرب وفي السياسة معا، فاقتحم المسجد الأقصى يوم (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م)، فاندلعت احتجاجات واسعة كانت هي بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي عرفت باسم: «انتفاضة الأقصى».

كانت المظاهرات وإلقاء الحجارة هي الوسيلة التي يملكها الفلسطينيون، والذين لم يقصروا في المدافعة والتضحية بأنفسهم أمام آلة قمع صهيونية جبارة لم تقصر من ناحيتها في القتل والتنكيل والاعتقال، حتى بلغ عدد الشهداء في أيام معدودات المائة ثم الألف، ثم أخذ العدد يتصاعد. ومن جانبها أخذت فصائل المقاومة في تطوير عملها وعملياتها، فتصاعدت حدتها تدريجيا كذلك. ومع مرور الأيام واشتداد الظروف الأمنية والعسكرية أخذت تتراجع حدة المظاهرات والاشتباكات الجماهيرية بينما أخذت تتزايد عمليات فصائل المقاومة وتزداد خطورة وضراوة، لا سيما العلميات الاستشهادية التي كانت الوسيلة الأقوى والأخطر بيد المجتمع الفلسطيني.

انفلت زمام الوضع حتى تغيرت الحكومة الإسرائيلية بعد شهور على اندلاع الانتفاضة، وجاء على رأس الحكومة الجديدة: شارون نفسه الذي

وعد بإنهاء هذه الانتفاضة خلال مائة يوم من توليه، وشن حملات عسكرية وأمنية عنيفة على المناطق المختلفة، وقد أخفق في القضاء عليها كما وعد، إلا أنه قد اشتعلت حرب ضارية بين شعب أعزل مقاوم وبين آلة عسكرية وحشية. واعتمد شارون سياسة القضاء على قيادات فصائل المقاومة العسكرية، ثم وسَّع الاغتيالات لتشمل القيادات السياسية أيضا.

حاول ياسر عرفات في بداية الأمر أن يغض الطرف عن الانتفاضة، وأن يعرقل إلى حد ما عمل أجهزته الأمنية في تتبع المقاومين واستهدافهم، ليجعل ذلك وسيلة من وسائل الضغط التي تؤدي إلى مفاوضات أخرى بشروط أفضل، لكن الأمر جاء على عكس ما يريد، فلقد جاء شارون على رأس الحكومة، وهو ممن يرفض مسار المفاوضات برمته، ويرى أنه لا بد من الاستيلاء الإسرائيلي وبكل القوة على كل الأراضي.

وازداد الموقف في داخل فلسطين سوءا حين انتهت ولاية بيل كلينتون الرئيس الأمريكي التابع للحزب الديمقراطي وفاز بالانتخابات الأمريكية جورج بوش (الابن)[(١)] عن الحزب الجمهوري[(٢)] مما رجَّح وقوَّى مركز شارون وزاد في ضعف موقف عرفات. ثم تبع ذلك بعد عام واحد أكبرُ ضربة أصيبت بها أمريكا في عقر دارها، وهي أحداث (١١ سبتمبر ٢٠٠١م) التي كهربت الأجواء العالمية كلها، وأصابت الكبرياء الأمريكي في صميمه، وأطلقت أمريكا بعدها ما عرف بـ «الحرب العالمية على الإرهاب»، وانطلقت جيوشها لغزو أفغانستان (أكتوبر ٢٠٠١م)، ثم العراق (مارس ٢٠٠٣م)، وقبلهما وبعدهما وبينهما موجةٌ هائلة من مطاردة العمل الإسلامي في العالم كله: الجهادي أولا ثم الخيري والإغاثي ثانيا وكثير

---

(١) جورج بوش الابن، وصفته أمه بأنه «أول رئيس يهودي لأمريكا» لشدة انحيازه لليهود، ينظر: كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص١٧٧.

(٢) ما من فارق كبير في سياسات الحزبين فيما يتعلق بإسرائيل والقضية الفلسطينية، إلا أن الديمقراطيين أكثر استعمالا للسياسة والأساليب الناعمة، والجمهوريين أكثر خشونة وفجاجة وتخليا عن الخطاب الهادئ المراوغ.

من العمل الإسلامي السياسي أيضا. وقد التقط شارون هذه الموجة فاعتمد سياسة وخطابا إعلاميا يجعل منه مكافحا للإرهاب الإسلامي في فلسطين، وهو الإرهاب الذي يتزعمه ياسر عرفات نفسه!

ما من شك في أن فشل المفاوضات واندلاع الانتفاضة تسبب في كثير من التوتر داخل أجهزة السلطة الفلسطينية، وبرز فيها أناس بذلوا جهدهم في دعم المقاومة وإسنادها أو في غض الطرف عنها، ولكن هذا كان هو القليل، بينما كانت أجهزة السلطة في عمومها مستمرة على النهج والوضع الذي أنشئت له وصُمِّمت لأجله. ذلك أن كثيرا من هذه قادة هذه الأجهزة وقيادات الصف الثاني كان لهم تواصل مباشر مع الإسرائيليين، وتطلع كثير منهم لأن يكون هو رئيس فلسطين القادم في ظل التفكير الغربي في تبديل عرفات والتخلص منه، ولذلك: كانت السلطة الفلسطينية وقلبها: الأجهزة الأمنية تعمل بكل جدٍّ وإصرار في تعقب المقاومين واعتقالهم وتعذيبهم بغية الكشف عن تنظيماتهم وخلاياهم، ومات كثير منهم تحت التعذيب، وسُلِّمت كثير من المعلومات الخطيرة للأجهزة الإسرائيلية التي مكَّنتها من اغتيال العديد من قيادات المقاومة السياسية والعسكرية، وأحيانا اعتقلت هذه الأجهزة مقاومين ثم سلَّمتهم إلى إسرائيل، أو اعتقلتهم ثم انسحبت من مقرات الأجهزة لتتسلمهم القوات الإسرائيلية، وتمكنت هذه الأجهزة الأمنية من إفشال العديد من العمليات القوية ضد إسرائيل، واستطاعت ضرب مفاصل مؤثرة وبنية تحتية للمقاومة اضطرت المقاومة معها أن تبدأ من الصفر مجددا في أمور عديدة[١]، فكانت هذه السلطة وأجهزتها الأمنية كربا عظيما غير مسبوق نزل بالشعب الفلسطيني!

كذلك فإن عرفات نفسه قد عاد سريعا عن سياسة غض الطرف هذه، فمن بعد ما كان يظن أن ذلك يمكن أن يكون وسيلة ضغط بيده للرجوع إلى المفاوضات بشروط أفضل، فوجئ بأنه صار مهددا في أمنه وفي نفسه وفي منصبه ففعل ما استطاع في سبيل أن ينجو بنفسه من هذا المصير،

---

(١) ينظر مثلا: عبد الله البرغوثي، أمير الظل، ص٩٦ وما بعدها.

فأعاد التأكيد والتشديد على إيمانه بعملية السلام، وكان يدين عمليات المقاومة ويستنكرها بأشد العبارات، وكان يفتخر أن أجهزته الأمنية أحبطت مئات العمليات ضد إسرائيل، ويفتخر بما اقترفته تلك الأجهزة من اعتقال قادة المقاومة وعناصرها وما كشفته من معلومات ثمينة. على أن هذا كله لم يشفع له، بل لقد فرض عليه شارون حصارا في مقر رئاسته في رام الله، واجتاحت القوات الصهيونية المدينة حتى هدمت بعض أجزاء مقراته. وبدا واضحا أنه لم يعد مقبولا بنفسه(١)، وأن المطلوب زعيم فلسطيني آخر يبدأ في التنازل والتعاون من حيث انتهى عرفات، وكان البديل المرشح هو: محمود عباس. فجرى الضغط عليه ليعين رئيس حكومة واسع الصلاحيات.

حاول عرفات التملص من تعيين رئيس حكومة ينافسه في السلطة، بل سيكون هو الرئيس الفعلي لها، لكن التهديد باغتياله أفضى إلى قبوله آخر الأمر، وعيَّن لذلك من طلبوه: محمود عباس، فتولى رئاسة الحكومة (٢٩ إبريل ٢٠٠٣م)، ثم دارت معركة داخلية بينه وبين عباس على الصلاحيات والنفوذ حتى اضطر هذا الأخير إلى الاستقالة قبل أن يكمل خمسة أشهر، ثم جاء عرفات برئيس آخر للحكومة هو أحمد قريع (٥ أكتوبر ٢٠٠٣م) بحيث يكون أقرب ولاءً له من عباس المحبب والمقرب للصهاينة، لكن شارون ردَّ على هذا عمليا باغتيال ياسر عرفات (نوفمبر ٢٠٠٤م) عبر سُمٍّ بطيئ المفعول، دُسَّ له على يد واحد من المقربين منه، وما كان هذا بالعسير في سلطة قامت أصلا وصُمِّمت على أن تكون تحت الهيمنة الإسرائيلية! فعاد عباس مرة أخرى ليقود

(١) مع كل ما قدمه عرفات من تنازل ومن خيانات إلا أنه لم يُذكر في مذكرات صناع القرار الأمريكان إلا بالسوء والازدراء، ولعل المسؤول الأمريكي يكتب ذلك مراعيا خاطر الصهاينة في أمريكا، إذ هم أولى الناس بتقدير المنحدر المنحط الذي هو إليه عرفات، ينظر مثلا: جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص١٠٣ وما بعدها؛ كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص١٧٧؛ هيلاري كلينتون، خيارات صعبة، ص٣٠٦.

السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية مدعوما بالرغبة الإسرائيلية والأمريكية.

أجريت انتخابات رئاسية صورية (يناير ٢٠٠٥م)، أريد منها تنصيب محمود عباس، وترشح لها سبعة لا يمثلون في حقيقة الحال أي شعبية، ولا لهم من القوة ولا الإمكانيات ما يُمَكِّنهم من منافسة عباس سليل السلطة وعميل الاحتلال الأبرز، وانتهت كما هو متوقع بفوزه ليصير رئيس السلطة الفلسطينية.

لم يكن عرفات الأول في سلسلة اغتيالات القادة، بل كان الأخير، لقد استهدف شارون اغتيال القيادات السياسية للفصائل الفلسطينية، وكان هذا توسيعا منه للمعركة بعدما كانت السياسة المتبعة اغتيال القيادات العسكرية، وقد قدَّم الشعب الفلسطيني خيرة قياداته العسكرية والسياسية شهداء في خضم الانتفاضة، فمن أبرز من استشهدوا من القيادات العسكرية: محمود أبو هنود قائد كتائب القسام في الضفة (نوفمبر ٢٠٠١م)، وصلاح شحادة القائد العام لكتائب القسام (يوليو ٢٠٠٢). ومن أبرز من استشهدوا من القيادات السياسية: أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية (أغسطس ٢٠٠١م)، ومن حماس: جمال منصور وجمال سليم (يوليو ٢٠٠١)، وإسماعيل أبو شنب (يوليو ٢٠٠٢م)، والشيخ أحمد ياسين مؤسس حماس (مارس ٢٠٠٤م)، ثم نائبه وخلفه د. عبد العزيز الرنتيسي (إبريل ٢٠٠٤م). وأُسِر كذلك عدد من خيرة القادة والرجال، مثل: عبد الله البرغوثي الملقب بأمير الظل (مارس ٢٠٠٣م).

ومع هذه الخسائر في صفوف المقاومة، إلا أنها كانت قادرة على تجديد صفوفها ومواصلة المعركة وابتكار أساليب ووسائل أمنية وعسكرية أرهقت الإسرائيليين وأعجزتهم، فكانوا يُفاجؤون ـ برغم التشديدات الأمنية المكثفة ـ بقدرة الفدائيين على اختراقها وتنفيذ العمليات الاستشهادية في عمق إسرائيل، حتى لقد انخرط في هذه العمليات الاستشهادية بعضٌ من

النساء[1]، وبلغت حصيلة العمليات الاستشهادية في السنوات الخمس (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٥م) ١٣٥ عملية، كان نصيب حركة حماس منها ٦١[2].

كذلك استطاعت المقاومة أن تطور أسلحتها كذلك، حتى بدأت في تصنيع الصواريخ المحلية التي بدأت قصيرة المدى (١٠ كم) ثم (١٢ كم)، واستعملت فيها مكونات محلية داخل البيئة الفلسطينية، فكان ذلك نقلة نوعية في التهديد لأمن المستوطنات الإسرائيلية!

أحصى الجيش الإسرائيلي عمليات الهجوم وإطلاق النار والصواريخ في فترة الانتفاضة خلال السنوات الخمس فبلغت أكثر من ٢٢ ألف عملية[3]! منها عمليات نوعية قوية كاغتيال وزير السياحة رحبعام زئيفي على يد الجبهة الشعبية (١٧ أكتوبر ٢٠٠١م)،

كان لكل من غزة والضفة الغربية نقاط تفوق في ساحة المقاومة:

يتميز قطاع غزة بكثافته السكانية، التي نتجت عن وجود العديد من مخيمات اللاجئين فيه، ثم هو يتميز كذلك بقوة الحركة الإسلامية التي تنشط داخله وتختبئ داخل هذه الكثافة السكانية لا سيما المخيمات! وأما الضفة الغربية فتتميز بوعورة أرضها وامتلائها بالكهوف والمغارات وكثرة طرقها الجبلية الوعرة التي يتمكن بها الفدائيون من التسلل إلى داخل إسرائيل مهما كثرت الحواجز الأمنية على الطرق الممهدة والمسلوكة.

وبهذا الوضع تميزت العمليات في قطاع غزة بغزارتها وتنوعها وصعوبة العثور على منفذيها ومطاردتهم داخل الأعداد الكبيرة ثم صعوبة تنفيذ اجتياحات عسكرية واسعة لمناطقها. وأما الضفة فتميزت عملياتها بكونها نوعية ومؤثرة لا سيما مع قربها من مراكز الثقل الإسرائيلية في

---

(١) كانت طليعة الاستشهاديات الفلسطينيات في الانتفاضة الثانية من فصائل مختلفة: وفاء إدريس وآيات الأخرس ودارين أبو عيشة وهنادي جرادات وريم الرياشي وغيرهن.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٢٨.

(٣) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٢٨.

القدس وتل أبيب وصعوبة السيطرة على المسالك والدروب الوعرة.

وقد نجحت الانتفاضة والعمليات الاستشهادية في ضرب نظرية الأمن الإسرائيلية، وفي زيادة أعداد المهاجرين منها إلى دول أخرى، وإلى تكبيدها خسائر اقتصادية قوية، حتى لم يجد شارون بدا لوقف نزيف الخسائر الإسرائيلية إلا أن يتخذ قرارين خطيرين، ما كان يمكن لرئيس حكومة إسرائيلي أن يتخذها لو لم يكن في قوة شارون وتاريخه العسكري الطويل، هذان القراران هما: الانسحاب من قطاع غزة، وبناء الجدار العازل في مناطق الضفة الغربية.

أراد من بناء الجدار العازل أن يسد كل المنافذ الممكنة لتسلل الاستشهاديين، وأراد من الانسحاب من غزة أن يبتعد بالإسرائيليين عن مصدر الخطر، ليتولى الإسرائيليون حصارها من الخارج، وتتولى أجهزة الأمن الفلسطينية السيطرة عليها من الداخل، فتكون معركة داخلية بين الفلسطينيين.

كان الانسحاب من غزة، وبناء حاجز عازل على العديد من مناطق الضفة مما لا يتخيله الإسرائيليون، وكان يمثل بالنسبة إليهم محرمات، فإنه تقليص لحدود إسرائيل، واعتراف بالهزيمة أمام المقاومة الفلسطينية التي لا تقارن قوتها بالقوة الإسرائيلية بحال، وقد يؤدي هذا إلى تنفيذ انسحابات أخرى من الضفة الغربية، مع ما في هذا من تفكيك المستوطنات التي نشأت في هذه المناطق منذ ١٩٦٧م. ولكن شارون مضى في إنفاذ عزمه، وقضى على كل المعارضة الإسرائيلية الداخلية له.

سينجح شارون بهاتين الخطوتين، على المدى المتوسط، في إيقاف العمليات الاستشهادية وإلجاء المقاومة الفلسطينية إلى أساليب أخرى، لكنه لم يتوقع أن غزة المحررة ستتحول إلى قلعة مقاومة عنيدة وإلى منصة إطلاق صواريخ غزيرة وإلى قاعدة بناء واسعة لجيش كبير سيغير المعادلة كلها.

لقد كان الانسحاب الإسرائيلي من غزة هو الثمرة الأعظم لهذه

الانتفاضة الباسلة التي استشهد فيها، عبر سنواتها الخمس (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٥م) أكثر من أربعة آلاف شهيد منهم نحو ثمانمائة طفل ونحو ثلاثمائة امرأة، وجرح فيها أكثر من ٤٥ ألفا، واعتقل نحو عشرة آلاف فلسطيني، ودُمِّر أكثر من سبعين ألف منزل[١]. وفي المقابل فقد سقط من الإسرائيليين أكثر من ألف وخمسمائة قتيل، وأكثر من ثلاثة آلاف جريح، وكانت سنة (٢٠٠٢م) الأسوأ اقتصاديا في تاريخ الكيان، وبلغت خسائره الاقتصادية خلال السنتين الأولى والثانية للانتفاضة ثمانية مليارات دولار، بمعدل: ١١ مليون دولار يوميا! وتعرض الإسرائيليون لصدمة نفسية قوية ولفقد ثقة في الأمن والرخاء والازدهار الذي كانوا يوعدون به لحثهم على الهجرة، وبدأت منذ تلك السنة معدلات الهجرة العكسية[٢].

إن النظر إلى الأرقام وحدها يكشف هزيمة للشعب الفلسطيني وانتصارا للإسرائيليين، لكن النظر في هذه الأرقام مع مراعاة موازين القوى المنهارة ليثبت من جديد صفحة مشرقة ومتألقة لشعب باسل صلب صبور جسور.

وإذا أضفنا إلى تلك النتائج المادية نتائج أخرى معنوية خطيرة فسيبدو الأمر أكثر وضوحا، ومن أهم تلك النتائج المعنوية ما وصلت إليه وزيرة يهودية متعصبة مثل تسيبي ليفني، من أن حلم إسرائيل الكبرى قد انتهى، وأنه قد ثبت لها بأن الإسرائيليين لا يمكن لهم أن يحكموا الفلسطينيين، ولا بد لهم من تنازلات مؤلمة[٣].

---

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٢٦، ١٢٨.

(٢) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٢٩، ١٣٠.

(٣) كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص٣٢٨.

تحرير قطاع غزة

من أهم أوجه الاختلاف بين حركة المقاومة في الضفة وحركة المقاومة في غزة أن الإسلاميين في الضفة عاشوا حتى ١٩٦٧م تحت حكم النظام الأردني الذي كان يتعامل عموما بنهج الاحتواء والسيطرة الناعمة، بينما كان إخوانهم في غزة يعيشون تحت حكم النظام المصري العنيف شديد القسوة، فكان لهذا آثاره على طبيعة الحركة الإسلامية ونهجها في الحركة والتجنيد والعمل.

ثم إن طبيعة الجغرافيا الغزية السهلة، ومساحتها الضيقة جعلها مأوى لكثير من اللاجئين، فتكدَّست فيها أعداد البشر، ونشأ فيها وضع اجتماعي غير حداثي، يتماسك فيه المجتمع وتتقارب فيه البيوت وتضيق فيه الشوارع وتكثر فيه المسارب والحارات والمسالك، وذلك كله مما جعل القطاع عَصِيًّا على وسائل التحكم والمراقبة التي تجيدها السلطة الحديثة.

بسببٍ من هذا الحال، وظروف أخرى، قوي الإسلاميون في غزة بما لم يمكنهم فِعْلٍ مثله في الضفة، ومثَّل ذلك صداعا بالنسبة للمحتل الإسرائيلي، حتى تمنى رابين أن يصحو يوما وقد ابتلع البحر غزة، وكان هذا القطاع من أعقد المشكلات في نظرية الأمن الإسرائيلية، وكان من أول ما حاولوا إزاحة إدارته إلى سلطة عرفات، ثم ها هو شارون ينسحب منه.

وداخليا، فإن الإسلاميين في غزة كانوا أكثر جرأة ومبادرة وجسارة من غيرهم، وكانوا منذ نزلت السلطة يرون ضرورة دخولهم في الانتخابات

(١٩٩٦م)، خلافا لرأي إخوانهم في الضفة وفي الخارج[1]، ومن غزة بدأت الانتفاضة الأولى، ومنها بدأ العمل المسلح، ومنها خرجت أهم قيادات المقاومة.

الانسحاب الإسرائيلي من غزة

تقرر أن يتم الانسحاب الإسرائيلي من غزة في (٢٠٠٥م)، ومن جهتها أعلنت السلطة الفلسطينية أنها مستعدة وقادرة على إدارة القطاع، وأعلنت فصائل المقاومة أنها لا تمانع من تسلم السلطة لإدارة القطاع تفويتا منها لأي ذريعة يمكن أن تعرقل قرار الانسحاب من غزة، وأملا منها في إمكانية إصلاح الأحوال مع السلطة فيما بعد.

وقد مثَّل محمد دحلان، قائد جهاز الأمن الوقائي في غزة، أمل الإسرائيليين الكبير في تولي شؤون القطاع والسيطرة عليه أمنيا، وذلك أن محمد دحلان هو من أخلص رجال الإسرائيليين، وله مجهوده الضخم في تعقب المقاومين واعتقالهم وتعذيبهم، وقد كان هو من الطامحين لأن يكون بديلا لياسر عرفات نفسه وخَلَفًا له في رئاسة السلطة الفلسطينية، لكن وجود آخرين من ذوي السنّ مثل عباس فوَّت عليه هذه الفرصة، فلا يزال دحلان شابا لا تقبل به القيادات الأكبر داخل السلطة الفلسطينية.

على أنه إن فاتته السلطة، فقد مثَّلت غزة بالنسبة إليه فرصة متميزة يثبت فيها جدارته، أو حتى ليفكر في أن يستقل بها عن السلطة، ومن هنا بدأت حدة الخلاف بينه وبين عباس. وقد عمل شارون على التمهيد لدحلان في قطاع غزة باغتيال أهم القادة الغزيين، مثل الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي.

بقدر ما مثَّل الانسحاب الإسرائيلي من غزة حدثا فارقا في الصراع وفي إثبات قدرة المقاومة الفلسطينية على تحقيق ما عجزت عنه جيوش الأنظمة العربية، فقد كان الأمر تحديا خطيرا وعنيفا، لا سيما في أمريْن؛ الأول: هذه

(١) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء، ص٢٢٥.

السلطة الفلسطينية التي يمثلها دحلان وعباس، وأجهزتهما الأمنية القوية المكتظة بالعملاء والتي ستبدأ حملات غاية في الشراسة ضد فصائل المقاومة، تحت شعار: سلاح شرعي واحد هو سلاح السلطة الفلسطينية. والثاني: هو في إمكانية إدارة القطاع المتكدس بالسكان والمحروم من كل الموارد الاقتصادية ومن العمق الجغرافي والظهير السياسي.

وقد جاء الحل العملي الواقعي لهذه المعضلات من جملة أمور كلها وقعت خارج غزة:

لما وقعت أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، وتلقى الأمريكيون صدمة هائلة مروعة لم تقع لهم منذ الحرب العالمية الثانية، ظهرت في أروقة السياسة الأمريكية فكرة تقول بضرورة دمقرطة العالم الإسلامي، ولم تكن هذه الفكرة جديدة في أروقة البحث والمراكز الاستشراقية والأمنية، ولكنها لم تكن مغرية للسياسي، فطالما أن الطغاة المستبدين في العالم العربي يحفظون المصالح الأمريكية والإسرائيلية فلا حاجة إلى التفكير في تغييرهم أو في نشر الديمقراطية في تلك البلاد، والمخاطرة بنتائج هذه الديمقراطية. فأما بعد ١١ سبتمبر فقد اتضح أن الطغاة في العالم العربي يصنعون قنابل موقوتة من الغضب والسخط، وهذه القنابل لم تعد تنفجر في العالم العربي والإسلامي بل صارت تفجر نفسها في أمريكا وأوروبا. وثمة تجربتان في العالم الإسلامي كانتا مغريتان لهذا التفكير الأمريكي في ذلك الوقت، وهما تجربتا تركيا وباكستان؛ ففي كلا التجربتين كانت تجري عملية ديمقراطية تتغير فيها الأحزاب الحاكمة لكن ظل قلب الدولة وشوكتها ممثلا في الجيش، والجيش تابع للأمريكان، وكان الجيش قادرا على الانقلاب العسكري كلما جاءت الديمقراطية بنتائج لا ترضيه أو لا ترضي الأمريكان. لذلك عُرِفَتْ تركيا ببلد الانقلاب العسكري كل عشر سنوات[(١)]، وبلغ معدل الانقلابات العسكرية في باكستان واحدا كل ثمانية

(١) وقعت الانقلابات العسكرية في تركيا في أعوام (١٩٦٠، ١٩٧١، ١٩٨٠، ١٩٩٧م)، وهذا الأخير عرف بالانقلاب الناعم على حكومة الزعيم الإسلامي نجم الدين أربكان.

أعوام[١]، والمفيد في كلا التجربتيْن أن العملية الديمقراطية قد امتصت طاقة الإسلاميين وأدخلتهما في معركة السياسة، ولم يخرج في البلدين حركات جهادية لأن مسار التغيير المفتوح سياسيا كان يفتح أملا قريبا وممكنا وقليل التكلفة. وهكذا ذهبت السياسة الأمريكية باتجاه «نشر الديمقراطية» في العالم العربي، لا حبا في الديمقراطية ولا في الشعوب العربية، بل محاولة لامتصاص الطاقة الإسلامية أن تتحول إلى جهادية وتكرر أحداثا مثل (١١ سبتمبر). وكانت فلسطين ساحة لبدء هذه التجربة، لا سيما وقد توفر سبب آخر اعتقد الإسرائيليون أنه يفيدهم في هذا النوع من الديمقراطية.

عاش عرفات زعيما للسلطة الفلسطينية وممثلا للفلسطينيين بغير اختيار منهم ولا انتخابات فاز فيها، وإنما هو تزعم حركة فتح، ولما دخلت فتح إلى منظمة التحرير الفلسطينية (التي أنشئت بدعم النظام المصري الناصري) سيطرت عليها وصار عرفات رئيسا للمنظمة، ثم تولت هذه المنظمة تمثيل الشعب الفلسطيني لا بقرار من الشعب بل بقرار من الدول العربية، ثم جيئ به بعد الانتفاضة ليكون زعيما للحالة الفلسطينية بغير انتخاب. إذا كانت مجمل هذه الظروف قد سمحت لعرفات أن يكون رئيس السلطة بغير انتخابات ولا اختيار فإنها لا تسمح لأحدٍ من بعده بذلك، لا سيما محمود عباس الذي لا يعرف له نضال بل ولا يُحسن الكلام فضلا عن مسيرته المشبوهة إذ هو مهندس اتفاق أوسلو. ومن ثَمَّ نشأت الحاجة الأمريكية والإسرائيلية لإجراء انتخابات في فلسطين، تكون بمثابة بناء الشرعية لمحمود عباس كرئيس للسلطة، يعتمد عليها في التفريط المطلوب منه في القضايا الكبيرة مثل: القدس واللاجئين والمستوطنات[٢]، كذلك يعتمد على

(١) وقعت الانقلابات العسكرية في باكستان في أعوام (١٩٥٨، ١٩٧١، ١٩٧٧، ١٩٨٨، ١٩٩٩م)، وهذا فضلا عن اغتيال الجنرال ضياء الحق (١٩٨٨م) الذي كان معارضا للمصالح الأمريكية.

(٢) لم يكن عباس يُخفي ولا يتردد في إدانته المقاومة وكان يعلن أن عودة اللاجئين ليس حلا واقعيا، مع أن عباسا نفسه من أسرة لاجئة أصلها من صفد المحتلة، فكان هو أول المفرطين في حق نفسه وفي حق الشعب كله.

هذه الشرعية في شنّ الحملة القاضية على فصائل المقاومة باعتباره الرئيس الشرعي المنتخب في انتخابات نزيهة، ومعه أغلبية من حركة فتح في المجلس التشريعي (وهو بمثابة البرلمان الفلسطيني).

هنا شعرت فصائل المقاومة الفلسطينية بالفزع، وسرت فيهم رعدة تنبئهم بأن تصفية القضية وإنهاءها سيتم بأيسر السبل من خلال هذه الانتخابات المرتقبة، ويزيد في هذه الأزمة أن الفصائل قد بنت نفسها ورتبت هياكلها وأدواتها على أساس كونها حركات مقاومة لا أحزابا سياسية تخوض الانتخابات، إذ هي منذ نشأت لم يكن يُتخيَّل ولا يُتَوَقَّع أن تسمح إسرائيل بانتخابات للشعب الفلسطيني، ومن ثَمَّ فقد كان هذا الأمر تحديا كبيرا، فوقع انقسام بين فصيلي المقاومة الإسلاميَيْن الكبيرَيْن: حماس والجهاد. ذهبت حماس باتجاه المشاركة في هذه الانتخابات لبذل أقصى الجهد لتعطيل تصفية القضية الفلسطينية، ومنع انفراد حركة فتح التي تنفرد بالسلطة من التحكم بمصير القضية وقراراتها الكبيرة، بينما ذهبت حركة الجهاد إلى مقاطعة الانتخابات على اعتبار أن الانتخابات لن تضفي شرعية على التفريط بالحقوق التاريخية وأن حركة المقاومة ستظل تعمل في المقاومة العسكرية والميدانية مهما كانت قرارات السلطة في أي من هذه الملفات.

من وجهة نظر الأمريكان والإسرائيليين والأنظمة العربية وحتى حركة فتح لم يكن يمثل دخول حماس إلى الانتخابات أي خطر حقيقي، لقد كان النجاح مضمونا لحركة فتح وممثليها، فهي تملك السلطة والمال وتهيمن على الجهاز الإداري منذ ثلاثة عشر عاما، وأما حركات المقاومة فمهما تمتعت بشعبية فإنها لا تملك الكوادر التي باشرت العمل الحكومي والإداري ولا خبرة لها بالعمل السياسي وليس لها (وهنا نقصد عناصر الداخل التي ستباشر الانتخابات) علاقات دولية، وهي حركات إسلامية لا تقبلها البيئة العربية الإقليمية ذاتها!

وأجريت الانتخابات بالفعل، وأريد لها أن تكون نزيهة لئلا يجري

أي تشكيك في شرعية محمود عباس وحكومة السلطة الفلسطينية، لكن جاءت الصاعقة للجميع: لقد فازت حركة حماس بأغلبية ساحقة تُمَكِّنها من تشكيل الحكومة منفردة، وحصدت ٧٤ مقعدا من أصل ١٣٢ مقعدا في مفاجأة لم يتوقعها أحد، ولم تتوقعها حركة حماس نفسها! التي كانت تخطط لتكون معارضة قوية قادرة على عرقلة أي اتفاقيات تفريط، لا أن تكون هي الحكومة نفسها! ولم تحصل حركة فتح إلا على ٤٥ مقعدا فحسب!

سرت صدمة كهربية في فلسطين وفي كل الإقليم العربي وفي العالم الغربي، فالانتخابات النزيهة قد جاءت بحركة حماس التي يصنفونها حركة إرهابية، فصاروا في حيص بيص؛ فهم إن اعترفوا بالانتخابات النزيهة فقد أقروا بنتائجها ويجب عليهم احترام اختيارات الشعب الفلسطيني وقراراته، وإن هم لم يعترفوا بها فقد ضربوا دعاواهم وشعاراتهم عن الديمقراطية وحقوق الشعوب في مقتل(١). ولكن الباطل والمبطلين لا يعدمون طريقة: اعترفوا بنزاهة الانتخابات ثم رفضوا التعامل مع نتائجها، وبدأت مسيرتهم في التعويق والتعطيل تميهدا للانقلاب على نتائج هذه الانتخابات.

الحسم العسكري في غزة

كان أثمن ما حققته هذه الانتخابات من نتائج هو دفن المشروع الذي كان مخططا له لتصفية القضية إذا فازت حركة فتح في الانتخابات، فانتهت إلى الأبد خطة أن يأتي رئيس فلسطيني بشرعية تامة ليتنازل عن فلسطين التاريخية ويفرط في قضايا القدس واللاجئين والدولة والمياه والمستوطنات. وكفى بذلك خطوة عظيمة وانكفاءًا لتهديد خطير. إلا أنها في الوقت نفسه فتحت على الحركة المقاوِمة باب التحديات السياسية والإدارية لمجتمع مخنوق ومحاصر قد اجتمع عليه مَنْ بأقطارها ليُضعفوه ويُنهكوه ويُخضعوه! فلئن كانت تحديات إدارة الدولة أمرٌ مرهق شديد في كل المجتمعات، فهو

(١) كوندليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص٤٧٦، ٤٧٧.

في حال المجتمع الفلسطيني هذا أشد عسرا وإرهاقا ومحنة!

حاولت حركة حماس أن تشكل حكومة وحدة وطنية تشارك فيها كافة الفصائل الفلسطينية، بحيث تخفف عن نفسها عبء الانفراد بحمل المسؤولية، وتخفف كذلك من موجة العداوة القادمة سواء من السلطة أو من الأنظمة العربية أو من الدول الغربية. إلا أن مسعاها باء بالفشل، فقد كان من أوائل أساليب تعويقها: تهديد الأطراف التي ستقبل الانضمام إلى فريق حكومة حماس. فاضطرت إلى تشكيل الحكومة منفردة برئاسة: إسماعيل هنية، وتولى فيها وزارة الخارجية: محمود الزهار، وتولى وزارة الداخلية: سعيد صيام، وهؤلاء من قيادات الحركة.

تعددت الأساليب والسياسات التي اعتمدتها سائر الأطراف المعادية لحماس، وفي مطلعها السلطة الفلسطينية وحركة فتح، وكان أول ما جرى لتعويق حماس أن عقد الخبيث الخائن محمود عباس جلسة للمجلس التشريعي السابق المنتهية ولايته، ليصدر تعديلات دستورية تسحب صلاحيات الحكومة لتجعلها في يد الرئيس وحده! وأصدر عباس مراسيم يعيد بها هيكلة الأجهزة والوزارات لينقل تبعيتها من الحكومة إلى نفسه، خصوصا الأجهزة الأمنية والإعلام وهيئة إدارة المعابر والسفارات.

لكن أخطرها وأقواها كان ما فعلته أجهزة السلطة الفلسطينية ذاتها، فقد فوجئ وزراء الحكومة بأنهم استلموا الوزارات خاوية على عروشها قد خلت من كل شيء من الأموال، ثم إن الجهاز الإداري كله ممتلئ بأعضاء حركة فتح ليس فيه غيرهم، فكان الوزير إذا أصدر أمرا لا ينفذ، بما في ذلك وزير الداخلية سعيد صيام الذي وجد معاناة شديدة من وكيل الوزراة: رشيد أبو شباك، الذي فوضه عباس للإشراف على سائر الأجهزة الأمنية، ومن أعضاء الوزارة التي لا تقوم بدورها، وهو ما أدى إلى حالة واسعة من الانفلات الأمني الذي أثارته عناصر حركة فتح في الشوارع، وزاد من خطورته امتناع عناصر الأمن في الوزارة عن القيام بدورهم في التأمين. ولهذا اضطر الوزير سعيد صيام إلى تشكيل قوة تنفيذية منتخبة من الفصائل

تتبع له مباشرة، ليستطيع مباشرة مهماته، وكان على رأسها: جمال أبو سمهدانة مؤسس فصيل لجان المقاومة الشعبية، لكن لم يلبث إلا قليلا حتى اغتالته الطائرات الإسرائيلية (يونيو ٢٠٠٦م).

ولم يكن هذا هو التدخل الوحيد لعرقلة الحكومة الجديدة وتعويقها، بل لقد شنت القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية حملة اعتقالات للنواب الفلسطينيين الذين فازوا في الانتخابات ممن ينتمون إلى حماس لإنقاص عددهم بحيث تصير أغلبية المجلس التشريعي لحركة فتح، أو بحيث لا يكتمل نصاب المجلس إذا قرر أعضاء فتح ألا يحضروا، وبهذا يتعطل عمل المجلس التشريعي.

وأما الأنظمة العربية والغربية فقد أوقفت المساعدات التي تمنحها للسلطة وهي أكثر من نصف الميزانية، ورفضت إسرائيل تسليم عائدات الضرائب التي تجنيها من الفلسطينيين لصالح السلطة وهي نحو ثلث الميزانية، وتمثلت الرغبة الغربية فيما سُمِّي حينها الرباعية الدولية (تضم: أمريكا وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة)، وقد وضعت هذه الرباعية شروطا للتعامل مع حماس هي: اعتراف حماس بإسرائيل ونبذ الإرهاب ووقف المقاومة والموافقة على كل الاتفاقيات التي وقعتها منظمة التحرير!

ثم تصاعد الانفلات الأمني الذي تثيره عناصر فتح، إذ خرجت المظاهرات تطالب بالرواتب وتثير الاحتجاجات والاعتصامات والإضرابات، ثم تطور هذا إلى استعمال الرصاص وممارسة القتل، وزادت الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة من وتيرة هذا الانفلات حتى بلغ مستويات خطيرة، حيث تعرض وزراء حماس وقياداتها للاغتيال، وجرى اغتيال بعض رموزها الدعوية والعسكرية مثل عبد الكريم القوقا (٣١ مارس ٢٠٠٦م) ومحمد التتر (١٦ مايو ٢٠٠٦م) وحسين العوجة (٦ يوليو ٢٠٠٦م)، وكانت عصابات فتح تمارس قتل شباب حماس بأساليب مهينة، كإطلاق الرصاص على القدم ثم تركه ينزف ومنع سيارات الإسعاف عنه

حتى الموت، أو أخذه إلى أعلى بناية وإلقائه من فوق عشرة طوابق أو أكثر، مع محاولات مستميتة من حماس لضبط نفسها خشية الانزلاق إلى معركة داخلية وحرب أهلية.

جرت محاولات مصالحة عديدة، فأطلق الأسرى في السجون الإسرائيلية وثيقة يتوافق عليها الطرفان (يونيو ٢٠٠٦م)، وانعقدت لقاءات عدة بعضها في القاهرة، وبعضها في مكة انتهت إلى اتفاق مكة (٧ فبراير ٢٠٠٧م)، ولكن كان مصيرها جميعا الإخفاق، لأنه لا سلطة فتح ولا إسرائيل تريد أن يتم هذا الأمر ولا أن تتمكن حماس من ممارسة الحكم. وبلغت حصيلة الانفلات الأمني في هذه السنة نحو سبعمائة قتيل وأكثر من ثلاثة آلاف جريح. وأعلن عباس في أكثر من مناسبة أنه بصدد إجراء انتخابات مبكرة من جديد، وكأن الأمر لعبة على هواه ووفق مزاجه[(١)]!

واستمر هذا الوضع عامًا عصيبا، بدا معه أنه لا سبيل إلى وقوع مصالحة أو اتفاق، وأن أجهزة السلطة لن تسلم ما بيدها ولن تقبل بحكم حماس، بل لقد شكل عباس قوة خاصة أسماها الحرس الرئاسي، دعمتها أمريكا بأكثر من ثمانين مليون دولار، ووفرت لها خبيرا عسكريا لتدريبها، وعيَّن عباسٌ محمد دحلان ـ ألدّ أعداء حماس ـ مستشارا للشؤون الأمنية وجعله وزير الداخلية الحقيقي الذي عطَّل وزير الداخلية المستقل هاني القواسمي حتى اضطر هذا الأخير إلى الاستقالة، وازدادت حواجز الأجهزة الأمنية في الشوارع، وتصاعد عدد الاغتيالات حتى اغتيل ٢٢ عضوا من حماس في أسبوع واحد، أحصت حماس بالأسماء والوقائع ٧٦ شهيدا من أعضائها والمحسوبين عليها بنيران الأجهزة الأمنية الفتحاوية فيما بين مطلع

---

(١) انظر عرضا مميزا لفصول هذه التطورات عند: أحمد سعيد نوفل ومحسن صالح، «موقف حماس من منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها»، ضمن: محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة، ط٢ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٥م)، ص١٤٤ وما بعدها.

٢٠٠٦ وإلى منتصف ٢٠٠٧. وأحصت ٤٦٢ اعتداءا في خلال الأشهر الأربعة التي تلت توقيع اتفاق مكة[١]!

عند هذه النقطة، اتخذت كتائب القسام قرارا بإنهاء هذا الوضع الشاذ، وبعيدا عن المكتب السياسي قررت مهاجمة مقر جهاز الأمن الوقائي الرئيسي التابع لمحمد دحلان في منطقة تل الهوى، حيث رأس الأفعى، ولم يستغرق الأمر سوى ساعات معدودة حتى انهار أمامها، وصارت عناصر هذه الأجهزة ما بين طريد وشريد وهارب بنفسه!

كان قرار الحسم العسكري واحدا من أهم القرارات المصيرية في تاريخ القضية الفلسطينية، وهو القرار الذي يعد تحريرا حقيقيا لغزة، فمنذ ذلك الوقت وغزة هي البقعة الوحيدة المحررة حقا في فلسطين، ولن تكون مبالغة إن قلنا إنها البقعة الوحيدة المحررة في العالم العربي.

مباشرة ردَّت السلطة الفلسطينية وحركة فتح في الضفة الغربية بموجة انتقام عنيفة ضد حماس ومؤسساتها في الضفة، وأعلن عباس إقالة حكومة هنية، وعيَّن حكومة أخرى برئاسة سلام فياض (أحد أبرز الشخصيات الموغلة في العمالة والخيانة والمتمتعة بالرضا الإسرائيلي والأمريكي)، بلا انتخابات ولا استفتاء ولا موافقة مجلس تشريعي، وبالمخالفة للدستور، وبدأ منذ ذلك الوقت ما يسمى بالانقسام الفلسطيني، حيث صارت حماس تحكم قطاع غزة المحرر، وصارت السلطة الفلسطينية الممثلة لحركة فتح تحكم الضفة الغربية تحت الاحتلال الإسرائيلي.

بدأت حكومة عباس في الضفة الغربية تستأنف مسار التسوية والعمالة الأمنية وتضرب بكل قوتها سائر المظاهر الدينية والمؤسسات الخيرية والفعاليات الاجتماعية بحجة محاربة «حماس»! وافتتحت عصرا غير مسبوق

---

(١) ينظر: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، الكتاب الأبيض: عملية الحسم في قطاع غزة اضطرار لا اختيار، ط١ (غزة: نسخة إلكترونية، نوفمبر ٢٠٠٧م)، ص١٧٩ وما بعدها.

من التعاون مع الإسرائيليين لضرب المقاومة واعتقال أفرادها وتبادل المعلومات والتحقيقات، وكانت هذه فاتحة مرحلة في غاية العسر والصعوبة على الفلسطينيين في الضفة الغربية[1]!

وفي ظاهرة غريبة وغير مسبوقة قررت فتح أنها ستدفع رواتب الموظفين في قطاع غزة بشرط ألا يذهبوا إلى أعمالهم، فإذا ذهبوا فإنهم بهذا الذهاب يساعدون حماس على إدارة القطاع، ومن ثم ينقطع رواتبهم! إن هذا الوضع الذي يمكن تسميته «الإضراب الإجباري» كان يشلّ قدرة حماس على إدارة القطاع، ولكنه في الوقت نفسه خلَّصها من الموالين لحركة فتح في الجهاز الإداري، ولم يُبْقِ معها إلا المخلصين من أبنائها أو من أبناء بقية الشعب ممن لا يرضون بهذا الابتزاز.

كذلك ساهمت الأنظمة العربية في الردود على حماس، إذ أغلقت مصر معبر رفح إغلاقا تامًّا وفرضت حصارا كاملا على قطاع غزة، ثم منعت السعودية أهل القطاع من الحج في العام الأول بعد الحسم العسكري. ومن جهة أخرى أعادت الحكومات العربية والغربية دعم حكومة سلام فياض بالأموال والمنح والمساعدات، سواءٌ تلك التي أوقفتها أو أضافت إليها مساعدات جديدة لتمكين عباس وحكومته وتمويل ضرب المقاومة في الضفة الغربية.

كذلك فقد شددت إسرائيل هجماتها على قطاع غزة، فلقد كان هذا التحرير خطوة صاعقة ومفاجئة، وما كان يخطر ببال أحدهم أن الانسحاب من غزة قد يؤدي إلى أن تسيطر حماس عليها، وهي متسلحة بشرعية

---

(١) انظر في سياسة السلطة في الضفة: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، الكتاب الأسود: كشف للحقائق ورصد بالوثائق لممارسات سلطة «دايتون» وانتهاكات أجهزتها الأمنية في الضفة الغربية من ٢٠٠٧/٦/١٤ إلى ٢٠٠٨/٦/١٥، ط١ (غزة: نسخة إلكترونية، ٢٠٠٨م)؛ محسن صالح (محرر)، صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧، ط١ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠٠٨م)؛ إسراء لافي، سياسات محاربة المقاومة: حماس الضفة نموذجا، المعهد المصري للدراسات، بتاريخ ١٦ مارس ٢٠١٨م.

الانتخابات التي فازت فيها بأغلبية كاسحة. إنها المرة الأولى منذ الاحتلال البريطاني التي يمتلك فيها الفلسطينيون قطعة من الأرض، ويحكمونها بأنفسهم، ويكون حكامها من أهل المقاومة لا من الخونة المفرطين الذين يبيعون المبادئ ويتنازلون عن الحقوق.

حاول عباس أن يستعيد قطاع غزة من جديد، ونادى بقوات دولية تنزل لاحتلال غزة، ولكنه لم يجد من يوافقه، لسببيْن كبيريْن: تعقد وضع هذه القوات وصلاحياتها لدى حكومتي مصر وإسرائيل، كما أن الوضع العنيف الذي عاشه القطاع أطمع الجميع وجعلهم يراهنون على أن هذا الحصار الشامل سيؤدي إلى استسلام حماس وانهيارها، وهو ما لم يحدث.

لئن لم يحدث انهيار حماس واستسلامها، فلقد عانت الحركة وعانى الناس في قطاع غزة أوضاعا في غاية العسر والصعوبة جراء الحصار الشامل، وابتدأ تدهور سريع في المجالات الاقتصادية والصحية والتعليمية، وانهيار المشروعات المختلفة، وهو ما ألقى بآثاره على الأوضاع الاجتماعية التي أخذت في التدهور بدورها، فارتفعت معدلات الفقر والبطالة وشح المياه، وتكاثرت الأمراض جراء نقص الأدوية وتوقف استيراد الأجهزة والمعدات الطبية، وتحولت غزة إلى أكبر سجن مفتوح في العالم!

الحروب الخمسة في غزة

تحولت غزة منذ الحسم العسكري إلى قطعة أرض فلسطينية محررة ذات سلطة تدعم المقاومة لا تطاردها ولا تتعقبها، بل هي السلطة التابعة لأكبر فصائل المقاومة وأكثرها قوة، وكان هذا بمثابة تهديد خطير، فمع كل التحديات القوية والغزيرة التي واجهت حماس في مسائل مثل توفير الرواتب وإدخال البضائع، فقد بدأ عمل المقاومة ينتعش ويزدهر ويتطور على سائر المستويات.

بدأت الحركة في تعقب شبكات العملاء التابعين للصهاينة وتفكيكها، بوسائل متعددة بداية من الإعلان عن استعدادها لقبول التائبين من العمالة وحمايتهم وصولا إلى محاكمتهم وقتلهم، وأحيانا استطاعت إعادة توظيف العميل ليعمل جهده في تضليل الصهاينة. وأتاحت السلطة للمقاومة وسائل لتعزيز قدراتها وتنظيم العمل الفصائلي وتكوين غرف العمليات المشتركة واللجان التنسيقية التي تجعل قرار المقاومة مشتركا ومراعيا للحال والتوازن بين ضرورات السلطة وحسابات التصعيد العسكري مع العدو.

واجتهدت الحركة في الموازنة بين عملها كسلطة في غزة تدير السياسة والعلاقات الدولية والأمن الداخلي والاقتصاد والشؤون اليومية المعيشية، وبين عملها كحركة مقاومة تسعى لتطوير سلاحها وإمكانياتها، وهو أمر بالغ الصعوبة، لا سيما في حال القطاع المحاصر المعزول جغرافيا، حيث كان النظام المصري متشددا في حصاره أكثر من إسرائيل.

منذ الحسم العسكري، خاض القطاع المحاصر أربعة حروب مع إسرائيل، كانت الأولى في الأيام الأخيرة من ٢٠٠٨ وامتدت في ٢٠٠٩، ثم الثانية في ٢٠١٢، ثم الثالثة في ٢٠١٤، ثم الرابعة في ٢٠٢١. ولم يخل الأمر من مناوشات بينية وتصعيد عسكري لم يصل إلى حد القتال.

كان الإسرائيليون يعلنون أن هدفهم في كل حرب: القضاء على حماس أو الإطاحة بها من حكم قطاع غزة، وفشلت الحروب كلها في بلوغ هذا الهدف، بل كانت إسرائيل تتفاجأ في كل حرب بمستوى التطور التسليحي والتقني الذي بلغته فصائل المقاومة. كذلك كان المطلب الرئيسي لحماس لإيقاف الحرب بعد اندلاعها: رفع الحصار عن قطاع غزة، لا سيما: بناء ميناء غزة وتشغيله. وقد فشلت الحروب كلها في بلوغ هذا الهدف أيضا.

يمكن أن نضم إلى هذه الحروب حربا خامسة سبقت الحسم العسكري في غزة، وجرت في (٢٠٠٦م)، وذلك أنها كانت دليلا قويا على أن الحركة التي دخلت إلى الانتخابات وصارت في الحكومة لم تتخل عن المقاومة كما

فعلت حركة فتح من قبل التي نكصت على عقبيها واستمرأت سلطتُها الخيانة وانقلبت شرطيا عميلا لمساعدة الصهاينة. فقد نفذت المقاومة عملية عسكرية (يونيو ٢٠٠٦م) استطاعت أن تأسر فيها جنديا إسرائيليا (جلعاد شاليط)، وكان ذلك قرارًا في غاية الجرأة والجسارة، فشَنَّتْ إسرائيل هجوما على غزة بهدف استعادته، وتحطيم البنية العسكرية التي تُطلق الصواريخ على مستوطنات الجنوب وهدم شبكة الأنفاق، ولم تنجح في أي من ذلك، وانتهى الأمر باتفاق وقف لإطلاق النار في نوفمبر ٢٠٠٦م.

بالنظر إلى هذه الحروب في مجملها نرى أن عدد القتلى الفلسطينيين كان أضعاف أعداد القتلى الإسرائيليين، وكذا حجم الخراب في البنية التحتية والمنشآت والمباني وغيرها، فالمقياس المادي المباشر يظهر الأمر معه وكأنها هزائم متكررة، بينما في واقع الحال لم يكن الأمر كذلك، فإن الفارق الهائل في ميزان القوة بين الجانبيْن، والأهداف التي يضعها الجانبان، تجعل هذه الحروب بمثابة بطولات حقيقية ومشرقة لفصائل المقاومة التي تستطيع أن تبقى صامدة ثابتة وأن تصيب من عدوها وأن تحول بينه وبين هدفه، مع أنها في وضع عسكري وسياسي في غاية الضعف والأزمة.

فالنظام المصري الذي يمارس مهمة الوساطة والتفاوض كان أهم أعداء المقاومة الفلسطينية، وهو المتسبب الأكبر بما في قطاع غزة من الكوارث لتشدده الكبير في حصار غزة وإغلاق معبر رفح، وهو المنفذ الوحيد الذي تدخل منه البضائع والبشر، بما في ذلك الوقود اللازم لتشغيل محطة الكهرباء والأجهزة والمعدات الطبية، حتى عاش الناس في قطاع غزة ظروفا في غاية البؤس، ومات الكثير منهم جراء نقص العلاج، وتوقفت بعض المستشفيات عن العمل لنقص الكهرباء، وتوقفت كذلك بعض غرف العمليات الجراحية لنقص الأدوية والمعدات، ومات كثيرون بانتظار الإذن لهم بالخروج للعلاج في الخارج.

لجأ الناس في قطاع غزة، بدعم من الحكومة، إلى حفر أنفاق

واصلة بين مدينة رفح الفلسطينية ومدينة رفح المصرية (كانتا في الأصل مدينة واحدة حتى قسمهما خط الحدود الذي رسمه المحتل الإنجليزي)، فصارت هذه الأنفاق وسيلة التنفس الوحيدة التي يعيش منها أهل غزة وينقلون بينها البضائع. وقد كان ينبغي أن يكون النظام المصري منحازا إلى الفلسطينيين ولكنه مارس الوساطة المحايدة علنيا، بينما حقيقة الواقع أنه كان وسيطا منحازا للصهاينة وضاغطا على حركة المقاومة. فمنذ قرار الحسم العسكري شنّ الإعلام المصري ـ وللمرة الأولى في تاريخه ـ هجوما شنيعا على حركة حماس وفصائل المقاومة، واعتقلت المخابرات المصرية عددا من أعضاء حماس كانوا يمرُّون بمصر، وعذبت بعضهم تعذيبا شديدا حتى الموت، فممن ماتوا تحت التعذيب أخي سامي أبو زهري المتحدث باسم حماس، وممن اعتقلوا وعذبوا عذابا شديدا أيمن نوفل أحد أعضاء المجلس العسكري لكتائب القسام، وظل في السجن حتى وقعت ثورة يناير ٢٠١١ في مصر فاستطاع الفرار إلى غزة.

وقد كان النظام المصري راعيا لتهدئة بين حماس وبين إسرائيل مشروطة برفع الحصار عن غزة، ولكن إسرائيل لم تلتزم بهذه الشروط، فرفضت الفصائل تجديد الهدنة، بينما سعى النظام المصري في تجديدها وأوصل إلى الفصائل رغبة الإسرائيليين في تجديدها، وبينما السعي متصل في هذا السبيل إذ شنّت إسرائيل هجوما مفاجئا (٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م) قصفت فيه دفعة من خريجي الشرطة الفلسطينية، فقتلت فيه مائة منهم على الأقل، فكان النظام المصري من وسائل الخديعة في هذه الحرب، لا سيما وقد كانت وزيرة الخارجية الإسرائيلية في زيارة لحسني مبارك قبلها بيوم واحد!

استمرت هذه الحرب ٢١ يوما، وأسفرت عن استشهاد أكثر من ١٣٠٠ فلسطيني من بينهم أكثر من أربعمائة طفل، وأكثر من مائة امرأة، وإصابة أكثر من خمسة آلاف. وفي المقابل أفصح الإسرائيليون عن مقتل ٩ منهم، بينما قدرت المقاومة أنها قتلت ثمانين جنديا[١].

(١) محسن صالح، القضية الفلسطينية، ص١٣٢، ١٣٣.

لكن أهم نتائج هذه الحرب هي فشل الإسرائيليين في إعادة احتلال قطاع غزة، واضطرارهم أمام المقاومة غير المتوقعة أن ينسحبوا منها انسحابا غير مشروط، ويعودوا من جديد لصيغة الحصار! وبطبيعة الحال فقد فشلوا في إسقاط حكومة حماس، وكانت هذه النتيجة هي تعديل جديد في وضع غزة الصغيرة أمام الوحش الإسرائيلي المدجج بالسلاح.

وفي أثناء هذه الحرب حاول أمير قطر عقد قمة عربية لنقاش الوضع في غزة، فبذل النظام المصري جهده لمنع انعقاد هذه القمة(١)، واستطاعوا إفشالها بالفعل، فصارت اجتماعا خاصا وليس قمة عربية طارئة، وكان ممن امتنع عن حضورها محمود عباس نفسه، وذلك اعتراضا على وجود خالد مشعل رئيس حركة حماس في القمة! لأن هذا يخدش دعواه في أنه الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، وتلك هي معركة عباس الأولى والأساسية منذ الحسم العسكري!

غير أن أخطر ما أسفرت عنه هذه الحرب هو بيان الحد الذي وصلت إليه السلطة الفلسطينية والنظام المصري في معاداة المقاومة الإسلامية، لا سيما حركة حماس:

فأما السلطة الفلسطينية، فقد كُشِف فيما بعد ما عُرِف بفضيحة جولدستون، حيث قدَّم ريتشارد جولدستون تقريرا عن انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان في حربها على غزة، ثم فوجئ الجميع بأن السلطة الفلسطينية وقفت ضد هذا التقرير! وتبين فيما بعد أن إسرائيل هددت

(١) يرى النظام المصري أن ملف القضية الفلسطينية هو من الملفات الحصرية التي يجب أن تكون بيده وحده، ولا ينافسه فيها أي نظام آخر، وهو يتعامل مع هذه القضية باعتبارها ورقة بيده يعاظم بها أهميته لدى الأمريكان، فهو يقاتل لئلا يكون ثمة وسيط ولا شريك آخر في هذا الملف، ولكن انحيازه الدائم لإسرائيل والضعف الذي يزداد انتشارا في أجنحة هذا النظام أدى بالتدريج إلى دخول القطريين والأتراك كوسطاء وفاعلين، وإن كانت الجغرافيا قد منحت النظام المصري أفضلية على كل هؤلاء، فلا يزال هو الأقوى في هذا الموضوع لقدرته على التحكم بمعبر رفح.

محمود عباس بأن السلطة إذا دعمت التقرير فإنها ستنشر مقطعا مصورا لاجتماع بين عباس وبين باراك، وفيه يطالب عباس بضرورة استمرار الحرب على غزة حتى إسقاط حماس! وكُشِف أيضا عن مكالمة صوتية بين الطيب عبد الرحيم ـ الأمين العام للرئاسة الفلسطينية ـ وبين مدير مكتب رئاسة الأركان الإسرائيلية دوف فايسجلاس، وفيه يقول الطيب عبد الرحيم بأن الظروف مواتية لاقتحام الجيش الإسرائيلي مخيمي جباليا والشاطيء في غزة لإسقاط حكم حماس، فردّ عليه الإسرائيلي بقوله: ولكن هذا سيتسبب في سقوط آلاف المدنيين، فقال: جميعهم انتخبوا حماس وبهذا فقد اختاروا هم مصيرهم!

وأما النظام المصري، فبداية من الخديعة التي شارك فيها النظام قبيل بدء الحرب، ثم الهجوم الشرس من الإعلام المصري على حركة حماس، ويعزو بعض شهود العيان هذا التطور في إظهار الوجه الشرس ضد المقاومة إلى رغبة رئيس المخابرات المصرية اللواء عمر سليمان أن يكون بدلا عن حسني مبارك، فكان منذ ٢٠٠٥ على الأقل يسعى بضراوة لخدمة إسرائيل لعل هذا يرفع أسهمه لدى الأمريكان في بحثهم عن بديل للرئيس العجوز الذي جاوز الثمانين من عمره[1]!

ومن أخطر الأدوار التي لعبها عمر سليمان لمصلحة الإسرائيليين تعنته الشديد في عقد صفقة لتبادل الأسرى بين حماس وإسرائيل، وبذل جهاز المخابرات المصرية جهده، وعلى رأسه عمر سليمان نفسه في معرفة مكان

---

(١) أخبرني عدد من قيادات المكتب السياسي لحركة حماس على هامش بعض الندوات والمؤتمرات المنعقدة في اسطنبول أن عمر سليمان كان يبدي موقفا شبه متزن إلى عام ٢٠٠٥، ثم انقلب موقفه بعد ذلك. وأخبرني الشيخ رفاعي طه، وهو من قيادات الجماعة الإسلامية، أن عمر سليمان عقد لقاءا معه في ٢٠٠٣ حاول أن يستطلع فيه رأي الإسلاميين والجماعة الإسلامية وموقفهم من ترشح عمر سليمان للرئاسة. وفي عام ٢٠٠٥ ظهرت في شوارع القاهرة حملات إعلامية ودعائية لترشيح عمر سليمان للرئاسة.

جلعاد شاليط لإنهاء أثمن ما تملكه حماس للإفراج عن الأسرى الفلسطينيين، ثم بذل جهده لمنع إتمام صفقة ترفع من شأن حماس لدى أهل فلسطين وفي الإقليم العربي، واستطاع أن يعرقل هذه الصفقة وأن يفرض شروطا أشد مما قبل به الصهاينة أنفسهم، ولم تنجح وساطات فرنسية وألمانية وغيرها.

ثم جاء الفرج للجميع حين اشتعلت الثورة المصرية (يناير ٢٠١١م) وأطاحت بحكم حسني مبارك، ومعه عمر سليمان الذي كان قد صار نائبا له في الأيام الأخيرة من حكمه، ودخلت المنطقة العربية كلها في زلزال كبير، واستشعرت إسرائيل خطرا على وجودها ذاته بزوال مبارك الذي وصفه الوزير الإسرائيلي بنيامين بن إليعازر بأنه «كنز استراتيجي لإسرائيل»[١]، ووصفه جورج تينيت مدير المخابرات الأمريكية بأنه «أحد أكثر الشركاء موثوقية في محاربة الإرهاب ومحاولة تحقيق السلام في الشرق الأوسط»[٢]، ولا يخفى أن معنى «الإرهاب» في القاموس الأمني الأمريكي هو: الإسلام، ومعنى «تحقيق السلام» هو: تمكين إسرائيل!

وقد ازداد الزلزال بارتداد آخر لا يقل عنه خطرا باشتعال الثورة السورية (مارس ٢٠١١م) التي هددت نظام بشار الأسد الذي حافظ طوال ٤٠ سنة على أمان جبهة الجولان. وما يهمنا الآن من هذا كله أن زوال نظام مبارك كان العائق الأهم الذي مَكَّن حماس من إبرام صفقة مشرفة لمبادلة الجندي الأسير لديها بألف من الأسرى الفلسطينيين وفوقهم عشرين من الأسيرات (أكتوبر ٢٠١١).

بدا أن تحرير فلسطين قد اقترب كثيرا مع انطلاقة الثورات العربية، وبلغت هذه الأماني ذروتها حين فاز الإخوان المسلمون بالانتخابات الرئاسية في مصر، وتولى الحكم: محمد مرسي، فكأنما انطوى الزمن

(١) تصريح للإذاعة العسكرية الإسرائيلية بتاريخ ٥ مايو ٢٠١٠م.
(٢) جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص١٠٣.

واقترب الخيال، وجرى استقبال قيادات حماس في قصر الرئاسة المصرية.

لم يكن مرسي الذي تولى الرئاسة (يوليو ٢٠١٢م) يقبض على أزمة الحكم، ولا زالت أمامه جولات طويلة في التمكن من جهاز دولة عريقة بُنِيت سياساتها على معاداة الإسلام والمسلمين، وعلى مطاردة الإسلاميين وتعقبهم، وما كان مستعدا للدخول في أزمات مع الأمريكان أو الإسرائيليين، فقد كانت سياسة الإخوان طمأنة القوة الدولية والسير في الإصلاح التدريجي. ولكن، مع ذلك كله فإن كثيرا من القيود التي وضعها النظام أمام الفلسطينيين قد انحلت، لا سيما على الحركة عبر معبر رفح الذي هو شريان الحياة الوحيد للقطاع المعزول المحاصر. ومع أن المعبر لا زال تحت سيطرة الأجهزة الأمنية نفسها ولا يدخل منه سلاح ولا حتى المواد التي يُمكن أن تشارك في صناعة السلاح، إلا أن هذه السنة التي حكمها مرسي قبل أن يطيح به الانقلاب العسكري كان بمثابة العام الذهبي لقطاع غزة. وتمكنت حركة حماس من تهريب كميات ضخمة من الأسلحة، فلقد تدفقت عليها أسلحة من مصادر متعددة لا سيما من مخازن القذافي الذي أطاحت به الثورة الليبية، وكانت حركة التهريب أسهل مع الضعف الذي انتاب الأجهزة الأمنية المصرية مع ارتدادات الثورة المصرية، ومع قيام الظنون بأن الأمور قد تغيرت وأن العصر القادم سيكون للإسلاميين.

في هذا العام الذهبي أقدمت إسرائيل على اغتيال أحمد الجعبري، الرجل الثاني في كتائب القسام (١٤ نوفمبر ٢٠١٢م)، فابتدأت بذلك الحرب الثانية على قطاع غزة منذ تحرره الحقيقي في (٢٠٠٧م)، وكانت الحرب الوحيدة التي تحصل في ظل نظام مصري داعم لغزة سياسيا، وفي ظل حراك شعبي عربي كبير، مع ضعفٍ لأجهزة الدولة المصرية، ما كان يعني أنه إذا طالت هذه الحرب فيوشك أن تنفلت الأمور جميعها، فهُرعت السياسة الأمريكية لإيقاف هذه الحرب في أقرب وقت، وجرى التوصل لاتفاق وقف إطلاق النار بعد أسبوع واحد! فكانت بذلك أقصر الحروب وأقلها كلفة، إذ أسفرت عن ١٠٥ شهداء ونحو ألف جريح، فيما أفصحت إسرائيل عن مقتل ٤ وإصابة ٢١٩ من الإسرائيليين.

ما لبث العام الذهبي أن انقضى بانقلاب عسكري دموي أطاح بحكم محمد مرسي (٣ يوليو ٢٠١٣م)، وشنَّ زعيم الانقلاب حملة عنيفة على الإخوان المسلمين تشبه في شراستها وضراوتها الحملة الناصرية قبل ستين سنة! وقتل منهم نحو ألف شخص في يوم واحد (١٤ أغسطس ٢٠١٣م) فيما عرف بمذبحة رابعة، نسبة إلى الميدان الذي جرت فيه المذبحة. ولكن ما يهمنا الآن فيما يخص الوضع في غزة أن ذلك الحكم العسكري الجديد تعامل مع حماس وقطاع غزة تعامل الأعداء الأصلاء، وقام بأكبر مجهود بذله نظام مصري في كسرهم وإخضاعهم، بداية من تشديد الحصار عليهم وإغلاق معبر رفح إلى الحد الأقصى. ثم شن حملة عسكرية عنيفة لهدم كل الأنفاق الممتدة بين رفح الفلسطينية ورفح المصرية، وهي الأنفاق التي جرى حفرها وزيادتها لتجاوز الحصار البري المفروض منذ عصر مبارك، فتسلط عليها بكافة أنواع التخريب كالتفجير والإغراق بالمياه المالحة والملوثة وبضخ الغازات السامة وبغيرها من الطرق. بل بلغ الأمر أن أزال نظام عبد الفتاح السيسي قرية رفح المصرية تماما لإنهاء كل مسالك التهريب! ثم أقام جدارا فولاذيا ضخما، غائصا في الأرض وعاليا في السماء ليقطع كل إمكانية لعمل بعض الأنفاق، وعاشت غزة أحد عشر عاما شنيعا منذ هذا الانقلاب وحتى لحظة كتابة هذه السطور.

ثم لم ينقضِ عامٌ واحدٌ بعد هذا الانقلاب العسكري حتى شنت إسرائيل حربها الثالثة (٢٠١٤م)، فكانت أشد من الحروب السابقة كلها، إذ كان النظام المصري في ذلك الوقت حريصا على تدمير حماس كحرص الإسرائيليين أو أشد حرصا، فأغلق معبر رفح لأول مرة أمام الجرحى الذين يحتاجون إلى العلاج غير المتوفر في غزة، ووقفت السياسة المصرية في صف العدوان الصهيوني سياسيا وإعلاميا وقفة شرسة غير مسبوقة، غير أنه كان من مفاجآت المقاومة في هذه الحرب أن وصل مدى صواريخها إلى تل أبيب! عاصمة إسرائيل نفسها! ومع أن القدرة التدميرية لهذه الصواريخ بسيطة ومحدودة إلا أنها كانت قادرة على إيقاف الحركة الاقتصادية بما في ذلك المطار والمدارس وبقية الأنشطة، فلم تكن فائدة

هذه الصواريخ عسكرية قدر ما كانت نفسية واقتصادية.

ومثلما كانت هذه هي أشد الحروب، فقد كانت أطولها، إذ جاوزت الخمسين يوما، وحاولت القوات الإسرائيلية فيها أن تتوغل بريا بعد كثافة نيران عالية، إلا أن محاولاتها باءت بالإخفاق، ووجدت من المقاومة بأسا وصلابة شديدة، فأخفقت أهدافها، وسعى الوسطاء في الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن المقاومة اشترطت رفع الحصار عن غزة، وتصلبت في موقفها، فصارت إسرائيل تدمر المباني السكنية بلا هدف ولا معنى سوى الضغط على المقاومة، حتى جرى التوصل لاتفاق لوقف إطلاق النار.

من بعد هذه الحرب بدا الأمر وكأنما الحرب لن تستطيع حل مشكلة غزة التي تتصاعد وتتحول تدريجيا إلى قوة متزايدة، فسلكت الأطراف جميعها مسلك الضغط السياسي؛ وظهرت ثلاث نظريات سياسية للتعامل مع غزة، وهي نظريات متعاكسة ومتكاملة أحيانا، ونفذت جميعها: أحيانا معًا وأحيانا بالتبادل، على النحو الآتي:

١. تذهب السياسة الأولى إلى تشديد الحصار إلى الغاية القصوى وسدِّ كل المنافذ المحتملة لتهريب السلاح بكل قوة ممكنة. مع محاولات تفجير الأوضاع من الداخل عبر عناصر حركة فتح، أو تجنيد عناصر من تنظيم الدولة (داعش) للقيام باغتيالات نوعية، وذلك بغرض إثارة المتاعب والمشكلات لحكومة المقاومة وتهييج الحاضنة الشعبية ضدها.

٢. بينما تذهب النظرية الثانية إلى السماح بالتنفيس المحدود فيما يخص دخول البضائع والسلع وفي حركة الدخول والخروج بحيث يكون لدى المقاومة في غزة مكاسب تخشى عليها من الزوال، ويكون بيد الاحتلال والنظام المصري أوراق يمكنه الضغط بها على حكومة غزة وشعبها. مع المراهنة على أن الناس لن يستطيعوا الحياة على حافة البقاء، ومن ثَمَّ فلن يمكنهم التحمل إذا ما سُلبت منهم هذه الأمور المحدودة.

٣. وتذهب النظرية الثالثة إلى التجاهل التام لغزة، باعتبارها بقعة

مشاغبة، والذهاب باتجاه تصفية القضية من خلال الاستمرار في بناء المستوطنات وفي تهويد القدس وفي صياغة الخطط لتهجير أهل الضفة الغربية، بحيث يقع الفصل العملي بين قضية غزة وبين قضية فلسطين.

ولا يمكن نسيان أن هذه النظريات الثلاثة ما كان لها أن تتم لولا التنفيذ المخلص والجاد من النظام المصري الذي استعمل كل إمكانياته وقدراته في محاولة إخضاع حماس وإذلالها، واستعمال معبر رفح وسيلة لخنقها وتركيعها.

وأمام هذا الوضع الخطير الذي تُفْرِزُه سياسةٌ ناعمةٌ ليست فيها حروب، أقدمت حماس على خطوات عديدة، أبرزها ثلاث خطوات:

الأولى: محاولة التوصل إلى اتفاق مع السلطة الفلسطينية وتشكيل حكومة وحدة وطنية تتنازل بها حماس عن حكم غزة، وأبدت في هذا الشأن تنازلات تامة، لكن السلطة الفلسطينية وضعت شرطا مستحيلا، وهو تسليم حماس لسلاحها(١)، وهو شرط استسلامي لا يمكن قبوله بحال، فأخفقت محاولات تشكيل حكومة الوحدة، وظلت غزة في مسؤولية حماس، أو ظلت حماس متورطة في حكم غزة وتولي عبء إدارته.

الثانية: وتجاوزا لمحاولات التهييج الشعبية ضد حكومة حماس، ابتكرت حماس فكرة «مسيرات العودة»، لإعادة توجيه السخط والمشاعر الشعبية ضد الاحتلال، وكذلك لمحاولة إحياء القضية نفسها ومنع تصفيتها وإهمال غزة وأهلها، وهذه المسيرات هي خروج سلمي من جموع شعبية إلى الحدود مع مناطق سيطرة الصهاينة، مع محاولات شعبية متنوعة وشبه

(١) لقاء محمود عباس مع قناة CBC المصرية بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠١٧، وفيه قال: لن يكون في غزة سلاح غير شرعي ولن يقبل باستنساخ تجربة حزب الله؛ تصريحات مدير عام الشرطة الفلسطينية حازم عطا الله لصحافيين أجانب برام الله بتاريخ ٨ نوفمبر ٢٠١٧، وفيه كرر كلام عباس؛ المؤتمر الصحفي لعضو المكتب السياسي لحماس خليل الحية، غزة بتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠١٧ وفيه التأكيد على أن سلاح المقاومة خط أحمر وأن ما حدث في الأيام السابقة لا يبشر بخير.

سلمية غير عسكرية لخرق هذه الحدود، ولإزعاج القوات المكلفة بتأمينها، وقد استطاعت هذه المسيرات تحقيق نوع خافت من إحياء القضية في ظل التجاهل الإعلامي والسياسي الدولي لأهل غزة، واستطاعت أيضا أن تصرف طاقة السخط والغضب الشعبي ضد المحتل الذي هو أصل الإشكال.

الثالثة: تهييج الضفة الغربية والعمل على إعادة تشكيل خلايا المقاومة وتفعيلها، وكانت الضفة الغربية قد بلغت حدًّا فظيعا من السيطرة الأمنية الإسرائيلية، ثم السيطرة الأمنية للسلطة الفلسطينية، فمنذ ٢٠٠٦م انتخب الأمريكان مجموعات من عناصر السلطة الفلسطينية جرى تدريبهم في الأردن على يد جنرال أمريكي صار اسمه مشهورا، وهو كيث دايتون، وهذه القوات أريد لها أن تكون ذراع السلطة الضارب الغارق حتى الثمالة في الخيانة، بحيث لا تظهر فيها بعض الاستثناءات التي ظهرت في حقبة ياسر عرفات ممن غضوا الطرف عن المقاومة أو أعانوها بعض العون لما تدهورت الأمور واشتعلت الانتفاضة ومات حلم السلام. وبالفعل، استطاع دايتون وفريقه وخلفاءه بعد برامج التدريب هذه أن يُخَرِّجوا نسخا من أقذر وأحط أنواع العملاء والخونة[١]، صاروا هم جنود السلطة الفلسطينية، فكانوا أشد على أهل الضفة الغربية من قوات الاحتلال نفسه! وقد استطاعوا بالفعل تفكيك شبكات المقاومة في الضفة الغربية وضرب البنية التحتية لكل العمل المقاوم، وفي هذه الأجواء الخانقة برز عدد من الاستشهاديين الذين كانوا ينفذون عملية طعن أو إطلاق نار فربما قتلوا أو أصابوا وربما أخفقوا في ذلك، ولكن المؤكد أنهم يُقتلون في لحظتها أو بعد ساعات من المطاردة، أو في الحد الأقصى: بعد أيام منها! إذ ليس في الإمكان فعل أكثر من هذا في ظل

(١) كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص٦٥٢؛ روبرت جيتس، الواجب: مذكرات وزير الدفاع الأمريكي ومدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية سابقا، ط١ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠١٧م)، ص٣٤٦.

الهيمنة الأمنية للاحتلال وللسلطة. ولكن هذه العمليات المتتالية أعطت الضفة الغربية بعض الإنعاش في مجال المقاومة من بعد سكوت وسكون.

ستختلف التقديرات في تقييم هذه الخطوات، فمن سينظر إليها بعين الإمكانيات المتاحة سيراها قد حققت نتائج قوية، ومن نظر إليها بعين الأهداف المرغوبة سيرى أنها أخفقت في تحريك القضية أو إعادة ربط الوضع في غزة ببقية الوضع الفلسطيني، بل حتى المطلب الأساسي الخاص بغزة وهو رفع الحصار لم يتحقق، ولا يبدو في الأفق أنه قد يتحقق.

وفي ثنايا هذه الفترة استطاع الجهاز الأمني لحماس إفشال محاولات التهييج والاغتيالات، وتجنيد عناصر فتح وتنظيم الدولة (داعش)، فأخفقت في المقابل خطة الصهاينة والسلطة في هذا الشأن.

وإذن، لم تبلغ إسرائيل هدفها من غزة، ولم تبلغ حماس هدفها في كسر الحصار أو في الحيلولة دون ترسيخ الانقسام أو منع التجاهل الذي يريد فصل غزة وقضيتها عن قضية فلسطين، ومن ثَمَّ أقدمت حماس هذه المرة على المبادرة بالحرب للمرة الأولى، وهي الحرب التي أطلق عليها: سيف القدس في عام ٢٠٢١م.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تبادر فيها حماس بالحرب، وكان ذلك انفعالا وتفاعلا مع تهديدات التهويد الخطيرة التي تزيد إسرائيل في وتيرتها، ومن ذلك: مسيرة الأعلام التي قررت إسرائيل تنفيذها، فبدأت حماس بإطلاق الصواريخ بعد تهديد أطلقه قائد كتائب القسام: محمد الضيف لم تستجب له إسرائيل، واشتعلت الحرب بين الجانبين، واستمرت أحد عشر يوما، انتهت باستشهاد أكثر من مائتين، وأعلنت إسرائيل عن مقتل ١٣ يهوديا، ولكن الرسالة النهائية التي أوصلتها هذه الحرب أن غزة يمكن أن تبادر بالحرب دفاعا عن الأقصى، وأن القدس صار لها سيف يمكن أن يُشهر من غزة! وهذا هو أخطر ما حاولت معركة سيف القدس أن تُثَبِّتَه!

طوفان الأقصى

منذ انتهاء معركة سيف القدس، حرصت إسرائيل على تكرار انتهاك حرمة المسجد الأقصى في عدد من المرات لكي تُفْشِل الغرض الذي أرادت المقاومة تحقيقه في معركة «سيف القدس»، بما في ذلك اقتحام المسجد في شهر رمضان والاعتداء على المصلين والتضييق عليهم حتى في صلاة التراويح. ولم تكن ردود فعل المقاومة في غزة على نحو ما هو متوقَّع، فقد ارتفعت التوقعات بعد معركة سيف القدس، وإنما اقتصرت على التنديد والوعيد، وهو ما كان يتجاوزه الإسرائيليون سعيا منهم لترسيخ تحكمهم التام وهيمنتهم الكاملة على المسجد الأقصى، وأنهم أصحاب التصرف فيه بما شاؤوا وكيفما شاؤوا.

ولهذا كانت الخلاصة لدى إسرائيل أن حركة حماس جرى ردعها بالفعل، وأنها عدو عاقل لا يغامر بنفسه، حتى لقد حرَّك الإسرائيليون بعض فرقهم من نقاطها الموازية لغزة لإسناد عملياتهم العسكرية والأمنية في الضفة الغربية.

بعد أسبوعين من هذا التصريح فوجئ العالم كله في فجر السبت (٧ أكتوبر ٢٠٢٣م) باقتحام مئات من عناصر المقاومة لخطوط السياج المحيطة بغزة، تحت وابل من الصواريخ التي انهمرت على أنحاء مختلفة من إسرائيل، واستطاعوا أن يخترقوا عشرات المستوطنات، وأن يقتلوا أكثر من ألف إسرائيلي معظمهم من العسكريين، وأن يدمروا فرقة غزة ويسيطروا على مقر قيادتها، وأن يعودوا إلى غزة بمئات الأسرى الإسرائيليين، وقد تصادف هذا الهجوم مع حفل أقامته فرق مسرحية إسرائيلية قريبا من حدود غزة مما جعل أسرهم أمرًا يسيرا.

بحسب تصريحات مقربة من المقاومة كان مقدرا لهذه العملية أن تستغرق يوما، فإذا بكل أهدافها تتحقق في ست ساعات فحسب، وهذه الساعات الست هي التي ظلت فيها الأجهزة الإسرائيلية مشلولة لا تفهم ماذا حدث؟ ولا كيف فوجئت بهذا الهجوم العنيف غير المسبوق في تاريخها كله؟!

لقد استطاعت المقاومة على إمكانياتها الضعيفة، وهي في بقعة محاصرة معزولة منذ ١٧ سنة أن تسدد لإسرائيل ضربة لم تستطع الجيوش العربية مجتمعة أن تفعلها، فهذا أكبر عدد من القتلى تشهده إسرائيل في يوم واحد!! وأشد من ذلك أن إسرائيل ذات المنظومة الأمنية المتطورة والتي تراقب غزة على مدار الساعة لم يتسرب إليها خبر هجوم كبير كهذا، كما أن سياجها الأمني المزود بطبقات متعددة من الاستشعار والتأمين والمراقبة بدا وكأنه سراب لا يعمل ولا يستطيع صد هذا الهجوم.

هدفت المقاومة من هذه العملية إلى تنفيذ عملية تبادل أسرى تخرج به جميع الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، ولكن حجم الضربة وعنفها ومفاجأتها أشعل انتقاما إسرائيليا تداعت إليها فيه سائر الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا، حيث هرع الرئيس الأمريكي نفسه إلى زيارة إسرائيل، كما هرع قبله وبعده وزراء الدفاع والخارجية ونخبة من المسؤولين العسكريين والأمنيين، بل أرسلت أمريكا أكبر حاملتي طائرات عندها إلى البحر المتوسط في تهديد لكافة الأطراف التي قد تفكر في أن تدخل المعركة في لحظةٍ بدا فيها واضحا أن إسرائيل ليست بهذه القوة الضخمة وأنها يمكن أن تُضرب ويُنال منها على يد ثلة من المقاومين بأسلحة خفيفة في بيئة محاصرة وضعيفة!

لا يمكن التأريخ الآن لطوفان الأقصى إذ هو لم ينته بعد، ولكن حربا عظيمة اشتعلت في غزة، استشهد فيها حتى لحظة كتابة هذه السطور أكثر من ٣٦ ألفا من أهل غزة، وأصيب فيها نحو ٩٠ ألفا منهم. وأظهرت هذه الحرب بكل وضوح كافة الحقائق التي كانت غائمة وغائبة عن كثير من الناس، فلم يبق مغفلا إلا من طمس الله على قلبه وبصره:

بدا في هذه الحرب مدى الوحشية والدموية والقسوة التي لدى اليهود والصهاينة، إذ لم يتورعوا عن قصف المستشفيات والمساجد والكنائس ومراكز الإيواء وخيام النازحين والجمعيات الإغاثية وحتى آبار المياه ومولدات الطاقة التي تستعمل لتحلية المياه أو لإمداد المستشفيات، ونفذوا

العديد من المجازر الميدانية ودفنوا الضحايا في مقابر جماعية ونبشوا القبور، وتركوا الأطفال الرضع والخدج حتى ماتوا من الجوع والبرد على أسرة المستشفيات.

كذلك بدا في هذه الحرب مدى الوقوف الغربي، وعلى رأسه الأمريكي، خلف إسرائيل بكل قوتها، وإمدادها المنهمر بالأسلحة والقذائف والصواريخ، فضلا عن الخبراء والمتخصصين، ووسائل التعقب والتجسس للبحث عن الأسرى وعن قيادات المقاومة، وبذل المجهود السياسي والإعلامي والقانوني دوليا وداخليا، وبلغت الوقاحة والفجاجة وإظهار الوجه القبيح حدًّا غير مسبوق.

كما بدا أيضا في هذه الحرب مدى ما بلغته الأنظمة العربية من الخيانة والفجور، لا سيما أنظمة مصر والأردن والسعودية والإمارات، مما لا يمكن الحديث عنه في هذه العجالة، لقد استخدمت هذه الدول سائر إمكانياتها في توفير الحماية لإسرائيل وفي صناعة بدائل برية وبحرية للسفن التي تأتي إليها من البحر الأحمر حيث استهدفها الحوثيون الذين يسيطرون على اليمن عند مضيق باب المندب، وكُشِف الكثير عن مواقفهم التي تتمنى من إسرائيل سرعة إنهاء حماس والمقاومة في غزة، وحافظ نظام الأردن على طبقات حراسة قوية لحدوده مع إسرائيل، وكذلك فعل النظام في مصر بمعبر رفح الذي صار يعمل وفق التصريح الإسرائيلي في حركة الأفراد والبضائع، فحتى المصريون العالقون في غزة كانوا يحتاجون إلى موافقة إسرائيلية للدخول إلى مصر، ثم صار لا يخرج الفلسطيني منه إلا إن دفع مبلغا ضخما (ما بين ٥ آلاف إلى ١٠ آلاف دولار على الفرد الواحد)، في واحدة من أبشع مظاهر الخيانة والإجرام!

وبدا في هذه الحرب مدى ما بلغته المؤسسات الدولية من العجز أو التواطؤ، فالأمم المتحدة ومؤسساتها الإغاثية والصحية والقانونية لا تستطيع سوى عدّ الضحايا وتقديم التقارير والإدانة الضعيفة، ولا تستطيع العمل على الأرض إلا وفق المزاج الإسرائيلي.

وبدا أيضا عجز الشعوب العربية والإسلامية عن إغاثة إخوانهم وعن مدّ يد العون، وشهد الناس بأنفسهم كيف أنهم لا يستطيعون الحركة إلا بالمقدار الذي تسمح به الأنظمة، فهم يتظاهرون إذا سُمِح بالتظاهر، ويكتبون على مواقع التواصل إن سُمِح بهذا، وبعضهم لا يستطيع حتى الكلام ولا الكتابة على مواقع التواصل. فكان هذا الأمر من أوضح ما عرف الناس به حقيقة قدرتهم ومدى سيطرة هذه الأنظمة عليهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أهم الخلاصات
من تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر

إن صفحة تاريخ فلسطين حافلة متكدسة مكتظة بالدروس والعظات والعبر، وكلما ازداد المرء فيها تعمقا اكتسب منها خبرة أوسع وأقوى بطبيعة العالم في هذين القرنين، ولعله ليس من المبالغة القول بأن هذه القضية تركزت فيها خلاصة معارك هذا العالم: الدينية والتاريخية والفكرية والسياسية والقانونية.

إلا أننا نلتقط من هذه الصفحة المكثفة أهم ما نرى أننا بحاجة إلى التركيز عليه.

خلاصات تاريخية وفكرية

تظل صفحات التاريخ سردا غير مفهوم ولا مترابط، كالمعجم اللغوي أو الدليل السياحي أو قاعدة البيانات، إذا لم تستخلص منها العبر والدروس التي تفسرها وتربط بينها، وأهم ما يمكن استخلاصه من هذه الأحداث فيما نرى هو الآتي:

(١)

لا ريب في أن المعركة حول بيت المقدس هي معركة دينية، وأن الدوافع الدينية فيها هي الأقوى والأصرح، وأولئك الذين يقاتلون في سبيل هذه القضية، في كافة العصور السالفة، إنما كانوا يقاتلون في سبيل الدين

الذي يعتنقونه، سواءٌ في هذا المسلمون والنصارى واليهود. وقد يوجد في المقاتلين من يحب الدنيا، ويوجد في الساسة والأمراء والملوك والأباطرة من يبتغي المجد والتوسع، لكن جميع أولئك مضطرٌّ أن يغطي أهدافه بغطاء من الدين والقداسة، إذ هو يعرف أنه لن يستخرج مقاتلين من ديارهم، ولن يستخرج من المقاتلين طاقاتهم إلا إذا خاطب فيهم هذه القداسة الدينية التي تتمتع بها بيت المقدس.

ولقد كان هرتزل مستعدا لأن يكون لليهود وطن قومي في أماكن عدة، فما لبث أن فهم حقيقة الوضع، وأن اليهود لن يتحركوا معه إلا إن كانت العودة إلى بيت المقدس حصرًا، ولربما كان بعض ملوك أوروبا حين جاؤوا في الحملات الصليبية يريدون من الشرق أنهار اللبن والعسل، لكنهم لم يكونوا ليخرجوا هذه الجيوش تلو الجيوش إلا وهم يثيرون في النصارى شأن الدفاع عن قبر المسيح، والمسلمون أيضا كذلك، فلو لم يكن بيت المقدس آية في كتاب الله، ولو لم تكن قبلة المسلمين الأولى ومسرى رسول الله ومعراجه إلى السماء لكان الأمر أهون بكثير من ذلك.

وكأنما شاء الله تعالى أن يجعل هذه الحقيقة واضحة ساطعة، فليست أرض فلسطين بأخصب الأراضي ولا هي فياضة بالماء والأنهار كما هو الحال في مصر أو العراق مثلا، كما أنها ليست أرض نفط وثروات معدنية على نحو الحال في دول الخليج العربي، ومع ذلك فإن القلوب تتعلق بها والأبصار ترنو إليها بأكثر مما ترنو إلى بغداد أو القاهرة أو الرياض أو غيرها من الأنحاء.

ومن العبث، بل من الخيانة حقا، أن يرفع اليهود شعاراتهم الدينية ثم يرفع المسلمون شعارات علمانية تتحدث عن الحق في الأرض تاريخيا أو عن حقوق الإنسان وحقوق تقرير المصير ونحوها من الشعارات التي لا تكاد تحرك أحدا ولا تنفع في عالم الغاب هذا!

لما استولى اليهود على المسجد الأقصى قال موشيه ديان: «إذا كانت التوراة معنا، ونحن شعب التوراة، فنحن أصحاب أرض التوراة، أرض

الأحبار والآباء في القدس والخليل وأريحا وما حولها، ولن نرحل من هنا، لعل هذا ليس كلاما سياسيا، لكنه أهم من ذلك، إنه تحقيق حلم الأسلاف»[١]. وسجَّل مناحم بيجين في مذكراته، ضمن استعراضه خلاصة الأفكار التي يؤمن بها، أن «التوقيع على اتفاق التقسيم باطل، ولا يلزم اليهود، فالقدس كانت عاصمتنا وستظل كذلك أبد الدهر، وسترجع أرض إسرائيل مرة أخرى إلى شعبها: كل الأرض وإلى الأبد»[٢].

فهل خطابٌ كهذا يمكن أن يُواجه بخطابٍ يتحدث عن مواثيق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن وتوصيات محكمة العدل الدولية؟!!

على أن الدين يمنحنا فوق ذلك أمرًا ضروريا لهذه المعركة لا غنى عنه ولا بديل، وليس إلا الدين وحده القادر على منحنا إياه، ذلك هو الأمل..

لقد لاحظ إيريك هوفر عن حق أن اليهود الذين سيقوا إلى أفران الغاز والمذابح الجماعية دون مقاومة في ألمانيا النازية هم أنفسهم الذين قاتلوا بكل شراسة في فلسطين.. كثير منهم قُتِل قبل أن يرى أمله لكنه قاتل عليه، قاتل لأجل الأمل الذي في خياله، بينما قُتِل آخرون مستسلمين ولم يدافعوا عن الواقع الذي كانوا يمتلكونه بالفعل[٣]!

إن هذا الأمل هو ما أفزع جابوتنسكي، المنظر الأمني الإسرائيلي، الذي أقر بأنه لا مستقبل لإسرائيل طالما بقيت شرارة أمل واحدة لدى العرب، وبأنهم بهذه الشرارة من الأمل سيقاتلون لمنع فلسطين أن تتحول إلى إسرائيل، ولذلك بنى نظريته الأمنية التأسيسية بحيث تقضي تماما على الأمل لدى العرب والفلسطينيين، وذلك بأن تكون قدرة إسرائيل على الردع

(١) جيروزاليم بوست، بتاريخ ١٠ أغسطس ١٩٦٧م.

(٢) Menachem Begin, The Revolt, p. 335.

(٣) إيريك هوفر، المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية، ترجمة: غازي القصيبي، ط١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة، ٢٠١٠م)، ص١١٨، ١٣٠، ١٣١.

والعقاب والسبق: جارفة وكاسحة وسريعة ولا فرصة في الإفلات منها[1].

وفي الواقع، فلو كانت إسرائيل تواجه شعبا غير مسلم في نفس هذه الظروف، لكانت قد حققت نظريتها الأمنية بغير شك، لكن كيف يمكنها أن تفعل ذلك وهؤلاء الذين يقاتلونها يؤمنون ويعتقنون دينا يخبرهم أنهم سينتصرون لا محالة، وأنهم سيدخلون المسجد مرة أخرى، وسيدمرون المباني العالية التي بناها اليهود، وأنهم سيقاتلونهم قتالا سيساعدهم فيه الشجر والحجر؟!

إن القوة الدينية الإيمانية هي الوحيدة القادرة على تحطيم النظرية الأمنية الإسرائيلية، والوحيدة القادرة على كسر الفجوة التقنية الهائلة. فحتى العلماني والملحد الذي يخلص لقضية فلسطين لدوافع وطنية أو قومية أو حقوقية، سيجد أنه مضطر لاستعمال الوازع الديني في هذه المعركة، إذ لا وازع غيره قادر على أن يفعل مثل فعله!

☼ ☼ ☼

(٢)

يدل استقراء التاريخ على أن مصير بيت المقدس يتقرر خارجها لا داخلها، فهذه المدينة هي بمثابة القلب من الضلوع، وهي كالمؤشر والمعيار على قوة المسلمين، فبحسب قوة المسلمين ودولتهم وخلافتهم يكون وضعها، لا سيما العواصم القريبة المهمة في الشام ومصر، فبحسب ما يكون حال القاهرة ودمشق ينعكس هذا الحال على بيت المقدس.

لقد ذهب الصحابة إلى فتح دمشق قبل أن يذهبوا إلى فتح بيت المقدس، رغم أن بيت المقدس أقدس من الشام ورغم أنها أقرب منها جغرافيا، ولكن الصحابة عرفوا أن مركز القوة البيزنطية كان في العاصمة دمشق، فلما فُتِحت العاصمة (رجب ١٤هـ) سهل أن تُفتح بيت المقدس

---

(١) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٢٨.

(ربيع الآخر ١٦هـ)، وكان بين فتحي المدينتيْن حوالي العام ونصف العام.

ولم يقع احتلال بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى إلا حين انقسمت الأمة بين خلافتيْن: سنية في بغداد، وشيعية إسماعيلية في القاهرة، ووقع خط الانقسام في الشام، فكانت دمشق في حكم السلاجقة التابعين للخلافة السنية العباسية في بغداد، وكانت القاهرة تابعة للعبيديين (الفاطميين) الشيعة الإسماعيلية، ومن هنا سهل على الصليبيين انتزاعها (٤٩٢هـ).

ولم يتمكن المسلمون من تحرير بيت المقدس من الصليبيين إلا حين أعادوا وحدة مصر والشام، وهو العمل الذي سعى إليه عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين ثم صلاح الدين الأيوبي، فلما تمَّت وحدة مصر والشام، استغرق الأمر ثلاث سنوات بعدها ليتحرر بيت المقدس (رجب ٥٨٣هـ).

ثم لم يَحتل الصليبيون بيت المقدس مرة أخرى إلا حين وقع انقسام جديد بين الشام ومصر، حيث اختلف الأيوبيون الذين حكموا هذه الأنحاء، فتحالف الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر مع الصليبيين على أخيه الملك المعظم عيسى سلطان الشام، فسَلَّم الكامل بيت المقدس صلحا وسلما إلى فريدريك الثاني (٦٢٤هـ)، ثم تكرر الاحتلال مرة أخرى على يد الناصر داود (٦٤١هـ).

ولم يتحرر بيت المقدس إلا بعودة الاتحاد بين مصر والشام على يد نجم الدين أيوب (٦٤٢هـ). ثم بقيت بيت المقدس في أمان طالما كانت الشام ومصر بلدا واحدا لستة قرون في عهدي المماليك ثم العثمانين.

ثم لم يحتل بيت المقدس مرة أخرى (١٣٦٦هـ = ١٩١٧م) إلا بعد هزيمة الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وكانت القاهرة قد وقعت تحت الاحتلال (١٨٨٢م).

يصعب جدا، بل هو يصل إلى حد الاستحالة، بعد استقراء هذا التاريخ أن يقع في الظن إمكانية خرق هذه الحقائق الراسخة والحديث عن قدرة الفلسطينيين وحدهم على تحرير بيت المقدس. إن فلسطين لا تملك

من الرجال ولا من الموارد ما يمكنها من خوض معركة كبرى مع الصهاينة، فكيف إن كان أولئك الصهاينة مدعومين بقوة وشراسة من دول الغرب لكون الصهاينة جزءا من الهيمنة والاحتلال الغربي للبلاد الإسلامية؟!

وليس في هذا أي طعن أو انتقاص من قوة الفلسطينيين وبسالتهم، بل هم حتى هذه اللحظة قدَّموا ما يشبه المعجزة والأسطورة في صبرهم وكفاحهم وقدرتهم على التحمل ومواصلة الجهاد وإبقاء القضية حية رغم كل الخيانات التي عانوا منها. إنما هو استقراء لطبيعة الحل، وتحميل المسؤولية للأمة كلها، لا سيما أهل مصر والشام.

☼ ☼ ☼

(٣)

من أهم أسباب نجاح هرتزل في مشروع «الدولة اليهودية» أنه عمل على استثمار القوى الطبيعية القائمة في زمانه، ولم يحاول اصطناع قوة جديدة تعتمد على نفسها في تحقيق هذا المشروع، لقد كوَّن هرتزل المنظمة الصهيونية لكي يستطيع من خلالها التأثير في القوى الدولية القائمة بما يجعلهم يُوَظِّفون قوتهم في تنفيذ هذا المشروع الصهيوني، ولم يُكَوِّن هذه المنظمة الصهيونية لتتولى هي بنفسها عبء تحقيق هذا المشروع وإقامة هذه الدولة. لقد بذل جهدا ضخما لكي يتمكن هو ومنظمته من جعل القوى الدولية القائمة والموجودة تتحرك في مشروع الدولة الصهيونية، لا لكي تكون هذه المنظمة قوة جديدة مصطنعة تأخذ في العمل بنفسها على إقامة الدولة.

لقد احتاج الكثير من العمل والبذل ليتمكن من الوصول إلى صناع القرار، وإلى إقناعهم، بالمصالح أحيانا، وبالميول الدينية أحيانا، وبالاختراق أحيانا، وأحيانا أخرى بالتهديد والوعيد والتآمر وحتى الاغتيال، لكن الطريق كان واضحا أمامه للغاية؛ لن يحاول أن يصطدم بنفسه وباليهود بالقوى القائمة ـ بمن في ذلك العثمانيين ـ ولن يسمح بأن يظهر اليهود كمتمردين على الخلافة.

على العكس من ذلك، يعد من أهم أسباب إخفاق الحركات الإسلامية في هذا القرن الأخير هو معاندتها لهذه السنة في الأخذ بالأسباب ومناهضة القوى الطبيعية، فلقد حاولت الحركات الإسلامية صناعة تنظيمات قوية باختلاقها اختلاقا، وصناعتها صناعة، وليس تطويع القوى القائمة والموجودة بالفعل، على أساس أن تتولى هذه التنظيمات بنفسها خوض المعركة على الدولة، أو خوض معركة التحرير. ومن هنا واجهت هذه الحركات في مسيرتها معوقات كثيرة طبيعية، لم تستطع أن تتجاوزها أبدا، ومن هنا كان اختراقهم وضربهم أمرا سهلا ميسورا.

بل إن أفضل ما حققته الحركات الإسلامية من نتائج عبر هذا القرن كان حين عملت بهذا الأسلوب، فعملت على اختراق نظام الحكم (كما في تركيا) أو اختراق الجيش الذي هو شوكة الدولة (كما في السودان)، أو حين استطاعت الاعتماد على القبيلة والعشيرة في مجتمعات قبلية وعشائرية (كما في اليمن)[١].

ونحن لو تأملنا في سيرة النبي سنرى الأمر كذلك، فلم يصنع النبي تنظيما ينفرد بالأمر، ولم يسع أن يكون هو وصحابته طائفة منبتة الصلة، بل سعى في دعوة القوى الطبيعية القائمة في زمانه لتكون قوتهم قوة الدعوة، ولتكون شوكتهم شوكة الدولة، ولتكون أرضهم عاصمة الدين؛ فنراه يحرص إسلام زعماء مكة حرصا شديدا، حتى إذا تبين أنهم يصدون ولن يؤمنوا، التمس ذلك في الطائف وذهب إلى زعمائهم، فلما ردوه ردًّا قبيحا وسلطوا عليه سفهاءهم، طفق يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج يعرض عليهم الدعوة ويطلب منهم النصرة، حتى تهيأ له إسلام زعماء الأنصار، فانتقل إلى بلدهم، فكانت قوة الأنصار العصبية والنسبية والعشائرية هي قوة المسلمين.

---

(١) لاحظ أنني قلت «أفضل ما حققته الحركات الإسلامية من نتائج»، وليس معنى هذا أن النجاح كان حليفا لها، وعند التفصيل سنرى أن الإخفاق الذي حصل في اليمن ثم في السودان يعود لأسباب أخرى، ولكن التمكن الذي وصل إليه الإسلاميون في هذه التجارب لم يحالفهم في تجارب أخرى اعتمدت على قوة التنظيم وحده.

ما من شك في أن هرتزل كان سيفشل لو حاول أن يقيم دولة اليهود بالقوة الذاتية لتنظيم يهودي سري أو علني.

✡ ✡ ✡

(٤)

لن يخلو مجتمع من الخلافات بين أفراده وبعض الكُتَل فيه، ولا ينهض مجتمع إلا إذا استطاع زعماؤه إحسان استثمار هذه الخلافات الطَبْعيّة أو الفكرية فيما بينهم.

ومن أهم أسباب نجاح إسرائيل، لا سيما في مرحلة التأسيس، قدرة حاييم وايزمان وبن جوريون على الاستفادة من الخلافات الكائنة في صفوف الصهاينة، واحتوائها، ومن أمثلة هذا:

الخلاف الدائم بين شخصية بن جوريون وشخصية موشي شاريت، فالأول كان يُقدم على العمل الذي يراه نافعا لمصلحة إسرائيل على المدى الطويل ولا يأبه بالرأي العام ولا بما ستكتبه الصحافة، وأن التاريخ سيحكم على إسرائيل بما أنجزت لا بعدد المقالات التي أيدتها. بينما الدبلوماسي شاريت كان حفيا للغاية بصورة إسرائيل الإعلامية وبألا ترتكب ما يمكن أن يُخْجَل منه وبضرورة الاهتمام بالشكل الذي تصاغ فيه الأمور، ويرى أن المقياس الصحيح ليس حكم التاريخ بل حكم المعاصرين والرأي العام. ومع هذا الاختلاف المستمر إلا أنهما عملا معا ولم يفترقا إلا بعد قيام الدولة بسبع سنين[(١)]!!

كذلك فقد كانت عصابات الهاجاناه، التي هي النواة الأساسية للجيش الإسرائيلي فيما بعد، تشهد انشقاق مجموعات أكثر تطرفا مثل أرجون، ثم انشق عن الأرجون منظمة أكثر تطرفا هي شتيرن، ومع ذلك فقد كان بن جوريون قادرا على الاستفادة من هؤلاء المتطرفين جدا، وربما

---

(١) اعترافات جولدا مائير، ص٢١٩.

كان يدين أعمالهم أحيانا، وقد تعاونت الأرجون وشتيرن في مذبحة دير ياسين. وقد أسلفنا أن شتيرن وصلت في تطرفها إلى محاولة التعاون مع النازيين الألمان (الذين يضطهدون اليهود في ألمانيا) ضد الإنجليز في فلسطين! ثم إن أعضاء شتيرن نفذوا اغتيال الكونت برنادوت (مبعوث الأمم المتحدة) حتى اضطرت السلطة إلى سجنهم لفترة محدودة، ثم أفرج عنهم بعفو خاص! واستوعب الجيش الإسرائيلي محاربي شتيرن داخله، ومن لم يُستوعب مُنِح راتبا تقاعديا، وبعضهم مُنِح أوسمة تكريمية، وبعض أعضاء شتيرن وصل إلى رئاسة الوزراء مثل إسحاق شامير. واعتاد الساسة الإسرائيليون على إحياء ذكرى مقتل شتيرن كل عام، وأصدروا طابعا بريديا تكريما لذكراه.

والحركة الصهيونية كسائر الحركات البشرية الأخرى، وقع فيها اختلافات وصلت حد الانشقاقات والانقلابات، والاغتيالات أيضا[1]، ففيها من دخلها وهو يريد أن تكون عودة يهودية إلى فلسطين ضمن دولة قائمة لا أنها دولة متمايزة منفصلة، فضلا عن أن تكون قاعدة استعمارية ووسيلة هيمنة غربية، يتعايش اليهود فيها مع العرب مثلما كان الحال في مناطق أخرى عديدة[2]، وفيها من دخلها وهو يعي ويستوعب أنها عودة كاسحة إحلالية تطرد الأهالي وتستولي على الأرض، ولا تكتفي فقط بفلسطين ـ المعروفة الآن ـ بل لا بد أن تضم إليها شرق الأردن أيضا، وتلك النزعة عبر عنها الحزب الذي ترأسه المنظر الشهير جابوتنسكي[3]، وهو مؤسس نظرية الردع السريع التي هي جوهر المنظومة الأمنية الإسرائيلية حتى الآن، وقد كان معارضا للوكالة اليهودية لاكتفائها بحدود فلسطين الحالية.

لقد أخبرنا الله تعالى بأن من صفات اليهود ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ

(١) ينظر مثلا: مذكرات أريل شارون، ص٢٩، ٣٠.
(٢) ينظر مثلا: جارودي، الأساطير المؤسسة، ص٢٩ وما بعدها.
(٣) جزء من خطاب جابوتنسكي أمام المؤتمر الصهيوني السادس عشر (١٩٢٩م)، ينظر: ملف وثائق فلسطين، ٤١١/١.

تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]، وهذه الصفة فيهم تدل على حرصهم أن يظهروا صفا واحدا مجتمعين مع أن قلوبهم شتى ورغم أن البأس بينهم شديد! وقد أخبرنا الله أنهم كانوا في الجاهلية وإن تقاتلوا وتقسَّمتهم التحالفات السياسية، إذا وضعت الحرب سعى اليهود في فداء الأسرى اليهود حتى ممن قاتلوهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ٨٥].

وهذا واحدٌ من أسباب استمرارهم كتلة غير ذائبة، حتى برغم التاريخ الطويل الذي عاشوه ممزقين، وعاشوا فيه منبوذين، كما قال تعالى ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

☼ ☼ ☼

(٥)

لقد وقع لليهود في أزمنة يأسهم واستضعافهم واضطهادهم ذات ما يقع الآن لبعض المسلمين من اليأس والإحباط وفقدان الأمل، واتهام الذات بالكسل والغباء والسلبية، وسخر بعضهم من فكرة انتظار المسيح المخلص، بل سخر بعضهم من فكرة التعلق بفلسطين والتشوق إلى العودة إليها، وطفق يبحث عن الحل في استقلال ذاتي يكون بمبادرة من وجهاء اليهود وأعيانهم، وأن يكون ذلك الاستقلال في أي مكان متاح وليس في فلسطين التي يصعب الحصول عليها[١]!

وقد نشر ليون بنسكر هذا الكلام عام (١٨٨٢م)، في الوقت الذي كانت تتضافر كثير من العوامل والخطط والمشاريع لتوطين اليهود في فلسطين، وفي نفس هذا العام احتلت بريطانيا بالفعل مصر، أي أن الحلم في ذلك الوقت كان أقرب ما يكون!

---

(١) انظر مثلا: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص٩٧، ١١٩.

أسوق هذا المثال الآن لكي أقول إن مظاهر جلد الذات، والحديث عن تجديد الخطاب الديني، والبحث عن حلول متاحة بدلا من الآمال المحلقة، وسائر ما يقال في بيئتنا الإسلامية.. سائر هذه المظاهر ليست إلا تعبيرا عن الشعور بالضعف والعجز والخيبة، وقد يكون النصر قريبا للغاية ولا يشعر به من انهزمت نفسه فأضحى يفكر بهذه الطريقة.

ولم يكن قائل هذا الكلام خاملا ويائسا، بل هو أحد مؤسسي جمعيات أحباء صهيون، وهو واضع أساسها الفكري ورئيس جمعياتها بالانتخاب، لكنه كان وكانت حركته واحدة من المحاولات التي لم تنجح في هدفها النهائي آخر الأمر، ولكنها أيضا ساهمت في إحياء الشعور اليهودي وتوجيهه نحو فلسطين[(١)]، فما أشبهها الآن بجماعة إسلامية قامت وكافحت ثم انتهت قبل أن تصل إلى هدفها النهائي، فكانت لبنة في البناء ومرحلة مهمة في الطريق.

ولقد كان لبعض اليهود تنبؤات أيضا كثيرة بموعد عودتهم إلى فلسطين، وقد أخفق أكثرها[(٢)]، فالتنبؤات أيضا ومنهج حساب السنين والأيام عبر الإشارات الواردة في التراث وغيره هو ذاته منهج يسود لدى المستضعفين الآملين في النصر[(٣)]!

وقد وُجِد في الحركة الصهيونية نفسها، وفي زعمائها، من عصفت به المواقف حتى صار عميلا للأنظمة الحاكمة، ومن الأمثلة الفارقة أن الزعيم الصهيوني ألفريد نوسيج، وقد كان ممن فاوض طلعت باشا على أوضاع اليهود في فلسطين (١٩١٨م)، قد عمل لحساب النظام الألماني النازي

---

(١) ينظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٨٣/١، ٨٤.

(٢) ينظر مثلا: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٠٠.

(٣) ينظر في نبوءات المسلمين الأندلسيين بعد سقوط الأندلس: لوي كاردياك؛ الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون: المجابهة الجدلية، ترجمة: د. عبد الجليل التميمي، (تونس ـ الجزائر: المجلة التاريخية المغربية ـ ديوان المطبوعات الجزائرية، ١٩٨٣م)، ص٧٥؛ محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ٢٣١/١ وما بعدها.

ووضع خطةً لإبادة اليهود في أوروبا فيما بعد[١].

يجب على أمة الإسلام أن تؤمن بأنه إن كان القوم المنبوذون المغضوب عليهم قد نجحوا في حلم بدا مستحيلا لثلاثة آلاف سنة، ثم هم لم ينجحوا إلا بحبل من الناس. فيجب إذن أن نؤمن بأن قدرتنا على النصر والتمكين أقرب بكثير، كيف ونحن الموعودون بالنصر والظفر، ونحن الأمة المختارة المصطفاة التي أورثت الكتاب بعد أن فرط فيه هؤلاء؟!

خلاصات في الوضع الدولي والإقليمي

إذا وضعنا أمامنا صفحة التاريخ الفلسطيني، وأحببنا أن نفهم منها طبيعة الوضع الدولي والإقليمي، فأحسب أن أهم ما سنخرج به هو الآتي:

☼ ☼ ☼

(١)

كثر اختلاف الناس في موضوع: من المتحكم بالآخر ومن المهيمن على الآخر: اليهود والصهيونية يتحكمون في الغرب وسياسته ويهيمنون عليه؟ أم الغرب هو اليد العليا التي استعملت اليهود والصهاينة في تحقيق أهدافهم الاستعمارية والاحتلالية، فأسسوا إسرائيل لتكون بمثابة قاعدة عسكرية غربية قائمة في بلاد المسلمين، وليكون اليهود هم المادة الاستعمالية البشرية الرخيصة التي يُضَحَّى بها في هذه المعارك توفيرا للغربيين البيض المسيحيين؟

يقول الأولون: إن اليهود بما أسسوه من منظمات سرية وبما لهم من هيمنة مالية وتغلغل في مجالات الإعلام والفن والثقافة، وبما يبيحونه لأنفسهم من استعمال الوسائل الخسيسة تمكنوا من تملك زمام أمور السياسة الغربية بالجنس والمال والكذب والغدر والمؤامرات. ويقول الآخرون: الغربيون ليسوا سذجا ولا هم أغبياء، ولقد عاش اليهود بينهم

---

(١) المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٤٣/٦.

قرونا فما استطاع اليهود بكل وسائلهم هذه أن يبلغوا شيئا وظلوا منبوذين مضطهدين، وإنما توافقت الرغبات، فوضع الغربيون قوتهم في سبيل تمكين الصهاينة ودولتهم لا خضوعا للصهاينة بل استعمالا لهم، فهم اليد العليا، وما كانت قوة اليهود لتبلغ شيئا لولا الدعم الغربي الذي مهَّد لإسرائيل وأنشأها ولا يزال يدعمها ويحميها ويُهرع إليها.

وأنا ممن يميل إلى هذا الرأي الأخير، فالغرب هو اليد العليا التي استعملت الصهاينة ووظَّفتهم في أهدافهم الاستعمارية[١]، والغرب هم الذين استعملوا الصهاينة أكثر مما استعملهم الصهاينة، ولا تزال أمريكا هي اليد العليا القادرة على التحكم في إسرائيل وضبط سياستها وإيقافها إذا شاءت.

ليس هنا موضع بسط الأدلة على هذا من وقائع السياسة والتاريخ، غير أني وجدتُ في كتاب الله ما يؤيد هذا القول، وذلك قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فقد ذكر بعض المفسرين أنهم النصارى والروم سيكونون فوق الذين كفروا بعيسى (وهم اليهود) إلى يوم القيامة[٢]. وكذلك دليل آخر في قوله تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

(١) ينظر: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ٣٤٧/٧، ٣٩/٨.

(٢) وقد راجعت جملة من تفاسير هذه الآية، فوجدت من المفسرين من صرح بأن المعنى هو أن النصارى (وبعضهم قال: الروم) فوق اليهود كما قاله عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره. وخلاصة خلاف المفسرين كالآتي: فمنهم من فهم الفوقية معنوية بمعنى العلو بالحجة والبرهان واتباع الحق وهذا بعيد مخالف للسياق. ومنهم من جعلها مادية بمعنى الغلبة في الدنيا وهذا هو الأقرب والأرجح. والذين قالوا بالغلبة والنصر جعلوا المقصودين بالعلو هم المؤمنين بالإسلام، ومنهم من جعل المقصودين هم المؤمنين بعيسى من المسلمين والنصارى وهذا أيضا بعيد لأن الخطاب هنا خطاب لعيسى وما كان محمد قد بُعث ولا أمته قد خُلقت. غير أنه قول متفهم إذ قد ظل الإسلام غالبا على اليهود طوال القرون الماضية إلا في هذا القرن الأخير فحسب، فلا عجب أن يظن المفسِّر أن المقصود بالغبة هم المسلمون وهم أيضا أتباع عيسى، ولكن ما طرأ على المسلمين من الضعف واستعلاء اليهود عليهم، =

﴿ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فإن هذا الوصف بالذلة وإن وجود حبل الناس ودعمهم ومددهم يمنع أن يكون اليهود هم اليد العليا في أي زمن.

وبعيدا عن هذا الخلاف وحسمه فإن المقصود المهم هنا أن الغرب لن يفرط أبدا أبدا في إسرائيل، ولن يكف عن دعمها وحمايتها والنهوض لأجلها بالسياسة وبالحرب معا؛ سواءٌ في ذلك منهم من كان نصرانيا إنجيليا يحب اليهود بدافع من عقيدته، أو من كان نصرانيا يبغضهم ويراهم قتلة المسيح فهو يراهم والمسلمين عدوّيْن يضرب بعضهم بعضا، أو من كان علمانيا يرى أنه بحفظه لإسرائيل يقيم للغرب مصالحه الدنيوية ويحقق له أغراضه الاستعمارية(١).

وهذا يفسر كيف أن الغرب، ودوله الكبرى، تحمل من الصهاينة ما لا يمكن احتماله من أي طرف آخر، فقد قاتل الصهاينة البريطانيين في فلسطين منذ الأربعينات، ونفذوا سلسلة من الهجمات والتفجيرات والاغتيالات راح ضحيتها عشرات الجنود والضباط الإنجليز، ومع ذلك ابتلعت بريطانيا هذا كله وسلَّمت لهم فلسطين(٢). وكذلك تعددت الحوادث التي يقبض فيها على جواسيس تابعين لإسرائيليين في صفوف المخابرات

= يجعل التفسير الأرجح هو تفسير من قال بأنهم المؤمنين بعيسى من النصارى والروم كما قاله ابن زيد وغيره.

ينظر مثلا: الطبري، تفسير الطبري، تحقيق: محمود شاكر وأحمد شاكر، ط١ (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م)، ٤٦٣/٦؛ ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد الطيب، ط٣ (السعودية: مكتبة نزار مصطفى، ١٤١٩هـ)؛ ٦٦٢/٢؛ المحلي والسيوطي، الثعلبي، تفسير الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م)، ٨٣/٣؛ تفسير الجلالين، ص٧٤؛ مجموعة، موسوعة التفسير بالمأثور، إشراف: د. مساعد الطيار، ط١ (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠١٧م)، ٢٤٥/٥، ٢٤٦.

(١) ينظر: جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص١٦.

(٢) ينظر مثلا: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٤٢؛ رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٧٩، ٨٠؛ يوجين روجان، العرب، ص٣١٥ وما بعدها.

الأمريكية، وكثيرا ما أهين الرئيس الأمريكي ورجال إدارته على لسان الساسة الصهاينة وبأفعالهم، وجرى امتصاص هذا كله كأنما لم يكن[١].

إضافة إلى ذلك فإن نموذج إسرائيل كدولة دينية يهودية عِرْقية هو النموذج المناقض والمخالف لمبادئ الغرب التي قامت عليها الدول هناك، فالغرب أسس دوله على المبدأ العلماني غير الديني، وعلى الانفتاح الليبرالي المنافي للعنصرية والعِرقية، وعلى منطق الدولة الويستفالية ذات السيادة على حدودها وهو المنطق المنافي لدولة لا ترسم ولا تريد أن ترسم حدودها بل وتعلن عن مطامعها الاستعمارية التوسعية (من النيل إلى الفرات). ومع كل هذه المناقضة فإن الغرب كان حليف إسرائيل، وكان عدوا لحركة فتح ومنظمة التحرير والسلطة الفلسطينية التي اتفقت مع كل هذا المنطق الغربي: العلماني الليبرالي الذي يريد دولة مواطنة منفتحة ومتعددة الأعراق والأديان وذات حدود مرسومة! ولا يأنف المسؤول الغربي أن يذكر هذا التناقض ثم يلتمس ـ أو حتى لا يلتمس ـ أي تبرير لنفسه ودولته، بل حتى المذابح الدموية الواضحة جرى تبريرها بأنها كانت ضرورية[٢].

إنَّ فَهْمَ هذا فارقٌ جدا جدا في تصور قوة المعركة وشراستها وحدودها، فأن تكون إسرائيل مشروعا يهوديا هو شيء، وأن تكون مشروعا احتلاليا صليبيا غربيا فوق كونه يهوديا صهيونيا هو شيء آخر تماما. إن الصهيونية الصليبية عقيدة متجذرة وراسخة بقوة في طيف واسع من النخبة

---

(١) هيلاري كلينتون، خيارات صعبة، ص٣١٣، ٣١٤؛ روبرت جيتس، الواجب، ص٤٦٠، ٤٦٩.

(٢) ينظر مثلا: كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف، ص٧٦، ٧٧، ٣٢٨، ٣٢٩؛ هيلاري كلينتون، خيارات صعبة، ص٢٩٩ وما بعدها وقارن ص٢٣؛ هنري كيسنجر، النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، ترجمة: د. فاضل جتكر، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٥م)، ص١٣٢، ١٣٥؛ جورج تينيت، في قلب العاصفة، ص١١١.

الغربية: السياسية والثقافية والاقتصادية، والصهيونية هي نسخة جديدة من الحملات الصليبية في القرون الوسطى.

يفيدنا هذا في التخلص من الوهم الذي يسود كثيرا من الناس في أن الغربيين يحتاجون إلى إقناعهم بعدالة القضية، وأن المشكلة في أن كثيرا منهم «لا يعرفون حقيقة الأوضاع»، أو أن الغربيين يمكن أن ينفعلوا مستجيبين إذا عرضت القضية من مدخل حقوق الإنسان أو حق الشعب في تقرير مصيره أو احترام القانون الدولي أو غير ذلك. إن القوم يستوعبون تماما ويعتنقون عقيدة تقول بأن هذه الأرض هي أرض اليهود التي كتبها الله لهم وقد أعادهم إليها، ليزيلوا عنها هؤلاء العرب الذين سكنوها في لحظة سيئة من التاريخ أو بتعبير أحدهم «لطخة في جبين الحضارة»[١]، وأن اليهود ـ ومن ورائهم الصليبيون ـ أمام مهمة رسالية في تعمير هذه الأرض وإعادتها إلى حوزة الرب وطرد هؤلاء العرب الأشرار منها.

ويفيد هذا أيضا في تصور العوامل المؤثرة في المعركة وفي حجم الجهد المالي والبشري التي تتطلبها المعركة. وإن من الخرافات والأوهام التي سادت لفترة من الزمن في صفوف أهل فلسطين، ولا تزال سارية لدى بعضهم حتى لحظة كتابة هذه السطور، أنه بإمكانهم وحدهم تحرير فلسطين، بل بالغ بعضهم وغرَّته نفسه ولحظة نشوة مرَّت عليه فطمح إلى أنه بعد تحرير فلسطين سيحرر البلاد الأخرى!! وبعض الذين قالوا بهذا أفاضل غفلوا في سكرة بعض الانتصارات الصغيرة عن حقيقة الحال وعن أعماق المعركة وشراستها.

لا يمكن المقارنة في هذه الحالة بالمثال الجزائري الذي ألهم في سنة (١٩٦٢م) نموذج المقاومة الفلسطينية باعتباره نموذجا ناجحا لبلد استطاع أن يستقل بنفسه، فثمة العديد من الفوارق المؤثرة في الحالتيْن، من أهمها: أن فرنسا كانت بلدا شائخا خرج مهزوما من الحرب العالمية

(١) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص١٤٥. والقائل هو السناتور الجمهوري الأمريكي هنري كابوت لودج، وذلك في يونيو من عام ١٩٢٢م.

الثانية وهو يغادر مستعمراته تحت الضغط الأمريكي والسوفيتي، وهو ما لا يُقارن بوضع إسرائيل المتمتعة بدعم غربي كاسح، ومنها أيضا: أن عدد الجزائريين واتساع بلادهم وأوضاعها الجغرافية وما فيها من الموارد هو أفضل بما لا يقارن بوضع فلسطين في مواردها المالية والبشرية، ومنها أيضا: أن الجغرافيا السياسية المحيطة بالجزائر إن لم تكن داعمة فقد كانت ساكنة أو محايدة، بخلاف الجغرافيا السياسية المحيطة بفلسطين فهي متآمرة عليها داعمة لعدوها بكل جهدها.

لقد تكرر التصريح من أفواه عدد من القادة الغربيين، حتى من يعارضون بعضهم[١]، أن إسرائيل هي بمثابة مصلحة حيوية للغرب، وأنه لولاها لكان الغرب قد أنفق ما لا يمكن تصوره من الأموال والأرواح لإقامة قواعد عسكرية في الشرق الأوسط. ولهذا نرى تأييد الصهيونية قبل أن تنشأ إسرائيل ثم تأييد إسرائيل بعد نشأتها خطًّا ثابتا لدى الساسة الغربيين بمن في ذلك الأحزاب المتنافسة: كالديمقراطي والجمهوري في أمريكا، والأحرار والمحافظين في بريطانيا. ولقد امتنَّ نتنياهو نفسه بهذا الأمر على الأمريكان، وسجل في مذكراته أن أحد النواب الأمريكان قال له: «لو كان لدينا إسرائيل في أفغانستان، لوفرنا على أنفسنا تريليون دولار، ولصار لدينا حليف حقيقي ضد الأشرار»[٢]. وهذا هو النجاح الحقيقي لرؤية هرتزل الذي كتب قبل أكثر من قرن أن الدولة اليهودية «ستكون جزءا من جدار دفاعي عن أوروبا في آسيا»[٣]. ومن هنا قدَّر بعض الخبراء أن الصراع العالمي كله متلخص في الصراع في فلسطين[٤].

(١) من اللافت للنظر هنا أن هذه العبارة المذكورة قالها كل من العدوين اللدودين من رؤوساء أمريكا: ترمب وبايدن.

(٢) Netanyah, BIBI: My Story, p. 599.

(٣) رشيد الخالدي، حرب المائة عام، ص٢٣.

(٤) يرى د. جمال حمدان أن الصراع العالمي ومصير الإمبريالية متوقف على مصير العالم الثالث، وأن مصير العالم الثالث متوقف على مصير العالم العربي، وأن مصير العالم العربي متوقف على مصير الصراع مع إسرائيل. جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م)، ص٣٥١.

لا يعني هذا أن اليهود أو الصهيونية عملاء للغرب كالموظفين الذين يسمعون ويطيعون، بل على العكس، هم قوم أصحاب فكرة ومشروع ولهم استقلالية، ويعملون على التمكين لدولتهم وعلى توسيع نفوذهم وعلى تحقيق مزيد من الاختراق والتطويع للقوى الغربية. إنما المعنى المقصود أن اليد العليا في هذه العلاقة هي للغرب لا للصهاينة، وأن كافة ما يحصل بين الطرفين من خلافات يجري احتواؤها ضمن تعاونهم في الأغراض الكبرى.

إن فهم هذه الخلاصة يؤدي بنا إلى الخلاصة التالية:

(٢)

إذا كانت إسرائيل جزءا من مشروع الهيمنة الغربية في بلادنا، بل هي أهم أجزائه، فمن البديهي والمنطقي الذي يمكن استنتاجه عقلا بغير ذهاب إلى البحث عن أدلته في وقائع السياسة والتاريخ، أن تكون الأنظمة العربية القائمة، هي جزء من هذا المشروع الغربي نفسه، سواءٌ في خدمة المصالح الغربية مباشرة أو في خدمة أهم أجزاء هذا المشروع وهو: إسرائيل.

وأول من فهم هذا المطلوب هم الأنظمة العربية ذاتها، فبذل كل طامح في الحكم ما استطاع من الجهود لكي يكون جديرا بالحكم من خلال قدرته على خدمة المصالح الغربية ومن أهمها: تأمين إسرائيل. ورغم الخلافات الحادة بين هذه الأنظمة العربية وتنوعها بين ملكية وجمهورية، وبين شيوعية ورأسمالية، وبين مدنية وعسكرية، إلا أن الاتفاق واقع بينهم على القيام بالدور المطلوب في حماية إسرائيل. بل إن التنافس الذي يجري بين أجنحة الحكم والنافذين فيه يدفع ببعضهم لعرض نفسه باعتباره الذي سيحقق مزيدا من تطبيع العلاقات مع إسرائيل وتدشين المزيد من الانفتاح معها. وحين يتهدد نظام حكم من هذه النُظم، لا سيما دول الطوق، فهو يحذر ويندد بأن سقوطه سيكون كارثة على إسرائيل.

لهذا، سنرى بوضوح أنه منذ نشأت إسرائيل، لم تبادر دولة عربية بمهاجمتها أبدا، بل ولا أعدت حتى خطة لتحرير فلسطين، لا على سبيل

نخوة الدين ولا على سبيل كرامة العروبة، ولا حتى على سبيل المصلحة النفعية التي تحرك الأنظمة العلمانية وهي اجتثاث هذا الخطر الكبير الذي يهدد الأمن القومي!! مع أن هذه الأنظمة طالما تشدقت وحكمت باسم الإسلام وباسم العروبة وفي أضيق أحوالها باسم الأمن القومي والحفاظ على الوطن!!

ومن المشهور ما قاله جمال عبد الناصر أمام المجلس الوطني الفلسطيني في غزة: يكذب من يقول لكم إن لديه خطة لتحرير فلسطين، وإذا قلتُ أنا إن لدي مخططا لتحرير فلسطين فإني أكذب عليكم[١].

أكثر من ذلك، أن هذه الدول لم تسمح لمن أراد المقاومة أن يقاوم، بل جهدت جهدها وبذلت وسعها في مطاردة من يقاوم إسرائيل ومعاقبته بالسجن أو القتل أو العذاب الشديد! وقد فعلت ذلك في أزمنة الحرب ثم في أزمنة السلام أيضا!! ولقي الذين جاهدوا في فلسطين ـ أو حاولوا ـ في سجون هذه الأنظمة ما تشيب لهوله الولدان.

بل إن متابعة تاريخ فلسطين يوصلنا إلى نتيجة دقيقة أخرى؛ وهي أن المقاومة الفلسطينية لم تستطع أن تبرز ولا أن تعمل إلا في ظل الأنظمة التي كانت ضعيفة، فأما الأنظمة القوية فلم تستطع المقاومة قط أن تعمل من أرضها. وإذن، فالأنظمة القوية لا هي حاربت ولا حتى عزمت أو دبَّرت لحرب تحرير فلسطين (مثل مصر وسوريا)، وأما الأنظمة الضعيفة التي عملت المقاومة من أرضها لفترة مثل الأردن ولبنان فقد جاءتها الأمداد حتى قويت فحاربت المقاومة الفلسطينية وطردتها، كما في الأردن (١٩٧٠م) ثم في لبنان (١٩٨٢م).

لقد اختصر بعضهم حالة الأنظمة مع هذه القضية بقوله: «كل الثورات التي ولدت في فلسطين تم إجهاضها في العواصم العربية»[٢].

---

(١) أحمد منصور، أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة، ص٦١؛ أحمد جبريل، ذاكرة الثورة، ص٥٧.

(٢) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص١٣، ٦٥.

خلاصات في وضع المقاومة

إذا قُدِّر لي أن أعظ أهل المقاومة بشيء، أو عرفت أنهم يقرؤون ما أكتب، فسيكون أول ما سأحرص على إقناعهم به هو هذه الخلاصات:

(١)

إذا تتبعنا سيرة وتاريخ فلسطين وبيت المقدس فسنرى أنها ضاعت حين ضاعت العواصم القوية: القاهرة ودمشق وإسطنبول، وأنها كانت في عافية وأمن وازدهار حين كانت تلك العواصم في قوة وعافية. وإذا تتبعنا سيرة إسرائيل وجدناها قد نشأت حين قررت العواصم القوية في لندن وواشنطن وموسكو إنشاءها، وما يشك أحدٌ أنه إذا توقف الدعم الغربي عن إسرائيل لسقطت إما من تلقاء نفسها وإما باليسير من الدفع والمقاومة.

وهذا يجعل من انحصار عمل المقاومة في داخل فلسطين أمرًا يستحق المراجعة، حتى لو تفهمنا الأسباب التي دفعت إليه في حقبة ما، والتي كانت قائمة على ظنون قد تكشف أنها كانت أوهاما، وهي الظنون التي كانت ترى في الأنظمة العربية إخلاصا لقضية العروبة أو حتى قضاياها الوطنية.

إن مفاتيح تحرير بيت المقدس موجودة في القاهرة وعمَّان ودمشق، وإن تغيير الأنظمة في هذه العواصم كفيلٌ بقلب ميزان المعركة تماما، وما من أمل في أنه يمكن الوصول إلى تحرير فلسطين في ظل بقاء هذه الأنظمة.

لقد ذكرنا أن الحركة الإسلامية وقعت في خطأ تاريخي حين تخلت عن الانخراط في الجهاد، واعتنقت فكرة تقول: العمل على إنشاء الدولة الإسلامية، وهي التي تتولى تحرير فلسطين. وهو الأمر الذي كانت له أسبابه التي أوردناها، وتسبب في تفويت فرص نفسية للغاية، بل تسبب في هجرة الأعضاء النشطين ليكونوا حركات مقاومة علمانية ووطنية مثل حركة فتح، رأت أنه بالإمكان العمل على تحرير فلسطين قبل انتظار توحد الدول العربية! وقد ذكرنا أن هذه الفكرة لم تكن فكرة الإسلاميين وحدهم بل

اعتنقتها كذلك الأحزاب القومية التي كانت ترى أن توحد العرب يسبق تحرير فلسطين!

نعم، لقد صححت الحركة الإسلامية هذا الطريق، وانطلقت مع بداية الثمانينات، وانخرطت في معركة التحرير قبل أن تنتظر قيام الدولة الإسلامية، ولكن ليس معنى هذا أن الفكرة الأولى (القائلة بعجز أهل فلسطين وحدهم عن تحرير فلسطين) خاطئة وغير صحيحة. بل هي صحيحة، ولكن جهاد الدفع لا ينتظر تحقق هذا التوحد، بل لا بد فيه من البذل والعمل، وهذا البذل والعمل هو الذي يسوق ويحفز ويقرب الوصول إلى إقامة الدولة الإسلامية. ولو أننا تصورنا أن الحركة الإسلامية ظلت تعتنق هذا المبدأ ولم تتشكل حركات مثل حماس والجهاد، لكانت النتيجة الآن أكثر بؤسا وتعاسة بما لا يوصف ولا يُتَخَيَّل، بل لعلنا الآن كنا نحاول مكافحة إسرائيل وقد تمددت من النيل إلى الفرات!

نعم، لقد صححت الحركة الإسلامية وجهتها ولم ترض بالقعود والانتظار ونهضت في معركة غير متكافئة وحققت فيها ما استطاعت، وهو مذهل بالنسبة إلى إمكانياتها وفارق موازين القوة. لكن يجب أيضا أن نتذكر أن الحركة الوطنية التي توهمت أنها قادرة على التحرير وحدها، وغَرَّها نموذج الجزائر، وأقصد هنا: حركة فتح، قد تراجعت عن هذه الفكرة، وأيقن رجالها الذين خاضوا التجربة أن الأنظمة العربية عقبة حقيقية أمام التحرير، وقد ذكر صلاح خلف أن المقاومة الفلسطينية أخطر على هذه الأنظمة العربية منها على إسرائيل، وشبَّهها بالرجل الذي هزَّ شجرة البرتقال لتسقط الثمرة، فإذا بهزّته للشجرة تُسْقِط قبل الثمرة المرجوة الثمرات الأخرى الفاسدة! فالثمرة المرجوة هي إسرائيل، والثمرات الفاسدة هي الأنظمة العربية التي ستسقط قبل سقوط إسرائيل[(١)].

☼ ☼ ☼

(١) صلاح خلف، فلسطيني بلا هوية، ص٦.

(٢)

إن الوصول إلى السلطة واجب لا مفر منه، إن بالانتخابات أو بغيرها، في فلسطين نفسها أو في غيرها من العواصم العربية والإسلامية.

لقد نَظَّمت المقاومة، وأكثر الحركات الإسلامية، نفسها على أساس كونها حركات مقاومة أو جماعات دعوية، ثم سارت الأحداث بما اضطر حركة حماس إلى دخول انتخابات (٢٠٠٦م)، والحمد لله أنها دخلت، فلو لم تفعل لكانت القضية قد صُفِّيت بيد محمود عباس، ثم لكانت هذه الحركات نفسها قد صُفِّيت بسيف القانون وباسم السلطة الشرعية الرسمية التي اختارها الشعب الفلسطيني والمدعومة من الدول الإقليمية والدولية. ولكنها لما دخلت استطاعت أن تعرقل تصفية القضية، ولما أريد خيانتها استطاعت استعمال سلاحها في وجه من أراد الغدر بها، فاستقلت بغزة، وبهذا الاستقلال تحولت غزة إلى قلعة مقاومة عنيدة وعظيمة رغم ظروفها العسيرة العنيفة!

إن الانتخابات هي ثقافة هذا العصر التي تسبغ الشرعية على الطرف الفائز، لا سيما إن كانت الانتخابات نزيهة، وفكرة الشرعية أمر في غاية الخطورة ويجب ألا يُهَوَّن أبدًا من أهميتها وضرورتها. وأيما حركة إسلامية أو حركة مقاومة لم تنهض لتصل إلى السلطة بالسبيل المتاح، أو بحفره السبيل ليكون متاحا، فهي تحكم على نفسها بالإعدام على المدى القريب أو الوسيط، وهذا إن ثبتت على مبدئها ومنهجها الأصيل وهو قليل في طباع البشر والحركات، فأما الأغلب والأعم والأشهر فهو أن الحركة نفسها تنحرف وتنكمش وتؤصل هذا الانحراف بتأويلات وتخييلات وتهويمات شرعية، قبل أن تفنى من تلقاء نفسها بزيادة العجز أو تفنى بالتحاقها بركب الغالب عليها رغبا أو رهبا!

ومن المفيد هنا المقارنة بين الحالَيْن في غزة وفي الضفة؛ حيث كانت الحركة الإسلامية تتولى السلطة في غزة، وحيث كانت مقهورة في الضفة؛ في غزة يفكرون في تطوير الصواريخ وتحرير الأرض، وفي الضفة

غاية ما يتمنى المقاوم أن ينجح في تنفيذ عملية طعن أو دهس سيقتل بعدها!

كذلك من المفيد المقارنة بين العام الذهبي الذي حكمه مرسي في مصر، مع أنه لم يقبض إلا قليلا على أزمة الحكم، وبين الحال في زمن مبارك قبله وزمن السيسي بعده، لنرى كيف أن السلطة الضعيفة المهزوزة بيد إسلامي أحسن بما لا يُقارن بحال السلطة في يد أي حاكم آخر!

☼ ☼ ☼

(٣)

لا ريب في أن إحدى المشكلات العميقة التي أثرت على مسار المقاومة الفلسطينية منذ عهد الاحتلال الإنجليزي هي الخلافات الداخلية التي لم يمكن السيطرة عليها بين القيادات الفلسطينية، وهي خلافات عمل الاحتلال على تغذيتها منذ ذلك الوقت، وكذلك عملت الأنظمة العربية عليها. ثم لا ريب أيضا في أن هذه الخلافات استنزفت كثيرا من الوقت والجهد والطاقة. ومع ذلك، يجب ألا ننسى أيضا أن القضية لم تقفز قفزة حقيقية إلا حين نفذت الحسم العسكري في غزة وتخلصت من السلطة الفلسطينية التي كانت بمثابة جيش آخر خائن يطعن في قلب المقاومة، بل هو لطبيعته وأصله وخبرته المحلية قد استطاع أمورا لم يستطعها الاحتلال الإسرائيلي نفسه.

إن من المعارك الخطيرة لأية حركة مقاومة أن توازن بين أمريْن، الموازنة بينهما صعبة للغاية، بين وحدة الصف فإن لم يكن فإحسان إدارة الخلافات والسيطرة عليها. وبين مكافحة العملاء ومشاريع العمالة التي تتغطى بالخلاف وتمارس المزايدة. وأمور الموازنات عادة لا يحسن فيها اتخاذ منهج ثابت، بل لا بد فيها من المرونة والتصرف السريع وفق الحال.

ولئن كان ثمة ما ينتقد على حركة حماس فهو أنها اتخذت منهج السكوت الدائم والامتصاص الدائم لجرائم حركة فتح، وحتى هذا الحسم

العسكري المبارك إنما كان قرارا ميدانيا لا قرارا سياسيا، ولا يزال النهج المعتمد تجاه فتح والسلطة هو هذا التفاهم والامتصاص، والذي أحسب أنه فَوَّت فرصا كثيرة كان يمكن فيها كسر شرعية هذه السلطة وإحراجها والضغط على نقاط ضعفها وفضحها، وربما أحيانا: مواجهتها في الضفة الغربية.

وقد استفادت السلطة، ومن ورائها العملاء المتغطون بالانتساب لحركة فتح، من هذا النهج كثيرا، مع أنها لم تقصر أبدا في تعقب المقاومين وقتلهم وتعذيبهم، وقد أظهرت أكلح الوجوه وأسوأ الطبائع وأخبث الأخلاق في معركة طوفان الأقصى المستمرة تسعة أشهر، حتى لحظة كتابة هذه السطور.

وما يُقال في التعامل مع حركة فتح، يقال مثله في التعامل مع الأنظمة العربية[١]؛ فما من ريب في أن اتخاذ نهج يتجنب معاداة الأنظمة العربية، ويتجنب الدخول في شؤونها الداخلية قد وَفَّر على الحركة كثيرا من المشكلات، وكان في ذلك استفادة من تجربة حركة فتح ومنظمة التحرير. ولكن يجب القول أيضا بأن هذا من السياسات التي يجب أن تعتمد منهج المرونة لا منهج الثبات على خط واحد، فإن هذا الثبات على خط واحد قد فوَّت كثيرا من الفرص، لا سيما في حقبة الربيع العربي.

وإذا علمنا أن خط الأنظمة هو خط معاداة حماس والمقاومة، وأنه خط ثابت، وأن هذه الأنظمة أبعد شيء من الوطنية ومن أن تفكر بمصالح الأمن القومي، فإن العلم بهذا يفضي ضرورة إلى التشوق والتشوف، وربما العمل الجاد، على إزالة هذه الأنظمة، وعلى التقاط الفرص المتاحة لذلك.

تصح هذه السياسة لو كانت تلك الأنظمة أنظمة وطنية، ولكن الواقع

---

(١) ينظر هنا: عدنان أبو عامر، «علاقات حركة حماس مع العالم العربي»، ضمن: محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس، ص٢٨٧ وما بعدها.

يؤكد أنها ليست كذلك، ومن هنا فإن البقاء في خانة تجنب عداوتها، والحرص على استرضائها، وتفويت الفرص المتاحة لإزالتها، سيكون خطأ تاريخيا جديدا في مسيرة المقاومة الفلسطينية.

ويجب أن أكرر التنبيه: إنما أقصد بوضوح أن تكون السياسة المعتمدة في التعامل مع السلطة ومع الأنظمة سياسة مرنة تذهب إلى اقتناص الفرص لا سياسة ثابتة ترى أن المعركة الداخلية خط أحمر أو أن معاداة الأنظمة العربية خروج عن المنهج!

☼ ☼ ☼

(٤)

ثمة ملاحظة يجب ألا تفلت منا في استعراض تاريخ المقاومة، وهي أن التنظيمات الفلسطينية التي عمت زمن الخمسينات والستينات، كانت تنظيمات حديثة أو حداثية، بمعنى أنها تنظيمات هرمية، لا تبالي بالعلاقات الاجتماعية القديمة والتقليدية كالأسرة والعشيرة والبلدة، ويرجع هذا إلى سببيْن كبيريْن؛ الأول: هو الزلزال الاجتماعي الذي أصاب المجتمع الفلسطينية وبدَّل طبيعته في مناطق الشتات التي تأسست فيها هذه التنظيمات، والثاني: أن هذه القيادات كانت تختزن وتستبطن رأيا سيئا في طبيعة المقاومة التي أخرجها الفلسطينيون في أزمنة الثلاثينات والأربعينات، باعتبارها مقاومة تعتمد على مفهوم «الفَزْعَة»، وهي كلمة بمعنى الهبة الاجتماعية التي ينطلق فيها الناس لمعاونة المحتاج، فالفزعة مثلما تحمل سائر المعاني الفاضلة في الإغاثة والعون والتماسك الاجتماعي، فإنها ـ على الأقل من وجهة نظر التنظيمات الناشئة في الخمسينات والستينات ـ كانت نوعا من العشوائية الخالية من التخطيط البعيد، والخالية من قيادة مركزية مهيمنة، وبالتالي فهي واحدة من أسباب النكبة التي يجب تجنبها[1].

---

(١) نقاش مهم عن مفهوم الفزعة، عند: باسل الأعرج، وجدت أجوبتي، ط١ (بيروت: دار بيسان، مارس ٢٠١٨م)، ص٣٥ وما بعدها.

وليس ها هنا موطن تحرير هذه الفكرة والقناعة، بل هي قراءة لهذا الواقع النفسي المتشكل لدى قيادات هذه المرحلة، والذي انطبع على طبيعة تنظيماتهم.

وهذه الملاحظة تفضي بنا إلى أمر آخر، أحسبه كان من أهم الثغرات التي أدَّت إلى كوارث فلسطين المتعاقبة، تلك هي: عدم اشتراك الشعب في المعركة!

لهذه المشكلة فروع عدة، منها:

١. طبيعة الدولة الحديثة التي تهيمن ثقافتها ونظامها حتى علينا وعلى قادة الحركات المقاومة، والتي تجعل تصورهم عن المعركة تصورا قائما على الجيش المسلح المنظم ذي الفروع المتعددة من الأسلحة والتخصصات، وتستبعد الشعب من المعركة، بل هي تتخوف منه ومن انخراطه فيها، إذ يشعر الجيش حين يخوض المعركة بأن المقاومة الشعبية عبء عليه!

٢. طبيعة الأسلحة المستخدمة في الحروب الحديثة، حيث لم يعد الأمر سيوفا أو رماحا أو سهاما سهلة التصنيع، بل صارت عملية تصنيع معقدة لإنتاج أبسط الأسلحة في الحروب المعاصرة كالبنادق والمسدسات والقذائف.. وتلك المشكلة فرع عن المشكلة الأولى الخاصة بطبيعة الدولة الحديثة، حيث انعكست طبيعة الدولة وجيشها على طبيعة التصنيع فيها. وقد كانت نتائج هذا الحالة مريرة دائما، فنحن أمة لا تعاني من قلة في المقاتلين، بل المقاتلون فيها كثيرون لكنهم لا يجدون السلاح والعتاد! وهذه الثغرة هي أبرز الثغرات التي كانت السبب في النكبة.. لقد حجب المحتل والأنظمة التابعة له السلاح عن أهل فلسطين، فمن لم يمت منهم في المعركة اضطر لأن ينزح ويهاجر أمام التفوق التسليحي اليهودي!

٣. التفوق التسليحي والعلمي الخطير الذي يمتلكه عدونا: الصهيوني ومن ورائه الغربي، وهذا ما يجعل البسالة والشجاعة والعدد الوفير بلا قيمة في أكثر الأحيان، فكيف يكون الحال إن كان الذين يقاتلون من صفنا عددا

من الفصائل التي لن تبلغ أن تكون جيشا وليست لديها الأسلحة الثقيلة، في حين أن الذي نقاتله جيشٌ متطور متفوق في العدد والعدة والتقنية، ثم بالدعم المتتالي من ورائه؟!

إن هذا وغيره من الأسباب يجعلنا مضطرين إلى التفكير في حل: «الشعب المسلح»، وكيف يكون بالإمكان إشراك أقصى عدد ممكن من الشعب في المعركة، وتسليح أقصى عدد ممكن منهم، وتوفير هذه الأنواع من الأسلحة بأقصى ما يمكن ضمن نطاق البيئة المتاحة.

سيحتاج هذا الأمر عملا دائبا وصبورا، وهو قبل ذلك عمل مبدع وابتكاري، في ابتكار أنواع الأسلحة التي يمكن تصنيعها محليا ويمكن إنتاج عدد هائل منها ليتملكها أكبر قدر ممكن من الناس، وثمة العديد من الأفكار التي أخرجتها بعض العقول تحوم حول هذا الأمر.

إن السؤال المركزي في هذا الأمر: كيف يمكن أن نحيل المواد المتاحة من الطبيعة ومن الأدوات المدنية إلى أسلحة نحارب بها؟ على هذا السؤال يجب أن تعمل عقول المهندسين والفنيين والمبدعين.

وإلى جوار هذا سؤال آخر لا يقل عنه أهمية: كيف يمكن إنتاج سلاح رادع، إذا لم نتمكن من إنتاج أو استيراد مضاد للطائرات، فإن قصف الطائرات هذا هو المعضلة الأكبر في حروب أمتنا منذ مائة عام على الأقل، ولو كُفينا شر الطيران لكانت نتائج كل المعارك مختلفة تماما، ولكنا الآن نكتب تاريخا آخر.

فالقصد الآن: إذا لم نتمكن من مضادة الطيران، أفليس ممكنا أن يكون لنا سلاح رادع بسيط ضمن إمكانياتنا، ألا يمكن أن تحمل صواريخ المقاومة أو طيرانها المسير رؤوسا أو قذائف تفجيرية من مواد كيميائية مبتكرة تستطيع أن تسبب دمارا أو آلاما أو تأثيرات شديدة في العدو، لنصنع بذلك معادلة الردع والتكافؤ بين قصف الطيران وبين هذا السلاح؟!

إن العمل على اختراع مواد كيميائية أو نحوها أمرٌ يجب أن تتوفر عليه عقول المهندسين والكيميائيين والفنيين من سائر التخصصات لسدّ

الفجوة الهائلة، ولتمكين هذا الشعب من أن يملك ما يدافع به عن نفسه.

ربما يتخوف البعض من فكرة الشعب المسلح، ومن فكرة انتشار السلاح وأنواعه بين الناس، لكن المؤكد أن شعبا مسلحا هو الشعب الذي يتعذر أو حتى يستحيل احتلاله، ولقد كان نزع سلاح الشعب هو أول خطوة يقوم بها المحتل في بلادنا، وما جاءتنا النكبات ولا النكسات إلا حين نُزِع السلاح من شعبنا، وصار محتكرا بيد جيش العدو أو جيش النظام التابع للعدو، ولولا ذلك ما نُكِبنا ولا فقدنا الأوطان والديار المقدسة!

وانتشار السلاح يصنع معادلة اجتماعية متوازنة، بين فئات الشعب، وبين الشعب والسلطة، وبين الشعب والمحتل.. وتسلح الشعب ضرورة حقيقية: عسكرية وسياسية وحتى نفسية واجتماعية، فالشعوب المسلحة هي التي تقل فيها معدلات الجرائم، بخلاف الشعوب العزلاء التي تكثر فيها معدلات الجرائم، فما من مجتمع إلا وفيه خارج عن القانون فهو الذي يكون مسلحا، وبذلك يتفوق المجرم المسلح على الصالح الأعزل!.. فكيف إن كان المجرم المسلح هو الذي يضع القانون وينفذه؟!

والشعوب المسلحة أكثر شعورا بعزتها وكرامتها، وأكثر ابتعادا عن الذلة والمسكنة، وهذا يجعلها أكثر جرأة في مواجهة الاحتلال وأكثر بذلا في دفعه، ويجعلها مع ذلك حاضنة شعبية ممتازة للمقاومة.

وأي تخوفات يمكن أن تُطرح في هذا الصدد لن تخلو من علاج، وتنظيم الأسود في جيش ليس أمرا مستحيلا، إنما المستحيل جعل الخراف والدجاج جيوشا!